



اعترافات

جان چاك ووسو

الجزء الأول



الناشر  
المؤسسة العربية الحديثة

الطبع والنشر والتوزيع  
الطبعة الأولى: ١٩٥٧م - ١٩٥٨م

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني

الإسكندرية

٤١

كتابي



يصدره : هادي مراد

مطبوعات كتابي

# اعترافات جان چاك روسو

الجزء الثالث



إصدار جديد

# كتابي

بإصداره حلمي مراد

●●●

كتب فنية للقصة والطفلة الرقيقة ..

● مختارات كتابي : بالة مطلة

معالجة لأروع الكتب العالمية .

● مطبوعات كتابي : الفرجة

الألمنة الكاملة لشوام الكتب العالمية.

● روايات كتابي : ترجمة

أحدث الروايات العالمية المعاصرة

●●●

شعير كتابي



مصباح الفكر عند الإلهام

●●●

رشة

الأعمال/إسماعيل ديساب

●●●

إشراف

الأعمال/حمدي مصطفى

●●●

المكتبات

هيئة التحرير : حلمي مراد : ٩٨ شارع الماسون - مصر الجديدة ٢٧٥١٢٦ - ٢٩١٤٤٤٩

الناشر : المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة ت : ٨٢٦٢٨٠ - ٨٢٦٧٤٧

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ١٦٠ ١٠ شارع كامل عبد القوي القهجالة -

٤ شارع الإسماعيل بن مشية الكبرى بركسي مصر الجديدة - القاهرة ت : ٨٢٦٢٨٠ -

٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧ ج ٢٠٠٠ ع



**اعترافات**  
**جان جاك روسو**  
**الجزء الثالث**



## موجز ما جاء في الجزئين الأول والثاني

ولدت في ( جنيف ) ، في سنة ١٧١٢ ، لأب كان يعمل في صناعة الساعات ، ولأم توغيت عند مولدى . وبدلاً من أن يكرهنى أبى لذلك ، فإنه أسرف فى حبه لى ، لآذنى كنت شديد الشبه بأمى .

تنبه إحساسى قبل أن يتنبه فكرى . ثم عهد أبى إلى أسلوب خطر ، إذ أشركنى فى قراءة الروايات والكتب الدسمة .

اضطر أبى إلى أن يهجر ( جنيف ) عقب مشاجرة بينه وبين مسكرى فرنسى ، كادت تلقى به إلى السجن دون مبرر قانونى . فبقيت فى كنف خالى « برنار » ، الذى كان متزوجاً من صمتى ، والذى أرسلنى مع ابنه إلى ( بوسى ) لتقيم فى رعاية القس البروتستانتى « لامبرسييه » ، ولتلقى العلم على يديه ويدي أخته . وكانت الأنسة « لامبرسييه » تولينى حنان الأم ، ولكن مقابها إياى نبه المشاعر الحسية والشهوانية فى كيانى !

على أثر مقاب ظالم ، لذنب لم ارتكبه ، كرهت الظلم ، وولت طمأنينة طفولتى . . والحقتى خالى بمكتب موثق للمعقود ، على أمل أن أشق طريقى فى المحاماة . . فيما بعد . . ولكنى لم استسغ هذا العمل .

قرر خالى أن من مصلحتى أن أتعلم حرفة ، فالحقتى كصبى . . أو تلميذ صانع . . لدى حبار كان ينقش على المعادن . وهناك اخططت بالعمال الذين كانوا يكبروننى سناً ، فتعلمت

السرقه، لا سيما وأن معلمى كان يقسو على بالعقاب والحرمان . ومع ذلك فأننى لم أكن أسرق حبا فى المال أو الحيازة . . وإلى جانب هذا ، اشتد شغفى بالقراءة حتى أصبح تهوبا .

واضطرتنى قسوة معلمى ، ونفورى من خيائى هذه ، إلى الهرب من ( جنيف ) . . وانتهى بى المطاف إلى سيده محسنة فى ( انيسى ) ، كان ملك سردينيا قد خصها بمعاش ، لأنها اعتنقت الكاثوليكية . . تلك هى « مدام دى فاران » التى اشغقت على ، وأرسلتنى إلى دير نبذت فيه عقيدتى البروتستانتية ، وأصبحت كاثوليكية .

واستطبت بعد ذلك حياة الترحال ، وعانيت الفاقة والمتاعب . ثم انتهيت إلى العودة إلى السيدة دى فاران ، التى رحبت بى ، وأنزلتنى من نفسها منزلة الابن ، وأقردت لى غرفة فى دارها ، وراحت تنفق على تعليمى الموسيقى ، رغم تضائل مواردها . . وتعلقت بهذه السيدة تعلقا ملك على كل حواسى وعقلى . . وبمرور الأيام صرت أدموها « ماما » !

وكانت هذه الحياة أبهج من أن تدوم . فقد أولفدتنى « ماما » مرة لأعاون السيد « لوميتز » ، الذى كان رئيسا لفرقة الموسيقى بكنيسة ( انيسى ) ، والذى اختلف مع بعض رهبان الكنيسة فشاء أن يفر من وجوههم . . وقد رافقته إلى ( ليون ) ، حيث أخذت تعاوده نوبات الصرع ، لفرط إسرافه فى الشراب ، ففررت منه فى إحدى هذه النوبات ، وعسدت إلى ( انيسى ) . . وإذا بى أفاجأ بأن « ماما » قد رحلت فى بعض شئونها ، ولم أدر لها مقصدا أو مقرا !

واقمت غفرة مع « فينتور » ، وهو شاب كنت أعرفه من قبل ، وكان يزعم أنه موسيقى موهوب . وكان لبقاً ، أنيقاً ، مرحاً ، يستهوى النساء . وفي تلك الاثناء ، كان أبى قد تزوج من امرأة على شيء من الدهاء والقول المعسول ، وشغل عنى بأولاده منها .

وانتهى بى المطاف إلى ( لوزان ) ، حيث رحت أتكسب عيشى بتدريس الموسيقى ، باذلاً جهدى — فى الوقت ذاته — إلى تنمية معرفتى بها . وحاولت إذ ذاك أن أكون ملحناً ، دون ما إلمام كاف بأصول التلحين ، فمضى لحنى الأول بفشل ذريع ، جعلنى أعيش فى حزن وهوان لفترة من الوقت .

ولم اكف طيلة هذه الأحداث من الحنين إلى « ماما » ، لا لحاجتى المادية محسب ، وإنما لحاجتى القلبية قبل كل شيء ! .. ومع ذلك ، فإن تعلقى بها — رغم ما كان عليه من تاجع وقوة — لم يكن ليحول بينى وبين أن أحب غيرها . ولكن ، على غير شائكة حبى لها !

وقدر لى أن أذهب إلى باريس ، ولكننى لم ألق فيها الحظ الذى كانت تصوره لى أحلامي . على أننى ظفرت هناك بنياً جعلنى أنطلق من جديد بحثاً عن السيدة دى « ماران » . وهكذا أخذت أجوب الأقاليم على غير هدى ، متعرضاً للتشرد ، والتضور جوعاً ، والنوم فى الطرقات .. حتى مرمت أخيراً أن « ماما » الحبيبة قد استقرت فى ( شامبيرى ) ، فخففت إليها .. وما كان أحلاه من لقاء !

واستطاعت « ماما » أن تحصل لى على منصب فى

« المساحة » ، فبدأت أكسب عيشي بعمل مشرف ! .. وكانت هذه خير خاتمة لبأكورة شبابي !

واقمت في دار « ماما » ، ولكنها لم تكن في بهاء دارها الأخرى في ( انيسى ) ، إذ كانت موارد « ماما » في تضائل ، وكانت أمورها مضطربة . وفي هذه الحياة الجديدة ، اكتشفت أن « ماما » كانت على علاقة بخادمها الوفي « كلود لانيه » . وكان شابا لا يكبرني بكثير ، ولكنه كان رزينا وقورا ، غدا منى بمثابة المربي . ومع أنني لم أنج من الألم ، إذ أدركت أن ثمة من استطاع أن يعيش مع « ماما » في مودة تفوق مودتي كثيرا ، إلا أن وفائي للسيدة امتد إلى الشاب ، فقد كنت راقبا في سعادتها هي قبل شيء !

وانصرفت إلى الموسيقى — في تلك الاثناء — في استغراق ملك على حواسي ، وحملني على أن استقيل من عملي في « المساحة » ، وأن استعين على الحياة بتدريس هذا الفن . وقادني هذا إلى المجتمع الراقى ، وإلى دور قوى الجاه والثراء . ويتدر ما تعرضت للمغازلات من فتيات ونساء هذا الوسط ، فإن سذاجتي — التي ذهبت إلى درجة الغباء — كانت تفوت على الفرص . إلى أن أجبت « ماما » بأن إحدى السيدات كانت توشك أن توقعني في أحابيلها ، فأنشفت على من مخاطر شبابي ، ورات أن تنقذني منها بأقرب طريقة خطرت لامرأة في مثل ظروفها .. بأن تمنحني نفسها !

وأخفت « ماما » تروى عطشي إلى النساء من معينها .. على أن العلاقة البدنية لم تفسد شيئا من براءة علاقاتنا العاطفية والروحية والفكرية ، كما أنها لم تؤثر على علاقة كل منا

بخادمها وعشيقتها « كلود آنيه » ، بل قامت بين « ثلاثتنا » زمالة قد لا يكون لها مثيل على الأرض ! .. وما لبثت « آنيه » أن ماتت — وهو في ريعان شبابه — فحظت محله في تدبير شئون « ماما » وماليتها . ولاحظت أن مواردها كانت في نضوب ، فأخذت أعمل بجاهدا على أن أجنبها هاوية الانفلاس .

وانتهى بى التفكير إلى وجوب الحصول على عمل ، كى أعمل من دخله « ماما » إذا المت بها الفاقة . وفى سبيل ذلك رايت أن اتعلم التلحين ، فكان هذا الاتجاه عاملا جديدا على تبديد مواردها المتضائلة ! .. وكذلك شرعت فى تأليف الأغانى .

وقضيت عامين أو ثلاثة بين الموسيقى ، ومجالسة الحكام وذوى الجاه ، والرحلات .. وما لبثت صحتى أن أخذت تتداعى ، وغلبنى الاكتئاب والأسى والتشاؤم ، فنصح لى الطبيب بأن أقيم فى الريف . وسرعان ما استأجرت « ماما » منزلا ذا حديقة ويستبان ، فى ضيعة ( شارميت ) . وهناك ، نعمت بأهنا فترة فى حياتى .. مع « ماما » !

ولكنه كان هناء قصير الأجل .. ففى تلك الأثناء ، شعرت بضعف فى القلب ، وضيق فى التنفس ، وطفن فى الأنين ، وتراخ فى حيويتى ، مما أوحى إلى بأن عمرى لن يطول ، فرأيت أن استمتع بما تبقى منه أعظم استمتاع . وأقبلت على دراسة العلوم والآداب ، كما أكثرت من الأسفار ، أنشد علجا لعللى .

وفى إحدى هذه الأسفار ، التقيت بالسيدة دى « لارناج » وكانت تكبرنى فى السن كثيرا ، ولكنها راحت تعمل على إغوائى ،

حتى إذا رأت ما كان الخجل والتردد يخلقانه من قيود تشل إقبالي عليهما ، لم تتورع من أن تكون هي البسادة بالعناق والتقبيل ، وأصبحت عشيقتي خلال الرحلة . ولو أنني عشت مائة عام ، لما استطعت أن أفكر قط في هذه المرأة الفاتنة دون أن يطغى السرور على ! . . كانت تمتعني مع « ماما » مشوية بالأسى والضيق . . أما مع السيدة دي لارناج ، فقد كنت فخورا برجولتي ، مزهوا بسعائتي .

وكانت صدمة لي أن عدت إلى « ماما » ، فوجدت أن شابا قد حل محلي أثناء غيابي . . وكان شابا جاهلا ، مغرورا ، استطاع أن يفرض على « ماما » سلطانه ، فلم استطع أن أطيق بقاء إلى جوارها ، وقررت أن أهجّر الدار ، وأن أرحل إلى باريس ، لأعرض على « الأكاديمية » طريقة ابتكرتها لتسجيل « النوتة » الموسيقية بالأرقام بدلا من العلامات .

### الكتاب الثاني

وصلت إلى باريس في خريف سنة ١٧٤١ . . واستطاع بعض من حملت إليهم خطابات للتوصية ، أن يمكنني من التقدم إلى « الأكاديمية » برسالتي التي قدر لي أن يناقشني فيها علماء لم يكن بينهم من له إلمام كاف بالموسيقى ، فانتقوا إلى الحكم بعدم صلاحية طريقتي . وبدلا من أن أستسلم للقنوط ، أسلمت نفسي للخمول والقدح ، ورحت أقرر على نفسي لأبدي بها تبقى من موارد المتضائلة .

والآن . . تعال نتابع « روسو » وهو يشرح طريقته إلى قمة المجد في المجتمع الباريسي .

### اعترافات جان چاودوسو - الجزء الثالث

ولقد كانت السكينة ، واللذة ، والثقة التي استسلمت بها لهذه الحياة الخاملة المنعزلة — بالرغم من أنني لم أكن أمتلك موارد تمكّني من أن أستمّر فيها ثلاثة أشهر — من الصفات الغدة في حياتي ، ومن الظواهر المعجبية في طباعى ! .. كانت الحاجة البالغة إلى أن أجد من يعنى بى ، هى عين الشيء الذى جردنى من الجرأة على أن أظهر بين الناس .. كما أن الضرورة التى كانت تدعونى إلى زيارة الناس ، جعلت الزيارات أمرا لا أطيقه ، حتى أننى كففت عن زيارة أعضاء المحفل أنفسهم وغيرهم من رجال الأدب ، الذين قد تعرفت إليهم . وأصبح « مارينو » والراهب دى « مابلى » و « فونتيل » هم الوحيدون — تقريبا — الذين ظللت أزور دورهم فى بعض الاحايين . كذلك اطلعت أولهم على مسرحيتى الهزلية «نارسييس» فرائقت له ، وتكرم بأن أدخل عليها بعض التنقيح . . . وكان « ديدرو » يصفرهم كثيرا فى السن ، فقد كان يقاربنى عمرا . وكان مولعا بالموسيقى ، ملها بنظرياتها ، ومن ثم ماننا كنا نتحدث منها ، كما أنه كان يحدثنى عن مشروعاته الأدبية ، فخلق هذا بيننا رابطة من الود القوى دامت خمس عشرة سنة ، وكان من المحتمل أن تدوم زمنا أطول ، لو أننى لم أدمع دمعاً — لسوء الحظ — إلى مهنته ذاتها . . . وكان هو صاحب الخُتب فى ذلك !

ولن يمكن تصور الطريقة التى استغللت فيها هذه الفترة القصيرة ، الثمينة ، التى سبقت اضطرارى إلى أن اتسول قوتى ! .. فلقد حفظت من ظهر قلب أجزاء من الشعر كنت قد درستها قبل ذلك مائة مرة ونسيتها . واعتدت أن أتمشى كل صباح — فى حوالى الساعة العاشرة — فى حدائق

(لوكسمبورج) ، حاملاً « ميرجيل » أو « روسو » في جيبى (١) ، وأروح أردد في ذهنى — حتى موعد الغداء — أحد الأناشيد القدسية ، أو أحد أناشيد الرعاة ، دون أن يثبط من عزيمتى أننى كنت واثقاً من أننى لن ألبث — إذ أردد الجزء الذى اخترته ليومى — أن أنسى الجزء الذى حفظته بالأمس .. وتذكرت أن الأسرى الاتيين — بعد هزيمة « نيسياس » فى (سيراكيوز) — (٢) كانوا يستمدون قوتهم من ترديد أشعار « هوميروس » . ولقد كان الدرس الذى استخلصته من هذه ، كى أعد نفسى للفاقة ، هو أن أروض ذاكرتى البديعة على حفظ جميع الأشعار من ظهر قلب !



وكانت لدى طريقة مبتكرة مكيئة أخرى فى الشطرنج ، الذى كنت أكرس له بانتظام فترة ما بعد الظهر — من الأيام التى لم أكن أذهب فيها إلى المسرح — فى مقهى « موجى » . وقد تعرفت هناك إلى السيد دى « ليچسال » ، وإلى سيد يدعى « هوسون » ، وإلى « فيليدور » ، وإلى جميع لاعبى الشطرنج الكبار فى ذلك العهد ، دون أن أحرز مزيداً من التقدم فى اللعب . على أننى لم أكن أرتاب فى أننى لن ألبث أن أغدو فى النهاية أقوى منهم جميعاً ، وكان هذا — فى رأى — كافياً

---

(١) يقصد ديوانى الشامرين « ميرجيل » و « جان باتيست روسو » .

(٢) كان نيسياس من أشهر القادة الاغريق اللذين برزوا فى حروب البلوونيز ، وقد هزم وهلك فى حملة عسكرية فى سنة ٤١٢ قبل الميلاد .

لأن يمدنى بمورد للعيش . وكنت كلما استهوتنى فكرة طائشة جديدة ، رحت اتدبرها بنفس الطريقة دائماً .. كنت أقول لنفسى : « ان الذى يبرز فى شيء ، يطمئن دائماً إلى أنه منشود . فلنبرز إذن ، فى أى شيء ، وإذا ذاك أغدو مرغوباً .. إن الفرص سانحة ، وعلى كفايتى يتوقف مابقى من الأمر ! » .. ولم يكن هذا التفكير الصبىائى وليد سفسطى ، وإنما كان نتاج كسلى . فقد كنت فى جزمى من الجهود الضخمة السريعة التى كانت خليقة بأن ترهقنى ، أسعى إلى أن أزين كسلى لنفسى ، وإلى أن أدارى خجلى من نفسى بحجج ملائمة !

وهكذا مكثت ساكناً إلى أن انتهت نقودى . وامتقد أتنى كنت على استعداد لأن أقبع حتى آخر « سو » لدى ، دون أى قلق ، لو لم يوقظنى الأب « كاستيل » — الذى كنت أذهب لزيارته أحياناً ، وأنا فى طريقى إلى المقهى — من سباتى . ولقد كان الأب « كاستيل » مخبولاً ، ولكنه كان — برغم هذا — رجلاً طيباً . وقد غاظه أن رأى أبدي وقتى وإمكانيتى بهذا الشكل ، دون أن أفعل شيئاً . فقال لى : « ما دام الموسيقيون ، وما د العلماء ، يابون أن يغنوا بطريقتك ، فعدل من أوتارك ، وجر النساء ، ولعلك تكون — فى هذه الناحية — أكثر توفيقاً ! .. » لقد تحدثت منك إلى السيدة دى « بوزينغال » ، فإذهب لزيارتها ، واذكر أنك قادم من لدنى ! .. إنها امرأة طيبة ، يسرها أن ترى شخصاً من موطن زوجها وابنها (١) ، ولسوف

(١) كانت البارونة دى بوزينغال بولندية متزوجة من فرنسى .

لنلقى في دارها بابنتها السيدة دي « بروجلي » ، وهي امرأة زكية . . وهناك السيدة « دويان » ، وهي الأخرى بمن حدثتهن منك ، فاحمل اليها مؤلفك ، لأنها تتوق إلى رؤيته ، وسوف تحسن استقبالك ! . . إن المزم لا يستطيع أن يبرم عملا في ( باريس ) إلا بوساطة النساء ، فهن كالمنحنيات ، التي يكون الحكماء بمثابة الخطوط التقريبية (١) لها . . فالفريقان يتقاربان باستمرار ، ولكنهما لا يتماسان أبدا ! » .

وبعد أن أرجأت هاتين المهمتين المتعبتين من يوم إلى آخر ، استجمعت أخيرا شجاعتي ، وذهبت لزيارة السيدة « بوزينفال » ، فأكرممت وفادتي ، وإذا دخلت السيدة دي « بروجلي » الغرفة ، بادرتها قائلة : « ها هو ذا ، يا ابنتي ، السيد روسو الذي حدثنا عنه الأب كاستيل ! » . فاطربت السيدة دي بروجلي مؤلفي ، وقادتني إلى معزمها ، لتريني أنها كانت معنية به . ووجدت أن الساعة قد شارفت الواحدة ، فأردت الانصراف ، غير أن السيدة دي بوزينفال قالت لي : « أنك على مسافة بعيدة من مسكنك ، فامكث ، وتناول غداك هنا » . ولم أكن بحاجة إلى إلحاح . . وبعد ربع ساعة ، أدركت أن المائدة التي دعتني إليها كانت مائدة الخدم ! . . فقد كانت السيدة دي بوزينفال طيبة ، ولكنها كانت ضيقة الالمق ، شديدة الاعتداد بعراقة أصلها البولندي ، وليست لديها فكرة تفكر من الاحترام

(١) الخط التقريبي - أو التقريبي - في الهندسة ، هو خط مستقيم

يتطابق المنحنى تطابقا لا نهائيا . . أي انها يتقاربان دائما دون أن يتماسا !

الواجب للمواهب . وقد حكمت على — في هذه المناسبة —  
بمسلكي أكثر منها بملبسي الذي كان — برغم بساطته المتناهية  
— لا نأكل كل اللياقة ، ولا ينم قط عن رجل يأكل الخدم . .  
لا سيما وانني كنت قد نسيت الطريق إلى مائدة الخدم من  
زمن طويل ، ولم أكن راغبا في أن أعلمها من جديد (١) . .  
وقلت للسيدة دي بوزينفال — دون أن أبدى غضبي — انني  
تذكرت أن لا بد لي من العودة إلى مسكني لهمة بسيطة .  
فاقتريت مدام دي بروجلي من أمها ، وهست في أذننها بوضع  
كلمات كان لها تأثير سريع ، إذ نهضت مدام دي بوزينفال  
لتستبقيني قسائلة : « انني أقصد أن يكون تشريفك إيانا  
بالغداء . . معنا ! » . ورأيت أن التثبت بالكرامة مهمل أخرق ،  
فمكثت . وإلى جانب ذلك ، كان لطف السيدة دي بروجلي  
قد ملك قلبي ، وجعلني ارتاح إليها ، فكنت جد مغتبط بتناول  
الغداء معها . وداخلني الأمل في أنها لن تندم — إذا ما عرفتني  
جيذا — على أنها أولفتني هذا الكرم . ولقد تناول الغداء هناك  
أيضا ، السيد رئيس ( لاموانيون ) ، وهو من أعظم أصدقاء  
الأسرة ، وكان — كالسيدة دي بروجلي — يالف اللهجة  
الباريسية الموجزة ، التي تتألف من كلمات صغيرة ، كلها كنايةات  
بسيطة رقيقة . . ولم يكن لجان جاك البائس مجال للتألق في  
هذا المضمار ! . . وكنت من حسن الإدراك بحيث انني لم أشأ

---

(١) يعني « روسو » أنه كان قد نسي معاينة الخدم وارتفع فوق مستواهم

ولعلنا نذكر — بما جاء في الجزء الأول — أنه عمل خلالها فترة من الزمن .

أن أنظر بالمرغم من « منيرفا » (١) ، فأمسكت لساني . . .  
 ما كان أسعدنى لو أننى كنت دائماً بهذه الحكمة . . . لقد كنت  
 بهذا جديراً بالآ أنردى فى الدرك الذى أجدنى اليوم فيه !

ولقد استأثرت لما بدوت عليه من ثقل الفهم ، ولعجزى من أن  
 أبرر . . . فى نظر السيدة دى بروجلى — ما فعلته هى من أجلى .  
 لذلك لجأت . . . بعد الغداء . . . إلى موردى المعهود . فقد كانت  
 فى جيبى رسالة شعرية ، كتبها إلى « بريسو » أثناء مقامى  
 فى (ليون) ، ولم تكن الحرارة تعوز هذه القصاصة ، فعمدت  
 إلى قراءتها ، واستطعت أن أحمل ثلاثتهم على البكاء . ولقد  
 خيل إلى . . . سواء من فرور ، أو من صدق فى تأويلاتى — أننى  
 رأيت عيني السيدة دى بروجلى تقولان بنظراتهما لأمها :  
 « ما رأيك يا ماما ؟ . . . أفكنت على خطأ إذ قلت لك إن هذا  
 الرجل كان أكثر جدارة بأن يتناول غداءه معنا منه مع  
 وصيفاتك ؟ » . . . وكنت حتى تلك اللحظة مثقل القلب ،  
 ولكننى شعرت بالرضى بعد أن ثارت لنفسى على هذا النحو .  
 ولقد تبادت السيدة دى بروجلى قليلاً فى رأى الطبيب الذى  
 داخلها نحوى ، معتقدة أننى لن البث أن أثر ضجة فى (باريس) ،  
 وإن اغدو ذا حظوة لدى النساء . ولكى ترشدنى فى هذا المجال  
 الذى كنت غير خبير به ، أمطنتى « مذكرات الكونت . . . » ،  
 عائلة : « أن هذا الكتاب مرشد مستحتاج إليه فى المجتمع ،

(١) مينيرفا آفة الحكاء والحروب والفنون لدى الرومان . ويشير « روسو »

بهذا التعبير إلى أنه لم يقا أن يدعى ما كان بعيداً عن أن يسعده فيه ذكوره

ومستحسن صنعا إذا أنت استعنت به بين وقت وآخر ! » .  
ولقد احتفظت لأكثر من عشرين عاما ، بهذه النسخة ، معترفا  
بفضل اليد التي جاءتني عن طريقها ، وإن كنت كثيرا ما اضحك  
للراى الذى لاح أن هذه السيدة قد ارتأتة عن مؤهلاتي للظرف  
والملاطفة . . ومنذ اللحظة التي طالعت فيها هذا الكتاب ، رقيت  
في أن أخطب ود صاحبه . وقد حققت الأحداث هذه الرغبة ،  
فإذا هو الصديق الصادق الوحيد لى بين رجال الأدب (١) .

وجرؤت — منذ ذلك الحين — على أن أطمئن إلى أن السيدة  
البارونة دي بوزينغال ، والسيدة المركيزة دي بروجلى — وقد  
اهتمتا بأمرى — لن تدعاني طويلا بلا مصدر للعيش . ولم  
أخطئ الحسد ! . فلنتكلم الآن عن دخولى دار السيدة  
« دويان » ، الذى كانت عواقبه أطول مدى وأجلا !



كانت السيدة « دويان » — كما هو معروف — ابنة  
صمويل برنار ، والسيدة فونتين . . وكن ثلاث أخوات ، من  
الممكن أن يدعين بالحسبان الثلاث : السيدة ديلا توش — التى  
موت إلى أنجلترا مع دوق كينجستون — والسيدة دارني ،  
عشيقة السيد الأمير دي كونتى ، بل — بالأحرى — صديقته ،

---

(١) عتب « روسو » — في هامش مذكراته — على هذا بقوله : « هكذا  
ظللت أعتقد طويلا » وعن اقتناع واستخ ، حتى اتى عهدت اليه — منذ  
مودتى الى باريس باعترافى . إذ أن جان جاك الحزم المستريب « لم  
يؤمن قط بوجود الغنى والخداع ، الا بعد أن وجد نفسه ضحية لهما » .

الصديقة الوحيدة المخلصة ، وكانت امرأة جديرة بأن تعبد ،  
للطف وطيبة شخصيتها الفاتنة ، بقدر ما هو لذكائها المستحب ،  
والمرح السذى لم يكن يفارق طباعها .. وأخيرا ، السيدة  
« دويان » ، أجمل الثلاث ، والوحيدة منهن التى لم يكن ثمة  
هوج يعلب عليها فى مسلكها ! .. وكانت جزاء كرم ضيافته  
السيد دويان ، إذ أن أمها منحته أياها ، مع منصب « الملتزم  
العام » (١) وثروة ضخمة ، عسرفانا لحسن حفاظته بها فى  
إقليمه !

وكانت — عندما رايتها لأول مرة — لا تزال من أجمل نساء  
باريس . وقد استقبلتنى فى غرفة زينتها ، وكانت ذراعاها  
عاريتين ، وشعرها مهوشا ، وثوبها مهدلا .. وكان مثل هذا  
الاستقبال الأول جسديدا على ، فلم يحتمله رأسى البسائس ،  
واضطربت ، وارتبكت .. وموجز القول اننى شغفت هوى  
بمدام دويان !

ولم يلح أن اضطرابى قد أحدث أثرا سيئا ، إذ انها لم تبد  
ما ينم من أنها لاحظته . وفى استقبالها للكتاب ومؤلفه ، راحت  
تحدثنى عن مشروعى حديث الملة به .. وغنت ، وصاحبت  
غنائها بالعزف ، واستبقتنى للغداء ، واجلستنى إلى جانبها  
حول المائدة . وما كان ثمة ما يدير رأسى أكثر من هذا ، فإذا  
بى أغدو مجنونا بها ! .. وسسحت لى بأن أتردد عليها ،  
فاستغللت — بل أسأت استغلال — هذا السماح ، إذ أصبحت

(١) الملتزم العام : هو الموكل بتحصيل الضرائب .

أذهب إلى دارها في كافة الأيام تقريبا ، واتناول الغداء هناك مرتين أو ثلاثا في الأسبوع ، وكنت أموت شوقا إلى مصارحتها بحبي ، ولكنني لم أجسر على ذلك ، فقد ضاعفت من خطئي الطبيعي عدة أسباب . . كان دخول أي بيت من بيوت الأثرياء المرفهين ، بمثابة باب مفتوح للحظ ، فلم أشأ — في موقتي إذ ذاك — أن أتعرض لإفلاق هذا الباب . ثم إن السيدة دوثن كانت — برغم لطفها — رصينة وباردة ، فلم أجد في مسلكها شيئا مشجعا يثير جرأتى . وكانت دارها متألقة كأية دار أخرى في باريس ، في ذلك الحين ، وملتقى جماعات لم يكن ينقصها سوى أن يقل عددها بعض الشيء لكي تغدو نخبة من كل نوع من علية القوم . فلقد كانت السيدة تحب أن ترى جميع المتألقين : من عظماء ، وأدباء ، ونساء جميلات . . وما كان ليرى عندها سوى الدوقات ، والسفراء ، وذوى الأثرطة الزرقاء (١) . . ومن الممكن اعتبار السيدة الأميرة دي روهان ، والسيدة الكونتيسة دي فوركالكييه ، والسيدة دي ميربوا ، والسيدة دي برينوليه ، والليدى هيرفى ، بين صديقاتها . . كما أن السيد دي فونتنيل ، والراهب دي سان بيير ، والراهب سالويه ، والسيد دي فورمو ، والسيد دي بيرنى ، والسيد دي بوفون ، والسيد دي فولتير ، كانوا من أفراد ندوتها ومن رواد مائدتها . ولو أن مسلكها المتحفظ لم يجتذب إليها عددا كبيرا من الشباب ، لكانت الجماعة التي اعتادت الاجتماع في

---

(١) لقب يطلق على مرتبان الطيفة المقدس . على أن من المحتمل أن يكون

روسو قد استعمله هنا بمعنى : المبرزين من القوم .

دارها ، صفوة مختارة ، وبالتالي أكثر وقارا ! . . . وما كان لجان  
جالت البائس أن يزين لنفسه فكرة أن يتألق كثيرا وسط كل  
هؤلاء . . . لذلك لم أماننى لم أجسر على أن أغضى للسيدة بمواطنى ،  
ولكنى لم أمد أطبق صمتا ، فجزوت على الكتابة . وقد احتفظت  
بالخطاب يومين ، دون أن تذكر لى شيئا عنه . وفى اليوم  
الثالث ، ردتته إلى مع بضع كلمات تائب ، قالتها بلهجة باردة  
تجمد لها دمي ! . . . وحاولت أن أتكلم ، ولكن الكلمات ماتت  
على شفتى ، وخبا وجدى الفجائى مع أملى . وبعد هذا الإعلان  
الكتابى لحبى ، واصلت العيش بقربها كذى قبل ، دون أن  
أحدثها من شيء من مواطنى ، ولو بنظرات عيني !

ولقد ظننت أن حماقتى أصبحت منسية ، ولكنى كنت  
مخطئا . . . وكان السيد دى فرانكوى ، نجل السيد دوبان ،  
وابن زوج السيدة دوبان (١) ، يقارب السيدة فى السن ،  
ويقاربنى . وكان لامع الفكاه ، مليح الهيئة ، يحسن الظهور  
بمظاهر العظمة . ويقال إنه كان مقربا إلى السيدة دوبان ،  
لا لشيء إلا لأنها زوجته من امرأة شديدة الدمامة ، ولكنها  
ضافية اللطف ، وعاشت معها فى وثام تام ، وكان السيد دى  
فرانكوى يحب المواهب ويتكفل بمساعدة أصحابها ، ومن ثم  
فلن الموسيقى — التى كان يلم بها إلما عظيما — كانت وسيلة

(١) أى أنه كان ثمة زواج سابق للسيد دوبان . ويلاحظ أن « دى »

قبل الاسم ، معناه أن صاحبه يحمل لقباً ، وهذا يبرر عدم حمل « فرانكوى »

الاسم دوبان !

ورباطا بيننا . . ولهذا اعتدت أن ألقاه كثيرا ، فتعلقت به .  
وقد أوعز إلى - فجأة - بأن السيدة دوبان أصبحت ترى أن  
زياراتي أكثر مما كان ينبغي ، ورجاني أن أكتب عنها . . . ولعل  
هذه الإشارة كانت في محلها ، لو أنها صدرت عند ما أعادت  
السيدة الخطاب إلى . أما وقد صدرت بعد ثمانية أيام - أو  
عشرة - ودون أي سبب آخر ، فقد لاحظت لي غير ذات  
موضوع . ومما زاد الموقف غرابة ، أن هذا لم يضعف الحفاوة -  
التي كنت أقابل بها في دار السيد والسيدة دي فرانكويي - عن  
ذي قبل ! على أنني خففت من ترددي عليهما ، وكنت موثقا  
أن أقطع زياراتي تماما ، لولا أن السيدة دوبان - مدفوعة  
بتزوة لم أتبين إذ ذاك حقيقتها - سألتني أن أعني ، لثمانية  
أيام أو عشرة ، بابنها الذي كان إذ ذاك قد فقد مربيه السابق ،  
وكان من المنتظر أن يبقى وحيدا ريثما يصل المربي الجديد .  
ولقد قضيت هذه الأيام الثمانية في هذاب ، لم يكن ليحمله  
محملا سوى لذة إرضاء السيدة دوبان . . . إذ كان «شيلونسو»  
المسكين (١) قد أصيب بخبل كاد أن يجر الخزي على الأسرة ،  
وكان سببا في موته بعد ذلك ، في جزيرة ( بوربون ) . ولقد  
كنت - أثناء وجودي بجواره - أحسول بينه وبين أن يؤذي  
نفسه أو يؤذي غيره . وما كانت هذه المهمة بالسهلة ، كما أنني  
لم أكن لأتولاها ثمانية أيام أخرى ، ولو منحنتني السيدة دوبان  
نفسها في مقابل ذلك !



(١) «شيلونسو» هو اسم ابن مدام دوبان .

وأولانى السيد دى فرانكويى صداقته ، فعملت معه ،  
ويدأنا نلقى سويا منهاجا فى الكيمياء لدى « رويل » . ولكى  
أكون على مقربة منه ، تركت منزلى — « سان كينتان » —  
وانتقلت للإقامة فى « ساحة التنس » بشارع ( فرديلينه ) ،  
الذى كان يفضى إلى شارع ( بلاثير ) ، حيث يقيم السيد  
دويان . وهناك ، نشأ عن إصابتي ببرد أهملته ، أن وقعت  
فريسة التهاب رئوى كدت أموت منه . وكثيرا ما كنت أصاب في  
شبابي ب تلك الأمراض الالتهابية : التهابات البلورة ( ذات  
الجنب ) ، والتهابات اللوزتين — التى كنت ضحية سهلة لها  
بوجه خاص — وغيرها ، مما لا ارانى بحاجة إلى تسجيله هنا ،  
وكانت جميعا تدفعنى إلى حيث أرى الموت من كتب كاف لأن ألف  
شكلا . . . وسنح لى الوقت — أثناء نقاهتى — للتفكير فى حالى ،  
واللرثاء لجبنى ، وضعفى ، وكسلنى الذى كان — برغم ما كنت  
أكوى به من نار — يتركنى أنبل فى خمول ذهنى على أبواب  
المائة !

وكنت فى اليوم السابق لوقوعى فى المرض ، قد ذهبت  
لمشاهدة « أوبرا » لروبيه كانت تمثل إذ ذاك ، وقد غلب منى  
اسمها . وبالرغم من أن تعنتى فى الحكم على مواهب سواى  
جعلنى دائما لا أطمئن إلى مواهبى ، فأننى لم أستطع أن أکبح  
نفسى عن ملاحظة أن الموسيقى كانت باردة ، فاقدة الحرارة ،  
خلوا من الابتكار والتجديد . وكنت أجرو — فى بعض الأحيان  
— على أن أقول لنفسى : « يخیل إلى أن بوسعى أن اصنع خيرا  
من هذا » . . بيد أن الفكرة — الباعثة على التهييب — التى

داخلتني من تلقين « الأوبرا » ، والأهميسة التي كنت أسمع  
 الاخصائيين يخلعونها على مثل هذا العمل ، ثبطت عزيمتي في  
 الحال ، وجعلتني اتخرج خجلا لجرأتي على التفكير في ذلك . .  
 ثم ، أين لي بمن يرضى بأن يزودني بالاقوال اللازمة لآية «أوبرا» ،  
 وأن يتجشم عناء تنسيقها ولما لهواي . . ولقد عاودتني  
 هذه الافكار عن الموسيقى والأوبرا ، أثناء مرضي ، فرحت أبان  
 هذيانى أنظم الاغاني والثنائيات والانشيد الجماعية . . وأوقن  
 أنني نظمت قطعتين أو ثلاثا لفوري . . وعفو الخاطر . . ربما  
 كانت جديرة بإعجاب الأساتذة ، لو أنهم سمعوها تؤدي . .  
 ولو تسنى تسجيل أحلام امرئ محوم ، فاية أشياء جليلة  
 ومظيمة قد يتيسر استخلاصها أحيانا من هذا الهنيان !

ولقد ظلت موضوعات الموسيقى والأوبرا هذه ، تشغلني  
 أثناء نقاهتي ، ولكن في توارد أكثر هدوءا . وبدافع من التفكير  
 في ذلك . . بل وبالرغم من نفسي . . امتزمت أن أرضى نفسي ،  
 وأن أحاول وضع « أوبرا » ، بكلامها وموسيقاها ، دون معونة  
 من أحد . ولم تكن هذه أول محاولة لي ، إذ كنت قد ألفت في  
 (شامبيري) أوبرا ومأساة —أوبرا تراجيدى — بعنوان «إيفيس  
 وأنا كساريت » ، وكنت من حسن الإدراك بحيث رميت بها في  
 النار . . كما نظمت في (ليون ) أخرى بعنوان « اكتشاف  
 الدنيا الجديدة » ، لم البث بعد أن قرأتها على السيد «بوردي» :  
 والراهب دي « مابلى » ، والراهب « تروبلية » وغيرهم ، أن  
 انتهيت بها إلى عين المصير ، بالرغم من أنني كنت قد كتبت

موسيقى المطلع والفصل الأول ، وعندما اطلع « دافيد » على الموسيقى ، أنبأني بأنها كانت تحتوى على مقاطع تليق بيونوتشينى (١).

وفي هذه المرة ، اتحت لنفسي وقتا للتفكير في مشروعي ، قبل أن أمد يدي إلى العمل . ورسمت لفكرة مسرحية بطولية راقصة ( باليه ) ثلاثة موضوعات مختلفة ، في ثلاثة فصول مستقلة ، لكل منها لون من الموسيقى مفاير لما للآخرين . ونسجت كل منها حول غراميات أحد الشعراء ، ثم أسميتها « عرائس الشعر اللطاف » (٢) . وكان الفصل الأول يدور حول « تاس » (٣) ، وقد صيغت موسيقاه في أسلوب قوي . أما الفصل الثاني ، فكان عن « أوفيد » ، وكانت موسيقاه رقيقة ، في حين أطلقت على الفصل الثالث اسم « أنا كريون » ، وقد روعى فيه أن يفوح بأنفاس الاطراء والمديح . . . وجريت براعتي — في البداية — في الفصل الأول ، فعكفت عليه بحماس

(١) اشتهر بهذا الاسم ثلاثة من الموسيقيين الإيطاليين ، كانوا أباً وابنيه ، وقد ألقم أسمر الابنين ربحاً في إنجلترا ، وكان أكثر الثلاثة شهرة .

#### (٢) Les Muses Galantes

(٣) تاس : هو الشاعر الإيطالي توركانو تاسو ، ويعتبر من أعظم أصحاب ملاحم البطولة . وقد عاش في القرن السادس عشر . ولهذا اختار « روسو » طابع القوة للفصل الذي نسجه حوله . أما « أوفيد » ، فكان شاعراً لاتينياً ، اشتهر اسمه بالحب والهوى ، ورغم ما تأساه في حياته من شجون ومناعب ، حتى أنه مات منكياً . أما « أنا كريون » ، فكان شاعراً غنائياً تفوح أغانيه بتمجيد اللهو والطعام واللذة .

مكنتى - للمرة الاولى - من أن اتذوق لذائذ توقد القريحة في  
الطحين ١ . . وفي ذات مساء كنت أهم بدخول دار « الأوبرا » ،  
وإذا بى أجدنى نهبا للأفكار ، وإذا بها تطفئ على ، فرددت  
نقودى إلى جيبى ، وأسهرت إلى غرفتى وأغلقتها على نفسى ،  
وارتميت على السرير ، بعد أن أحكمت ستائر النافذة لأجول  
دون تسرب ضوء النهار . . وهناك ، أسلمت نفسى تماما  
للإلهامات الشعرية والموسيقية ، فوضعت بسرعة ، وفي سبع  
ساعات أو ثمان ، أروع قسم من الفصل ١ . . وبوسعى أن  
أقول إن حبنى للأميرة دى « ميرارى » - إذ أننى كنت « تاس »  
إذ ذاك - ومشاعرى النبيلة المترفعة إزاء أخيها الظالم ، أتاحت  
لى - الليلة واحدة - من المتع ما كان يفوق مائة مرة ، كل  
ما كنت خليقا بأن أجده بين ذراعى الأميرة نفسها (١) . . ولم  
يبق فى رأسى - فى الصباح - سوى قسط بسيط مما نظمته  
ولحنته ، ولكن هذا الجزء - الذى شوهه الاجهاد والنعاس  
تقريبا - لم يخفق فى أن يكشف عن قوة المقطوعات التى تبقت  
كالأطلال !

وفي هذه المرة ، لم أمض بعيدا فى هذا المشروع كثيرا ، نظرا  
لاتصرافى إلى الشؤون الأخرى . ولم تكن السيدة دى بوزينفال ،  
والسيدة دى بروجلى - اللتين ظللت أزورهما من وقت لآخر  
- قد نسيتهما تماما فى غمرة تعلقى بأسرة دويان . فقد حدث  
أن عين السيد الكونت دى مونتيجى - الذى كان ضابطا فى

(١) كانت الأميرة أجهل نساء عصرها ، وقد تصور « روسو » أنه « تاس »

الذى تدله فى هواها ، وثام على مظالم أخيها !

الحرمس — مسفيرا في ( غيبينا ) . وكان مدينا بسفارته إلى « بارجاك » (١) الذي كان قد ثابر على مصاحبته . كما أن أخاه — الشيفالييه دي مونتيجي — كان « فارس الكم » للسيد ولي العهد (٢) . وقد كان على معرفة بهاتين السيدتين (٣) ، وبالأراهب « الارى » — عضو المحفل الفرنسي — الذي كنت أزوره ، في بعض الأحيان ، كذلك . وإذا علمت السيدة دي بروجلي بأن السفير كان يبحث عن سكرتير ، رشحتني لديه . وشرعنا نبحث الأمر ، فطلبت خمسين « لوى » كمرتب ، وهو مبلغ كان قليلا بالنسبة لمنصب يتطلب الخرص على المظهر . ولكنه لم يشأ أن يدفع سوى مائة « بيستول » (٤) كما كان على أن أتكمل بنفقات سفرى ، وكان هذا اقتراحا يدعو للضحك ، ومن ثم علم يقدر لنا أن نتفق ، وفاز السيد دي فرانكويى — الذى بذل قصارى وسعه ليحول بينى وبين الرحيل — بمأربه ، فمكنت بينما رحل السيد دي « مونتيجي » مصطحبا معه سكرتيرا آخر يدعى السيد « فولو » ، كانت وزارة الخارجية هى التى رشحته له . ولكنها لم يكادا يبلغان ( غيبينا ) ، حتى

(١) كان بارجاك هو الخدم الخاص للكردينال دي فلورى ، الذى كان واسع النفوذ لدى الملك .

(٢) فرسان الكم : طائفة من النبلاء كانوا يجمعون بين التدوين والبطولة ، وكانوا يتولون رعاية الامراء الفرنسيين حتى يتعلمهم .

(٣) السيدة دي بوزينفيل وابنتها .

(٤) كان « اللوى » اذ ذاك ٢٤ فرنكا ، و « البيستول » ١٠ فقط .

اختلفنا واشتجرا . وإذا رأى « فولو » أنه سيضطر إلى العمل مع رجل مجنون ، هجره هناك ، ولم يعد لدى السيد دى مونتيجى سوى راهب شاب يدمى دى « بينى » ، كان كاتباً تحت إرشاد السكرتير ، ولم يكن فى مركز يؤهله لأن يملأ المنصب . ومن ثم اضطر السفر إلى أن يلجأ إلى مرة أخرى . وقد أنهى أخوه « الشيفالييه » — الذى كان موهوب الذكاء — أن ثمة امتيازات معينة تتصل بمنصب السكرتير ، وبهذا أفلع فى أن يغربنى بقبول الألف فرنك (١) . . كما تسلمت عشرين « لوى » لنفقات رحلتى . . فبادرت إلى السفر !

### من سنة ١٧٤٣ إلى سنة ١٧٤٤

وعند ( ليون ) ، تمنيت أن اتخذ طريق ( مون سيني ) ، لأزور « ماما » المسكينة ، زيارة ماهرة . بيد أنني انحدرت مع نهر ( الرون ) ، ثم انتقلت بالبحر إلى ( طولون ) . وكان ذلك بسبب الحرب ، وىدامى الاقتصار ، وللحصول — كذلك — على جواز للسفر من السيد دى « ميربوا » ، الذى كان يشرف على الإقليم إذ ذاك ، والذى كنت موقدا إليه بتوصية . وإذا لم يكن بوسع السيد دى مونتيجى أن يستغنى عني ، فقد راح يكتب لى الرسائل تلو الرسائل ، متعجلاً سفرى . ولكن حادثاً عاقبني . .

كان الطامون يتفشى إذ ذاك فى ( مسينا ) . وكان الأسطول البريطانى يرسو هناك ، فزار المركب التى كنت عليها ، وقد

(١) يبدو أنه يقصد قيمة المرتب السنوى .

عرضنا ذلك عند وصولنا إلى ( جنوا ) — بعد رحلة طويلة شاقة — إلى أن نحتجرت تحت المراقبة الصحية ثمانية وعشرين يوما . وترك لنا الخيسار بين البقاء على سطح المركب ، أو في المعزل الصحي ، الذي أنذرنا بأننا لن نجد فيه شيئا ، اللهم إلا الجدران الأربعة ، إذ لم يكن الوقت قد اتسع لتأثيثه . واختار الجميع البقاء في السفينة ، ولكن الحر المرهق ، وضيق المكان ، وتعذر التريض على القدمين ، والحشرات ، جعلتني أفضل المعزل . فاقترحت إلى مبنى كبير ذي طابقين . وكان عاريا تماما ، فلم أمثر فيه على نافذة ، ولا منضدة ، ولا سرير ، ولا مقعد . . بل ولا كرسي منخفض بلا مسند لأجلس عليه ، ولا حزمة من القش أرتد عليها . . وأحضروا إلى معطلي ، والحقيبة الصغيرة التي تضم ثياب النوم ، وحقيقتي الكبيرتين ، ثم أفلقت دوني أبواب ضخمة ، ذات أقفال هائلة . . وبقيت هناك ، حرا في أن أتجول وفق هوائى ، من حجرة إلى أخرى ، ومن طابق إلى آخر ، دون أن التقى في كل مكان بغير العزلة والتجرد من الأثاث !

ولم يحملنى كل هذا على أن أندم لاختياري المعزل دون المركب ، بل رحمت أكبر أمورى — كما لو كنت « روبنصن » (١) — جديدا — للأيام الثمانية والعشرين ، وكأنتى كنت مقبلا على الإقامة طيلة العمر ، وكنت أنسلى — في البداية — باصطياد القمل الذى التقطته على المركب . فلما أصبحت نظيفاً في

(١) يعنى « روبنصن كمولر »

النهاية ، بفضل تغيير الثياب الداخلية والخارجية ، تحولت إلى تائيث الحجرة التي اخترتها ، فصنعت حشية بديعة من ستراتي واقمصتي ، وملاءات من عدة مناشف خطبت بعضها إلى بعض ، وغطاء من إزارى المنزلى ( الروب دى شامبر ) ، ووسادة من معطفى الذى لفته ، واتخذت مقعدا من إحدى حقيبتي بعد أن وضعتها على أحد جانبيها العريضين ، ومنشدة من الحقيبة الأخرى بعد أن أقمتها على أحد جانبيها الضيقين ، وأخرجت ورقا ومحبرة ، ونسقت حوالى اثني عشر كتابا كنت أمتلكها ، لتكون مكتبة . وقصارى القول اننى هيات مقامى تهييئا طيبا حتى اننى كنت فى ذلك المعزل العارى انعم باقامة تعدل اقلمتى فى مسكنى بساحة التنس فى شارع ( ديلا غيرديليه ) ، فيما عدا الستائر والنوافذ . . . وكانت وجباتى تقدم فى كثير من مظاهر الأبهة ، إذ كان يرافقها جنديان شهرا حربتيهما فى طرفى بندقيتيهما . وكان دهليز السلم بمثابة قاعة مائدتى ، كما كانت عرصة السلم بمثابة مائدة ، فاذا ما أعد الغداء ، دق الخين احضروه ناقوسا — اثناء انسحابهم — لتنبيهى إلى أنه قد آن لى أن اجلس إلى المائدة .

وعندما كنت انصرف عن القراءة أو الكتابة ، أو استكمال تائيث حجرتى — بين الوجبات — كنت أتمشى فى مقبرة البروتستانت ، التى كانت بمثابة ساحة لمسكنى ، أو أصعد إلى برج يطل على الميناء ، حيث يتسنى لى رؤية السلسل فى دخولها وخروجها . وقضيت على هذا النسق أربعة عشر يوما ، وكنت قميئا بأن اقضى الأيام العشرين بأسرها دون أن اضجر



وانفلت مقمدا من احدى حقيبتى بعد أن وضعتها على احد جانبيها  
العريضين ومنسلة من الحقيبة الأخرى .

لحظة ، لولا السيد دى « جونففى » — المبعوث الفرنسى — الذى كنت قد تمكنت من أن أرسل إليه خطابا معبقا بالخل ، ومعطرا ، وشبه محترق . . فقد أنقص مدة احتجازى ثمانية أيام ، قضيتها فى داره ، حيث اعترف بانئى وجدت من راحة المقام ما لم أجده فى معزلى . . وقد أبدى لى عطفًا قويا ، كما أن سكرتيره « ديبون » كان شابا طيبا ، اصسطحنى إلى بيوت عديدة — سواء فى جنوب أو فى الريف — حيث كانت التسمية موفورة . وقد وثقت معه روابط المعرفة والقراسل ، التى ظللنا نرعاها ردحا طويلا من الزمن . وما لبثت أن استأنفت رحيلى — راضيا مرتاحا — مخترقا سهل ( لباردى ) ، و ( ميلان ) ، و ( فيرونا ) ، و ( بريسيا ) ، و ( بادوا ) ، ثم وصلت فى النهاية إلى ( البندقية ) ، حيث كان السفير فى انتظارى ، وهو نائد الصبر !



ووجدت أكدا سا من الرسائل — سواء من البلاط الملكى أو من السفراء الآخرين — لم يكن فى وسع السفير أن يقرأ ما كتب منها بالشفرة ، برغم أنه كان يملك كافة مفاتيح الشفرة اللازمة لذلك . ولما لم أكن قد عملت قط فى منصب من هذا النوع ، ولا رايت فى حياتى شفرة حكومية ، فقد خشيت — فى البداية — أن أرتبك ، ولكننى تبينت أنه لم يكن ثمة ما هو أسهل من ذلك . . وفى أقل من أسبوع ، كنت قد حللت رموز الرسائل جميعا ، إذ أنها لم تكن — فى الواقع — تستحق عنام . فمقد كانت السفارة القائمة فى البندقية قليلة العمل دائما ، فبضلا من أن مثل هذا الرجل — السيد دى مونتيجى — لم يكن ممن يهمل

إليهم بأية مفاوضات . ولقد كان في حيرة بالغة إلى أن وصلت ،  
فما كان ليصرف كيف يملئ رسائله ، ولا كيف يكتب بخط  
مقروء . ومن ثم فأتى كنت عظيم النفع له ، وقد شعر بذلك ،  
فأحسن معاملتي . وكان ثمة باعث آخر حمله على ذلك ، فلقد  
تولّى أعمال السفارة — بعد رحيل سلفه السيد دي غرولاي ،  
الذى اختبل عقله — القنصل الفرنسي ، الذى كان يدعم السيد  
لوبلون ، ثم واصل إدارتها منذ وصول السيد دي مونتيجي  
رئيسا يدرجه على نظام العمل . ولقد جنح السيد دي مونتيجي  
— في غيرته من أن سواه كان يؤدي عمله ، برغم أنه كان عاجزا  
عن أدائه بنفسه — إلى كراهية القنصل ، فما أن قدسرت لي أن  
أصل ، حتى جرّده من مهام سكرتير السفارة ، ليكلها إلى .  
ولما كانت هذه المهام غير منفصلة عن لقب « سكرتير السفارة » ،  
فقد دعائى إلى أن أحمل هذا اللقب . وما أوفد — طيلة بقائى  
معه — أحدا سواى بهذه الصفة إلى مجلس الشيوخ أو إلى  
مندوبيه (١) . والواقع أنه كان من الطبيعى أن يفضل أن يكون  
في منصب سكرتير السفارة رجل تابع له ، عن أن يكل هذا  
المنصب إلى القنصل أو موظف كتابى معين بمعرفة البلاط .

ولقد أدى هذا إلى أن أصبح مركزى جد ملأئم ، ومنع أفراد

---

(١) كان من عادة مجلس شيوخ جمهورية البندقية — في ذلك الحين — أن  
يبحث مع سكراتر الدول الأجنبية ، عن طريق مندوبين يولدهم إليهم ،  
وتجسسون يولدهم السراء اليه . وقد كان مجلس الشيوخ — في بعض نظم  
الحكم — ذا سلطة تنفيذية . وهكذا كان في البندقية .

بطانته ، الذين كانوا من الإيطاليين — كما كان أتباعه ومعظم خدمه — من أن ينازعوني الأولوية في داره ، وقد استغللت بنجاح ما كان لهذا المركز من سلطان ، في صون حقوقه الدبلوماسية ، وأعنى بذلك حصانة مقره ضد المحاولات التي بذلت مرارا عديدة لانتهاكها ، والتي كان موظفوه — من أبناء البندقية — لا يحفلون بمقاومتها . ومن ثم فأننى لم أسمح قط للخارجين على القانون بالجوء إلى هذا المقر ، بالرغم من أننى كنت خليقا بأن أجنى من وراء ذلك نفعا كبيرا ، ما كان صاحب السعادة ليتورع عن مقاسمتى إياه ! .. بل إنه جرؤ على أن يستبيح لنفسه حقوق السكرتيرية التي يطلق عليها اسم « أعمال الديوان » . ومع أن الحرب كانت قائمة ، إلا أن هذا لم يعف من إصدار عدد لا بأس به من جوازات السفر ، وكان يدفع عن كل جواز منها ، « سيكان » (١) للسكرتير الذى ينجزه ويصدق عليه . وقد اعتاد كل من سبقونى أن يتقاضوا هذا السيكان من الفرنسيين ومن الأجانب على السواء . بيد أننى وجدت هذا الإجراء غير عادل ، ومع أننى لم أكن فرنسيا ، فأننى الفيتته بالنسبة للفرنسيين ، وإن رحت أتقاضى حتى — فى غير ما تساهل — من كل من عداهم . فلما أرسل لى المركيز سكوتى — شقيق الشخص الذى كانت له الحظوة لدى ملكة إسبانيا — يطلب يوما جوازا ، دون أن يرسل لى السيكان ، فطالبته به ، وهو اجتراء لم ينسه قط ذلك الإيطالى المفطور على الانتقام . ومنذ أن أصبح هذا الإصلاح الذى أدخلته على رسوم

(١) السيكان عملة تتراوح قيمتها بين ٩ و ١٢ فرنكا .

الجوازات معروفا ، لم يعد يتقدم للحصول على جوازات سوى جحافل من منتحلي الجنسية الفرنسية ، الذين كانوا يزعمون — في رطانة محتملة — أن هذا من اقليم ( بروفانس ) ، والآخر من ( بيكار ) ، والثالث من ( بيرجندي ) . ولما كنت قد أوتيت سمعا مرهنا ، فانتفى لم أكن أخدع قط ، وما أظن أن إيطاليا واحدا استطاع أن يسلبني « سيكاني » ، أو أن غرنسيا واحدا دفعه لي . وكنت من الغباء بحيث أنبأت السيد دي مونتيجي — الذي لم يكن يعلم شيئا عن أي شيء ! — بما فعلت . غاذا كلمة « سيكان » تجعله يفتح أذنيه ، ويدون أن يبدى لي رابا بصدد إلغاء الرسم للفرنسيين ، طلب أن أسوى معه الحساب بشسان الآخرين ، واعداء إياي بمنافع في مقابل ذلك ! . . . ورفضت اقتراحه عن احتقار لضعته أكثر منى عن تأثر من أجل مصلحتي ، والحق على ، غاذا بغضبي يحتسب ، وقلت في تحبس شديد : « لا ياسيدي . . . أن لسعادتك أن تحتفظ بما هو حق لك ، ودع لي ما هو حقى ، فلن أنزل عن « سسو » واحد منه ! » . وإذا رأى أنه لم يكسب شيئا بهذه الوسيلة ، عمد إلى وسيلة أخرى ، ولم يخجل من أن يقول إننى ما دمت أحصل على مكاسب من أعمال ديوانه ، فمن العدل أن اتحمل نفقات هذا الديوان . ولم أتما أن أجادل في هذا الأمر ، ومن ذلك الحين أخذت ابتاع من مالى المداد ، والورق ، وشمع الأختام ، وشمع الإضاءة ، والأشرطة ، وما إلى ذلك . . . حتى خاتم الدولة الذى أصلحته ، دون أن يدفع من نفقات إصلاحه شيئا ! . . . ولم يحل هذا دون أن أمين جزءا صغيرا من أيراد

عملية الجوازات للراهب دى بينى ، الذى كان شاكيا طيبا .  
والذى كان أبعد من أن يطلب لنفسه شيئا من هذا القبيل . وإذا  
كان قد تطفن نحوى ، فاننى لم أكن أقل كرما نحوه ، ومن ثم  
فقد عشنا معا فى وئام على الدوام .



ولقد وجدت عملى — إذ مارسته — أقل إرهاقا مما توقعت  
بالنسبة لرجل عديم الخبرة ، قدر له أن يعمل مع سفير لم يكن  
يفوقه فى شيء ، بل إنه كان بجهله وعناده يعرقل — وكأنما كان  
يسر بهذه العرقلة — كل ما كان يلهنيه الإدراك السليم وبعض  
أضواء المعرفة لا تقن خدمته وخدمة الملك . . . وكان أكثر أعماله  
انطواء على ادراكى ، هو ارتباطه بالمركز دى « مارى » ، سفير  
اسبانيا ، الذى كان بارعا ، أرييا ، وكان بوسعه أن يقوده من  
أنفه إلى حيث شاء ، لولا أنه — نظرا لارتباط مصالح التاجين —  
كان يحضه عادة خير النصيح ، فكان الآخر يضيع نفع هذا  
النصح ، إذ كان دائما يدس عليه بعض آرائه الخاصة عند  
التنفيذ . . . وكان الشيء الوحيد الذى اشتركا فى عمله ، هو  
اغراء البندقيين بالتزام الحياد . وكان هؤلاء لا يكونون عن ادعاء  
الامانة فى صون الحياد ، مع أنهم كانوا يمدون الجنود النمساويين  
— علانية — بالذخائر ، بل وبالجندبين الذين كانوا يزعمون أنهم  
هاريون من قواتهم . . . أما السيد دى مونتيجى — الذى اعتقد  
أنه كان ينبغي إرضاء الجمهورية (١) — فلم يكن يتوانى ، بالرغم

---

(١) حكومة جمهورية البندقية .

من بياناتى عن أن يحملنى على أن أؤكد فى كل رسائله أنها لم تكن تنتهك الحياد إطلاقا . وكان عناد هذا الرجل المسكين وغباؤه يضطرائنى إلى أن أكتب وأرتكب — فى كل لحظة — سخافات كنت مجبرا على أن أكون الوسيط فيها ، ما دامت هذه رغبته ، ولكنها كانت — فى بعض الأحيان — تجعل أداء واجباتى أمرا لا يطاق . . بل أمرا غير ميسور عمليا . . . مثال ذلك : أنه كان يصر اصرارا مطلقا على أن يكون الشطر الأكبر من رسائله إلى الملك ورسائله إلى الوزير مكتوبا بالشفرة ، برغم أن أيا من هذه أو من تلك لم يكن يشتمل على شيء ما يجعل مثل هذه الحيلة لازمة . . . ولقد أوضحت له أنه لم يكن ثمة وقت كاف بين يوم الجمعة — الذى كانت رسائل البلاط تصل فيه — ويوم السبت — الذى كانت رسائلنا تصدر فيه — لكتابة هذه بالشفرة ، ولكتابة الكمية الكبيرة من الرسائل التى كان على أن أعدها ليحملها البريد فى اليوم ذاته . فابتكر لذلك خطة بديعة ، تلك هى أن أعد — فى يوم الخميس — ردود الرسائل التى يكون مقدرا لها أن تصل فى اليوم التالى . . . ولقد تراءت له هذه الفكرة موفقة — بالرغم مما وسعنى أن أقوله عن استحالة ، بل وسخف ، تنفيذها — حتى إنه حتم اتباعها ، فلم أكن أخفق قط ، طيلة المدة التى مكثتها معه بعد ذلك — فى أن أحمل إليه فى صباح يوم الخميس ، مسودة مصوغة من الكلمات القلائل التى كان يلقيها فى مناسبات عابرة خلال الأسبوع ، والتى كنت أسجلها فى مفكرتى ، ومن بعض البيانات والأخبار البسيطة التى كنت التقطها من هنا ومن هناك ، لاتزود بها فى هذه المهمة العجيبة ! . . أقول إننى لم أخفق قط

في أن أقدم إليه في صباح يوم الخميس مسودة للرسائل التي ينبغي تصديرها في يوم السبت ، فيما عدا بعض إضافات أو تعديلات كنت أؤديها في عجلة ، على ضوء الرسائل التي تصل في يوم الجمعة ، والتي كانت رسائلنا تعتبر ردا لها !

وكانت له نزوة أخرى ، غاية في الطرافة ، أضفت على مراسلاته صبغة مضحكة لا سبيل إلى وصفها : تلك هي إرسال كل نبا إلى مصدره ، بدلا من تركه يأخذ مجراه العادي . . فكان يرسل الأنبياء الواردة عن البلاط إلى السيد أميلو (١) ، وتلك الواردة عن باريس إلى السيد دي موريا ، وتلك المتعلقة بالسويد إلى السيد دافرينكور ، وتلك الخاصة ببيطرسبورج إلى السيد ديلاشيتردي . . بل أنه كان يرسل إلى كل منهم أحيانا الأنبياء الواردة منه هو بالذات ، والتي كنت أجري تعديلات لطيفة عليها . . ولما كان قد اعتاد أن يلقي نظرة على الرسائل الموجهة إلى البلاط وحدها — دون بقية ما كنت أحمله إليه ليوقعه — فانه كان يوقع الرسائل الموجهة إلى السفراء الآخرين دون أن يقرأها ، مما جعلني أكثر مقدرة على أن أصوغ هذه الأخيرة وفقا لمزاجي ، أو — على الأقل — على أن أبدل من الأنبياء ، فلا أوجه لكل منهم عين الأنبياء التي سبق أن أرسلها . . بيد أنه كان من المستحيل على أن أصوغ الرسائل الهامة في أسلوب معقول ، بل أنني كنت أعتبر نفسي سعيدا ، إذا لم يخطر بباله أن يدخل عليها بضعة أسطر متعجلة من وحي

(١) كان السيد أميلو وزيرا للخارجية ، وكان البلاط هو مقر منصبه .

افكاره . فقد كان هذا يضطرنى إلى العودة إلى نسخ الرسالة التى زانها بهذه السخافة الجديدة . . السخافة التى كان لابد من تكريمها بنسخها — بسرعة — بالسفرة ، إذ انه لم يكن يوقع الرسالة بدونها ! . . ولقد راودنى الاغراء عشرين مرة — براعاة لسمعته — بأن أنقل بالسفرة شيئا غير الذى قاله ، ولكنى كنت أدرك أن ليس ثمة ما يبيح لى إطلاقا مثل هذا الانحراف عن الأمانة ، فكنت أدعه يهذى على مسئوليته ، قائما بأن أصرحه برأى ، وبأن أؤدى الواجب المفروض على نحوه !

\*\*\*

وهذا ما حرصت على أن أفعله دائما بأمانة وجدد وحمية كانت تستحق جزاء غير ذاك الذى تلقيته فى النهاية . . كان قد حان لى أكون — ولو لمرة واحدة — كما هيأتنى السماء التى أنعمت على بفطرة طيبة ، وكما أهلتنى القربة التى تلقيتها على أيدى أفضل النساء وتلك التى أتحتها لنفسى . . وهذا ما حدث فعلا ! . فقد كنت وحيدا ، محبلا أصدقاء ولا ناصحين ، وبلا تجربة ، فى بلد أجنبى ، وفى خدمة أمة أجنبية ، وفى وسط ثلة من الأندال الذين كانوا يستحثوننى على أن أحذو حذوهم فى سبيل مصلحتهم ، ومن أجل التخلص من عار وجود مثل صالح بينهم . . على أننى بدلا من أن أفعل أى شئ من هذا القبيل ، أخلصت الخدمة لفرنسا — التى لم أكن مدينا إليها بأى واجب — وكنت أكثر إخلاصا فى خدمة السفير فى كل ما كان موكولا إلى ، كما ينبغى أن يقال بحق ! . . وإذ لم يكن ثمة ما يؤخذ على فى منصب كهذا ، جد مكشوف للأنظار المتطلعة ، فقد استحققت

وظفرت بتقدير حكومة الجمهورية (١) ، وتقدير السفراء الذين كنا نتبادل معهم الرسائل ، وحب كل الفرنسيين المقيمين في البندقية . ولم يشذ عن ذلك القنصل الذي خلفته - للأسف - في المهام التي كنت أدرك أنها من حقه ، والتي جلبت على من المتاعب أكثر مما جلبت من السرور !

وإذ انصاع السيد دي مونتيجي دون تحفظ للمركيز دي « ماري » - الذي لم يكن ليهتم بتفصيلات واجبات السفير الفرنسي - أهمل هذه الواجبات إلى درجة أنه لم يكن من المحتمل أن يدرك الفرنسيون - الذين كانوا في البندقية - أن لفرنسا سفيرا مقيما في المدينة ، لولاي أنا ! . ولما كانوا دائما يطردون دون ما استماع إلى شكواهم - كلما نشدوا حمايته - فأنهم أصبحوا يزدرونه ، ولم ير واحد منهم قط في معيته أو على مائدته ، التي لم يكن - في الواقع - يدعوهم إليها إطلاقا . وكنت كثيرا ما آخذ على عاتقي أداء ما كان ينبغي على رئيسي أن يؤديه ، وأؤدي للفرنسيين - الذين كانوا يلجئون إليه أو إلى أنا - كل ما كان في طوقى من خدمات . ولقد كنت خليقا بأن أفعل فوق ما كنت أفعل ، لو أنني كنت في أي بلد آخر . . . ولكنني لم أكن أملك - بحكم منصبى - أن أقابل أي شخص من نوع النفوذ ، فكنت كثيرا ما أضطر إلى أن أجا إلى القنصل . . . وكان لدى القنصل من دواعي الحذر - نظرا لاستقراره - أسرته في البلد - ما كان يمنع من أن يفعل كل ما كان يهوى

---

(١) حكومة جمهورية البندقية .

.. على اننى كنت أجسر أحيانا — عندما أراه صامتا لا يجرؤ على الكلام — على الاقدام على تصرفات خطيرة ، قدس لى التوفيق فى كثير منها . وإننى لأذكر مغامرة منها ، لا تزال ذكرها تحملنى على الضحك وما أظنه يخطر ببال أحد ، أن رواد المسرح بباريس مدينون لى بكورالين وأختها كايى ، وإن لم يكن ثمة ما هو أصدق من هذا . فلقد تعاقد «فيرونيز» — أبوهما — على الانضمام وابنتيه إلى الفرقة الإيطالية . وبعد أن تسلم الفى فرنك لنفقات الرحلة ، لم يسافر وإنما انضم ببساطة إلى مسرح « سان لوك » (١) بالبندقية ، حيث اجتذبت كورالين — برغم انها كانت لا تزال طفلة — كثيرا من الناس . فكتب السيد الدوق دى جيفر — الأمين الأول للديوان الملكى — إلى السفير مطالبا بالآب وابنتيه ، وأسلمنى السيد دى مونتيجى الخطاب ، وكانت كل التعليمات التى زودنى بها ، هى : « انظر هذا الأمر ! » . فذهبت إلى السيد لوبلون ، ورجوته أن يخاطب السيد الذى كان يمتلك مسرح « سان لوك » ، والذى كان من أعضاء مجلس الشيوخ — ويدعى ، على ما أظن ، « جستنيانى » — فيقنعه بأن يسرح فيرونيز ، الذى كان متعاقدا لخدمة الملك . ولم يكن لوبلون متحمسا للمهمة ، فأساء أداءها ، وتعلل « جستنيانى » بمختلف الحجج ، فلم يسرح فيرونيز . واغتظت .. وكنا فى « الكرنفال » ، فاستقلت زورقا وقد تقنعت ، وذهبت إلى قصر « جستنيانى » . وبهت كل من رآنى فى جندولى

(١) أضاف روسو إلى هذا توله : « لست وانقا من أنه لم يكن مسرح « سان موبيل » ، لأن الأسماء الصحيحة تغيب عن ذاكرتى تماما » .

وأنا في ثيابي الرسمية ، إذ أن البندقية لم تر شبيبها لهذا العمل من قبل . ودخلت القصر ، وأوحيت بأن يعلن السيد بمقدمي على أنني « السيدة ذات القناع » ، وما أن دخلت عليه ، حتى أزعجت قناعي ، وأعلنت اسمي ، فامتقع وجهه عضو الشيوخ ، وجهه مشدوها . وإذا ذاك قلت له في لهجة أبناء البندقية : « سيدي ، يؤسفني أن أزعج سعادتك بزيارتي ، ولكن في مسرح « سان لوك » - التابع لك - رجلا يدعى فيرونيز ، تعاقد على خدمة الملك ، وقد طولبت به دون جدوى . لذلك جئت أطلب به باسم صاحب الجلالة ! » . وأحدث هذا القول - على إيجازه - أثرا . فلم أكد أنصرف ، حتى هرع صاحبنا إلى محققى الدولة القضائيين ، الذين أوضحوا له الموقف ، ففصل فيرونيز في اليوم ذاته . وكان أن أوفدت إلى هذا من أنذروه بأنه إذا لم يرحل في خلال أسبوع ، فسوف أعمل على إلقاء القبض عليه . . ومن ثم رحل !



وفي مناسبة أخرى ، انقذت ربان سفينة تجارية من مأزق ، بجهودى وحدها ، ودون معونة أى شخص تقريبا . وكان الرمان من أبناء (مارسيليا) ، ويدعى « أوليفيه » ، وقد تسميت اسم السفينة ، فقد اشتجر ملاحوه مع « الاسكلافونيين » (١) الذين كانوا في خدمة الجمهورية . وكان من جراء الشغب الذى ارتكب ، أن احتجزت السفينة

---

(١) أبناء بلاد الكوريت .

وغرضت عليها تحفظات بلغ من قسوتها أن أحدا — سوى الربان — لم يكن يملك أن يصعد إليها أو أن يغادرها دون إذن . ولجأ الربان إلى السفير ، الذي صرفه في جفاء ، فلبساً إلى القنصل ، ولكنه قال له إن مسألته لم تكن مسألة تجارية ، وأنه لا يملك التدخل . وإذا لم يدر الرجل ما يفعله بعد ذلك ، جاعني فأوضحت للسيد دي مونتيجي أن عليه أن يسمح لي بأن أرفع مذكرة إلى مجلس الشيوخ . ولست أذكر ما إذا كان قد أذن لي ، ولا ما إذا كنت قد قدمت المذكرة ، وإنما أذكر تماماً أن المساعي التي بذلتها لم تنته إلى شيء ، وظل التحفظ قائماً ، فلجأت إلى عمل حازم قدر له النجاح ، إذ أوردت بياناً عن هذه المسألة في رسالة إلى السيد دي « موريا » ، وإن لقيت عناء كبيراً في إقناع السيد دي مونتيجي بأن يجيز هذا البيان . وكنت أعرف أن رسائلنا كانت تفتح في البندقية — برغم أنها لم تكن تستحق هذا المعناء — إذ كنت أملك الدليل على ذلك ، فمثلاً في الفقرات التي اعتدت أن أجدها منقولة بالنص في الصحيفة الرسمية . . . وهو لون من عدم الأمانة حاولت عبثاً أن أحمل السفير على أن يحتج عليه . وكانت غاييتي من الحديث عن هذا الحادث المسكدر في الرسالة ، هي أن أستغل فضول سلطات البندقية ، لكي أرهبهم وأحملهم على أن يطلقوا سراح السفينة . . . فإن الربان كان مسوقاً إلى الافلاس قبل أن يصدر رد البلاط عن هذه المسألة ، لو أنه اضطر لانتظار هذا الرد . . . بل انني أقدمت على إجراء آخر ، إذ زرت السفينة لاستجوب الملاحين ، واصطحبت الراهب « باتييزيل » — كاتم أسرار القنصل — الذي لم يأت إلا كارها .

مقد كان هؤلاء المساكين جميعا يخشون أن يفضـبوا مجلس الشيوخ . ولما لم يكن بوسعنا أن نصعد إلى سطح السفينة ، بسبب الحظر المفروض ، فقد بقيت في جنسـدولى ، وقمت بالتحقيق من هناك ، موجها استلـتى بصوت مرتفع . وإلى كل الملاحين تباعا ، وقد صفت هذه الأسئلة بحيث تستدعى إجابات في صالحهم . ولقد حاولت أن أحمل باتيزيل على أن يسألهم وأن يعد التقرير بنفسه ، وهو أمر كان من مهامه — في الواقع — أكثر مما كان من مهامى ، ولكنه لم يشأ أن يوافق على ذلك إطلاقا ، ولم ينبس بكلمة واحدة ، بل أنه كاد بأى أن يوقع التقرير بعد أن وقعته أنا . . على أن هذه الخطة — المنطوية على شيء من الجراءة — كانت موفقة للغاية ، فأخرج عن السفينة قبل أن يصل جواب الوزير بوقت طويل . وأراد الربان أن يقدم لى هدية ، فقلت له وأنا أدق كفـه ، دون أن أبدى استياء : « كابتن أوليفيه ، أظن أن رجلا لا يتقاضى الفرنسيين رسم الجوازات — وهو حق مقرر له — يرضى أن يتقاضاهم ثمن حماية الملك ؟ » . . ورغب الربان فى أن أتناول الغداء معه على سطح السفينة — على الأقل — فقبلت مصطحبا سكرتير السفارة الأسبانية ، المدعو « كاريو » — وكان رجلا فكيا بالغ اللطف ، غدا بعد ذلك سكرتيرا للسفارة الأسبانية فى باريس ، وقتئـما بالأعمال فيها . . وقد كنت مرتبطا معه بروابط من الود ، تماثل تلك التى كانت بين سفيرينا !

ولقد كنت خليقا بأن أفـدو سعيدا ، لو أئـنى عسرغت — إذ رحت أفـعل كل ما وسعنى من خير ، فى أتم تجرد من المصلحة

الذاتية — كيف أدخل قدرا كافيا من النظام والانتباه على كل هذه المسائل الدقيقة ، حتى لا أغدو مستغفلا ، فأخضع الغير على حساب مصالحى ! .. ولكن اتفه الأخطاء فى منصب — كذاك الذى كنت أشغله — لا تهر دون تبعات ، ومن ثم فقد كنت استنزف كل انتباهى فى الجهد لتفادى أية أخطاء مضادة لعملى .

\* \* \*

ولقد كنت — فى كل ما يتعلق بواجبى الرئيسى منظمًا إلى أقصى درجات النظام ، ودقيقًا إلى أقصى درجات الدقة . وفيما عدا بضعة أخطاء اضطررتى التعجل المفرط إلى ارتكابها فى صوغ الشفرة — وقد اشتكى منها معاونو السبب اميلو ذات مرة — لم يأخذ على السفير ، أو أى امرئ سواه ، اهمالا فى أداء أى واجب من واجباتى ، وهو أمر كان جديرا بالملاحظة بالنسبة لرجل شديد الإهمال وشديد التهور مثلى .. بيد أننى كنت أغفل وأهمل فى تصرفى فى المسائل الخاصة التى كنت أخذها على عاتقى — أحيانا — فكان حب الانصاف يجعلنى اتحمل دائما اللوم من تلقاء نفسى ، قبل أن يفكر أى امرئ فى أن يشكو منه ! .. ولن أنكر — فى هذا المجال — سوى حادث واحد ، كان له أثر فى رحيلى عن البندقية ، وقدر لى أن أشعر بآثاره — بعد ذلك — فى باريس !

ذلك أن طاهينا — وكان يدعى « روسيلو » — أحضر من فرنسا سندا قديما بمائتى فرنك ، كان أحسد صناع الشعر المستعار — من أصدقائه — قد تسلمه من نبيل بنسدى يدعى « جانيتو نائى » ، فى مقابل قلنسوات من الشعر المستعار .

وأحضر لى « روسيلو » هذا السند ، ورجائى أن أحاول عمل أى شىء بصدد ، بالإجراءات السليمة . وكنت أعرف — كما كان يعرف هو الآخر — أن العادة التى كانت متبعة لدى نبلاء البندقية ، هى ألا يدفعوا قط أية ديون تحملوها فى الخارج ، ما داموا قد عادوا إلى وطنهم . فإذا بذل أى سعى لقسرهم على الدفع ، أرهقوا الدائن التعس بالارجاء الطويل المتكرر ، وبالنفقات ، حتى تثبط عزيمته ، ولا يلبث أن يعدل — فى النهاية — عن المطالبة ، أو يقبل أية تسوية ضئيلة ! . ورجوت السيد لوبلون أن يتحدث إلى « جانيتو » فاعترف هذا بالورقة ، ولكنه أبى أن يدفع قيمتها . وبعد كفاح طويل ، وعده بأن يدفع ثلاثة « سيكانات » . فلما حمل إليه لوبلون السند ، لم تكن السيكانات الثلاثة حاضرة ، فلم يكن ثمة بد من الانتظار . . وفى خلال هذه المهلة ، دب الخلاف بينى وبين السفير ، فخرجت من خدمته . وقد تركت أوراق السفارة فى أتم نظام ، ولكن سند « روسيلو » لم يوجد بينها قط . وأكد لى السيد لوبلون أنه كان قد رده إلى ، وكنت أعرف أنه من النبيل بحيث لا يرقى إليه الشك ، ولكنى عجزت عن تذكر ما جرى لهذا السند . ولما كان جانيتو قد أقر بالدين ، فقد رجوت السيد لوبلون أن يحاول الحصول منه على السيكانات الثلاثة فى مقابل إيصال ، أو أن يستدرجه إلى تجديد السند بنسخة أخرى منه ، ولكن « جانيتو » رفض الأمرين ، إذ علم بضياغ السند . . فعرضت على روسيلو السيكانات الثلاثة — من جيبى الخاص — كسداد للسند ، ولكنه أبى أن يأخذها ، وأخبرنى بأن أسوى الأمر مع الدائن الباريسى ، الذى أعطائى عنوانه . ولكن صانع الشعر

المستعار ، طالب بسنده أو بدينه كاملا ، إذ علم بما حدث .  
 فما الذى كنت أضن به — فى سورة غيظى — فى مقابل العنور  
 على هذا السند اللعين ! . . . ودفعت المائتى فرنك من مالى ،  
 فى وقت كنت فيه فى أشد الضيق المالى . وهكذا كان ضسباع  
 الوثيقة سببا فى حصول الدائن على دينه كاملا ، فى حين أنه لو  
 كان قد تسنى — لسوء حظه — العثور على السند ، لوجد عناء  
 فى انتزاع العشرة « ايكو » (١) الموعودة من صاحب السعادة  
 جانيتو نانى !

ولقد جعلتنى المقدرة — التى استشعرتها فى نفسى — على  
 أداء عملى ، مفعما بالميل إليه . . . وفيها عدا صحبتى لصديقى  
 « كاريو » ، وللفاضل « القونا » — الذى لن البث أن اتحدث  
 عنه — وفيها عدا بعض ألوان الترويح البريئة — التى تمثلت فى  
 التردد على ساحة سان مارك وعلى المسرح — وبعض زيارات  
 كنا نقوم بها سويا فى أغلب الأحيان . . . فيها عدا ذلك ، كانت  
 واجباتى هى الأسباب الوحيدة للتسلية والمتعة . ومع أن  
 عملى لم يكن شاقا أكثر مما ينبغى ، لا سيما أزاء العون الذى  
 كنت ألقاه من الراهب دى « بينى » ، إلا أن مراسلاتنا كانت  
 كثيرة جدا ، كما أننا فى فترة حرب ، ومن ثم فلم تكن تعوزنى  
 الشواغل ، بل كنت أقضى شطرا كبيرا من النهار فى العمل  
 — فى كافة الأيام — كما أننى كنت أعمل ، فى أيام البريد ، إلى  
 منتصف الليل أحيانا . وكنت أكرس بقية الوقت لدراسة المهنة  
 التى شرعت فى ممارستها ، والتى كنت — على ضوء البداية

(١) العشرة ايكو تعادل فى قيمتها السيكانات الثلاثة .

الناجحة — أعول كثيرا على أن أبلغ فيها منصبا طيبا فيما بعد . . . والواقع أنه لم تكن ثمة سوى فكرة واحدة عنى لدى الجميع ، ابتداء من السفير الذي كان راضيا عن خدماتي رضاء تاما ، فلم يشك منها قط . . . وما جساء كل الغضب — الذي ثار فيما بعد — إلا من أنتى حين ألقيت شكاياتي لا تلقى أذنا سامعة ، طلبت إعفائي من العمل . وكان كل سفراء الملك ووزرائه — الذين كنا على تراسل معهم — يهثونه على كفاءة سكرتيره ، وهو ما كان يجب أن يثير اعترازه ، ولكنه أحدث أثرا عكسيا في رأسه السيء التفكير . وكانت بين هذه التهنات ، واحدة بالذات ، تلقاها في ظرف حرج ، فلم يغتفرها لى قط . وهى جديرة بأن اتكبد مناء فرحها .

وذلك أنه كان قليل المقدرة على مقاومة ما يضابته ، حتى أنه فى يوم السبت ذاته — وهو يوم إرسال كل الرسائل تقريبا — لم يكن ليقوى على الصبر عن الخروج ريثما ينتهى العمل ، وإنما كان يستحثنى باستمرار متعجلا رسائل الملك والوزراء ، ليوقعها فى عجلة ، ثم يهرع إلى حيث لم أكن أدري ، تاركا معظم الرسائل الأخرى بدون توقيع ، مما كان يضطرنى — عندها لا تكون هناك سوى أخبار عادية — إلى أن أصوغها فى قالب نشرات الأخبار . . . أما حين تكون هناك مسائل متعلقة بخدمة الملك ، فقد كانت الضرورة تدعو إلى توقيع الرسائل ، فكنت أتولى توقيعها بنفسى . وقد فعلت ذلك بصدد رسالة هامة كنا قد تسلمناها من السيد « فائسان » ، القناتم بأعمال الملك فى ( نيينا ) . وكان ذلك فى الوقت الذى سار فيه الأمير لوكوفيتش ، زاحفا على ( نابولى ) ، والسذى قام فيه الكونت دى جساب

بتقهقره الذى لا ينسى ، والذى كان أروع عمل عسكري فى القرن كله ، وكان حديث أوربا . وكان النبا الذى بلغنا ، هو ان رجلا — أرسل إلينا السيد فانسان أوصافه — كان قد غادر ( فيينا ) ، معتزما المرور بالبندقية ، قاصدا — متخفيا — إلى ( ابروتسى ) ليعمل على إثارة الناس عند اقترب التمسويين . ونظرا لغياب السيد دى مونتيجى — الذى لم يكن ليهتم بشئ — فأننى أرسلت إلى السيد المركيز « ديلوبيتال » هذا النبا الذى كان فى وقته المناسب ، حتى ليحتمل ان يكون آل « بوريون » مدينين إلى جان جاك المغبون بفضل الابقاء على مملكة نابولى !

وإذ شكر المركيز ديلوبيتال زميله — كما كان ينبغي — امتدح له سكرتيره (١) والخدمات التى أداها للقضية المشتركة فإذا الكونت دى مونتيجى — الذى كان جديرا بأن يلوم نفسه على إهماله فى هذه المسألة — يخال أنه يلح لوما خلال هذه الدهشة ، فحدثنى عنها فى استياء . وكنت قد أقدمت على أن أفعل مع الكونت دى كاستيلان — السفير الفرنسى فى القسطنطينية — ما فعلته مع المركيز ديلوبيتال ، وإن كان النبا أقل أهمية . وإذ لم تكن ثمة وسيلة لإرسال البريد إلى القسطنطينية سوى الرسل الذين اعتاد مجلس الشيوخ أن يوفدهم من آن إلى آخر إلى « بايله » (٢) ، فقد كان السفير

(١) أى « جان جاك روسو » نفسه .

(٢) « البايلى » : لقب سفير البندقية فى القسطنطينية .

الفرنسي ينبأ بمواعيد رحيل هؤلاء الرسل ، ليتمكن من الكتابة إلى زميله إذا رأى داعيا لذلك . وكان هذا الاخطار يصدر قبل الرحيل بيوم أو اثنين ، ولكن السيد دى مونتيجي لم يكن يلقي اعتبارا كافيا ، ومن ثم فقد كانوا يكتفون باخطاره قبل رحيل البريد بساعة أو اثنتين ، لمجرد مراعاة الشكليات ! .. وكان هذا يضطرنى - فى كثير من المرات - إلى أن اعد الرسالة فى غياب السفير . وكان السيد دى كاستيلان يذكرنى - فى رده - بعبارة التكريم ، وكذلك كان السيد دى جونففى - فى جنوا - يفعل ، فكان كل تعبير عن حسن رأيهما فى شخصي ، سببا لخلافات جديدة ..



وأعترف بأننى لم أحاول أن أتصاشى فرصة التعريف بنفسى ولكننى لم أكن أسمى إلى ذلك فى غير المناسبات اللائقة . وكان يبدو لى أن الانصاف يبيع لى - إذ أحسن الخدمة - أن أطمع فى الجزاء الطبيعى للخدمات الطيبة ، الا وهو التقدير من أولئك الذين كانوا يملكون تقديرها ومنح الجزاء عنها . ولست أملك أن أقول ما إذا كانت دقتى فى أداء مهامى كانت - فى نظر السفير - سببا مشروعاً للشكوى والاحتجاج ، ولكن الذى أملك أن أقوله هو أن هذه الشكوى كانت هى الشكوى الوحيدة التى اعتاد أن يرددها إلى يوم فراقنا !

وكانت داره - التى لم يكن يحسن إدارتها إطلاقاً - مليئة بالسفلة : كان الفرنسيون يلقون هناك أسوأ معاملة ، بينما كانت للإيطاليين المكائة العليا .. وحتى فيما بين هؤلاء ، كان

المستخدمون الصالحون الذين الحقوا منذ وقت طويل بخدمة السفارة ، يطردون في غير ما إنصاف ، وكان من هؤلاء المستشار الأول للسفير ، الذي شغل المركز نفسه في عهد سلفه الكونت دي فيرولاي ، والذي كان يدعى — على ما اعتقد — الكونت « بياني » ، أو ما يقرب من هذا الاسم . . أما المستشار الثاني — وكان السيد دي مونتيجي هو الذي اختاره بنفسه — فكان شقيا من ( مانتوي ) ، يدعى « دومينيك فيتالي » ، وقد عهد إليه السفير بشئون داره ، فاستطاع بالتعلق وبالشح الخسيس أن يكتسب ثقته ويفسدو أثرا له ، مما اضرب من كان قد ظل بالدار من أمناء قلائل ، وبالسكرتير الذي كان على رأسهم . . وعين الرجل الشريف أمينه ، تثير دائما قلق اللئام . وقد كان هذا وحده كافيا لأن يجعل هذا الرجل يكرهني ، ببدا أن كراهيته كانت ترجع — كذلك — إلى سبب آخر ضاعف منها إلى حد كبير . ولا بد لي من أن أبدي هذا السبب ، ولكم أن تدينوني إذا كنت مخطئا !

ذلك أنه كان للسفير — وفقا لتقليد راسخ منذ امد طويل — مقصورة في كل من المسارح الخمسة . وكان يعين — على مائدة الغداء ، في كل يوم — المسرح الذي يعتزم الذهاب إليه ، فكنيت انا الذي يليه في الاختيار ، على أن يأخذ المستشارون المقصورات الأخرى . وكنيت آخذ — عند انصرافي — مفتاح المقصورة التي

### اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث

اخترقتها . غفى ذات يوم ، لم يكن فيتالى - الذى كان يحتفظ بالمفاتيح - موجودا ، فعهدت إلى ساع كان فى خدمتى ، بأن يحضر لى مفتاحى فى دار عينتها له . ولكن فيتالى لم يرسل المفتاح ، بل قال إنه قد تصرف فى شأنه . ومما زاد من غيظى ، أن السامى أدلى بهذا النبا أمام الملأ . فلما كان المساء ، حاول فيتالى أن يتقدم بوضع كلمات يعتذر بها ، ولكنى لم أنصت إليه ، بل قلت له : « تعال غدا أيها السيد ، فقلها فى نفس الساعة ، وفى نفس الدار التى تلتقيت أنا الالهانة فيها ، وأمام الناس الذين شهدوها . . والا ، فسوف أطالب بعد غد - ومهما يكن ما يحدث - بأن يغادر أحدهما هذه السفارة ! » . وأحمته لهجتى الحاسمة ، فجاء إلى الدار فى الساعة المحددة ، واعتذر علانية ، فى صغار يليق به ولكنه راح يرسم خطته على مهل . وبينما كان يبدى لى احتراما بالغاً ، راح يعمل على شسلكة الإيطاليين (١) ومع أنه لم يستطع أن يحمل السفير على فصلى ، إلا أنه اضطرنى إلى أن أستقيل من تلقاء نفسى !

ومن المحقق أن مثل هذا الوغد لم يكن أهلاً لأن يعرفنى ، ولكنه عرف عنى ما كان يخدم أغراضه . . عرف أننى كنت من الطيبة واللين بحيث أحتمل المظالم غير المقصودة ، وأننى من الكبرياء بحيث لا أحتمل الالهانات المتعمدة ، وأننى أحب

---

(١) يقصد الدس فى الخفاء ، والنبية وما اليها من اساليب .

التواضع والوقار في المناسبات الملائمة ، وأننى لم أكن أقل حرصاً على ما ينبغي لى من تكريم ، منى على أداء ما هو واجب على منه للغير . . وهذا ما استغله ووفق بفضلته إلى مضايقتى . فقد قلب السفارة رأساً على عقب ، وأزال منها ما كنت قد بذلته لصون الأصول ، وترتيب المراكز ، والدقة ، والنظام . والبيت إذاً خلا من امرأة ، احتاج إلى قواعد للنظام أقسى بقليل مما يحتاج إليه سواه ، في سبيل التمكين للاحتشام من أن يسوده مقترنا بالكرامة والوقار . أما هذا الرجل ، فانه سرعان ما جعل من دارنا مباءة للخلاعة والفجور ، ووكراً للأنذال والفاسقين . وخلع منصب المستشار الثانى (١) على قواد (٢) مثله ، كان يمتلك داراً للدعارة (٣) في ( كروا دى مالت ) — صليب مالطة — فكان هذان اللثيمان في وثام تام ، وعلى وقاحة تعادل فجورهما . . فلم يعد في الدار ركن واحد يليق برجل شريف ، فيما عدا غرفة السفير وحدها . . بل إن هذه أيضاً لم تكن كما ينبغي !

ولما كان صاحب السعادة قد اعتاد ألا يتناول عشاء قط ، فقد كانت تمد لنا — المستشارين وأنا — مائدة خاصة في المساء،

(١) إذ أنه خلف الكونت بيلتى في منصب الأمين الأول .

(٢) في الأصل الفرنسي . . . Maq

(٣) qui tenait b . . . public

يجلس إليها الراهب دى بينى والسعاة كذلك . وكان المرء حريا بأن يلقى فى أحقر الحانات خدمة أكرم ، وأدوات للمائدة انظف ، وطعاما أحسن مما كان يقدم إلينا إذ ذاك ! .. فما كنا لنحظى بغير شمعة واحدة صغيرة سوداء ، وصحاف من القصدير ، وشوكات من الحديد . ولقد كنت خليقا بأن اتحمل ما كان يدور فى السر ، لولا أنني حرمت من جندولى ، فأصبحت الوحيد — بين سكرتيرى السفراء — الذى يضطر إلى أن يستأجر جندولا أو أن يسير على قدميه . ولم يكن يرافقتى — إذا ما أوفدتن إلى مجلس الشيوخ — سوى خديم صاحب السعادة السفير (١) . وإلى جانب هذا ، كان كل ما يحدث فى السفارة لا يخفى على أهل المدينة ، فقد كان كل موظفى السفير يرفعون عقائرهم بتلك الألباء . وكان « دومينيك » — السبب الأوحى فى كل هذا — هو أكثرهم إمعانا فى رفع صوته ! .. فقد كان يعلم أن المعاملة غير الكريمة التى كنا نلقاها ، إنما كانت تمسنى أكثر مما تمس سواى . وكنت الوحيد — من موظفى الدار — الذى يتورع عن الكلام خارجها ، ولكننى كنت أرفع صوتى بالشكوى للسفير .. لا مما كان يجرى فحسب ، بل منه هو نفسه كذلك إذ كان — بفضل التحريض الخفى من

---

(١) كان المألوف أن يوافق سكرتير السفارة إذا ما أوفد نائباً عن السفير ،

حاجب ربيع الدرجة ومستشار .

مستشاره الخبيث — يوجه إلى في كل يوم إهانة جديدة .  
ولما كنت مضطرا إلى الاتفاق عن سعة لكى أظهر في مستوى  
أقرانى ، وفي مظهر يليق بمنصبى ، فأننى لم استطع أن أدخر  
« سو » واحدا من مخصصاتى ، وكنت إذا ما طلبت من السفير  
نقودا ، راح يحدثنى عن تقديره وثقته ، وكان هذا كاف لأن  
يملا جيبى ولأن يمدنى بكل حاجاتى !

\* \* \*

وانتهى هذان الشقيان (١) إلى أن عبثا برأس سيدهما  
الذى لم يكن سليم التفكير أصلا ، فقاده إلى الإفلاس عن طريق  
استدراجه باستمرار إلى شراء سلع زائفة كانوا يقنعانه بأنها  
تحف أثرية . كما حملاه على أن يستأجر قصرا — فى (برينتا) —  
بأجر يعادل ضعف قيمته ، واقتسما الفرق مع المالك . وكانت  
الغرف مبطنة بالقيشانى ، ومزدانة بأعمدة وأركان من أجمل  
أنواع الرخام ، وفقا للطراز الذى كان شائعا فى البلاد . ولقد  
عمد السيد دى مونتيجى إلى تغطية كل هذه الزخارف ، بالواح  
من خشب الصنوبر ، متعللا بحجة عجيبة ، هى أن هذا هو  
الذى كان متبعاً فى الدور الباريسية . . . ولحجة أخرى كهذه ،  
كان هو السفير الوحيد — فى البندقية — الذى جرد سعاة  
سفارته من السيوف ، وخدمه الخصوصيين من العصي . .

---

(١) المستشاران الإيطاليان .

هكذا كان الرجل الذى راح يكرهنى ، لجرد أننى كنت أخدمه بامانة . ولعله كان صادرا فى ذلك عن تفكير مشابه لنفس التفكير الذى حبله على التصرفات السالفة الذكر !

ولقد كنت أحتمل صابرا تصرفاته المهينة ، وقسوته ، وسوء معاملته ، طالما ظللت أراها صادرة عن الطبع التى جبل عليها ، دون أن أحسبها صادرة عن كراهية . ولكننى لم أكسد اتبين أن الخطأ كانت مرسومة لحرمانى من الاعتبار الذى كنت أستحقه بفضل خدماتى الصادقة ، حتى عقدت العزم على أن أستقيل من منصبى . وكان أول دليل تلقيتـه على سوء نيته ، هو ذاك الذى حدث بمناسبة مائدة كان عليه أن يقيمها للسيد الدوق دى مودينى وأسرته ، عندهما حلوا بالبندقية . فقد أنبأنى بأنه لن يكون لى محل فى تلك المائدة . فأجبتـه مستاء . ولكن فى غير غضب . . . بأننى قد اعتدت أن أحظى بشرف تناول الغداء على مائدة السفير يوميا ، فإذا أبدى السيد الدوق دى مودينى . . . عند مجيئه . . . أننى يجب أن أغيب عن المائدة ، فمن اللائق بكرامة صاحب السعادة ( السفير ) ، ومن الواجب على ، ألا أنصاع لهذه الرغبة . ففسال فى حدة : « ماذا ؟ ! . . . أيطالب سكرتيرى . . . وهو لم يبلغ مرتبة المستشار . . . أن يتناول الغداء مع عاهل ، فى حين أن مستشارى لن يحضرا المائدة ؟ ! » . فأجبت : « أجل يا سيدى ، فإن المنصب الذى شرفتنى سعادتك به ، يرفع مقامى . . . طالما كنت أشغله . . .

إلى درجة تجعل لى الأولوية حتى على مستشاريك ، أو أولئك الذين يقال عنهم أنهم مستشاروك ، ومن ثم فإن لى حق الحضور فى مناسبات ليس لهم أن يحضروها . وأنت لا تجهل أن التقاليد الرسمية ، والعرف المتبع من زمن أبعد من أن يفكر ، تحتم على — فى اليوم الذى تحضر فيه التشريعات الرسمية — أن أتبعك فى ثياب التشريفة ، وأن أحظى بحضور مآدب قصر « سان مارك » معك . ولست أدري كيف لا يجوز للشخص الذى يجلس فى مأدبة عامة مع « الدوج » (١) ومجلس شيوخ البندقية ، أن يجلس مع السيد الدوق دى مودينى بالذات ، إلى مائدة واحدة ! » . ومع أن حجتى كانت فوق كل رد ، إلا أن السفير لم يسلم بها . غير أننا لم نجد فرصة لتجديد النزاع . إذ أن السيد الدوق دى مودينى لم يأت للغداء على مائدته قط !

\* \* \*

ومنذ ذلك الحين لم يكف السفير عن مضايقتى ، وعن امتهان حقوقى ، مختصيا الامتيازات البسيطة التى تتعلق بمنصبى ، فكان يجردنى منها ليخلعها على عزيزه فيتالى . وانى لو اتق من أنه لو استطاع أن يجرؤ على إيفاده — بدلا منى — إلى مجلس الشيوخ ، لفعل . وكان يستخدم الراهب دى بينى عادة ، لكتابة خطاباته الخاصة فى حجرة مكتبه ، فعهد

---

(١) لقب كان يطلق على رئيس الدولة فى البندقية .

إليه بأن يكتب إلى السيد دي موريا تقريراً عن مسألة الريان أوليفيه ، لم يذكرني فيه البتة ، مع أنني كنت الوحيد الذي تدخل في المسألة . . بل أنه أنكر على شرف التحقيق الرسمي الذي قمت به . . والذي أرسل إلى السيد دي موريا نسخة منه . . وعزاه إلى باتيزيل ، الذي لم ينبس ببنت شفة . فلقد أراد أن يغيظني وأن يرضى صاحب الحظوة لديه ، دون أن يستغنى عني برغم ذلك ، إذ شمر بآته لم يكن ليعثر على خليفة لي ، بنفس السهولة التي عثر بها على خليفة للسيد دي فولو . . سلفي . الذي كان قد اشاع في الخارج فكرة صحيحة عنه ! . . ولم يكن له غنى عن سكرتير يعرف اللغة الإيطالية ، نظراً لمراسلاته مع مجلس الشيوخ . . لم يكن في غنى عن سكرتير قادر على أن يكتب كل رسائله ، ويدبر كل أموره ، دون تدخل منه . . سكرتير يجمع بين المقدرة على أن يخدمه بامانة ، والهوان الذي يجعله يروق للسيد المستشارين المدللين ! . . ومن ثم فقد أراد أن يستبقيني وأن يكيدني في آن واحد ، بأن يمسكني بعيداً عن وطني وعن وطنه ، دون ما نقود تمكنني من العودة . ولعله كان جديراً بأن ينجح لو أنه سمى إلى ذلك بمزيد من الحكمة . ولكن فينالي كان يرى آراء أخرى ، وكان ينبغي حملي على الرحيل ، وقد وفق في غايته . لما أن تبينت أنني كنت أبعد جهودي ، وأن السفسر كان ينظر إلى خدماتي وكأنها جرائم ، بدلاً من أن يحمدها لي . .

واننى لم يعد لى أن أطمع - طالما ظللت معه - في غير المضايقات في الداخل ، وعدم الانصاف في الخارج . . وان الأذى الذى كان يحاول أن يلحقه بى قد يفوق في الضرر ما قد أكسبه من رضائه إذا أنا بقيت في خدمته ، نظرا لما كان قد اجتنبه على نفسه من سخط عام . . ما أن تبينت كل هذا ، حتى قررت أن استأنفه في أن يعفيني من العمل ، مفسحا له الوقت كي يحصل لنفسه على سكرتير . على أنه ظل سادرا في مسلكه ، دون أن يجيب بنعم أو لا . فلما رأيت أن الأمور لم تتحسن ، وأنه لم يتجه إلى البحث عن سكرتير آخر ، كتبت إلى أخيه ، مفصلا كافة البواعث ، راجيا إياه أن يحمل أخاه على تسريحى ، مضيما إلى ذلك أننى لن أمكث في منصبى على أية حال ! . . وانتظرت طويلا ، دون أن أتلقى جوابا . وكنت قد بدأت أشعر بحيرة بالغة ، عندما تسلم السفير - أخيرا - رسالة من أخيه . ولا بد أنها كانت شديدة اللهجة ، إذ أننى لم أراه - برغم أنه كان مرضى لأعنف نوبات الغضب - في مثل الهياج الذى رأيت فيه إذ ذاك . ويعد سيل من العباب المقذع ، لم يعد يدري ما يقول ، غاتهنى بأننى بعث أسرار الشفرة . وأخذت أضحك ، ثم سألته في لهجة ساخرة عما إذا كان يظن أن في البندقية بأسرها مغفلا واحدا يرضى بأن يدفع « ايكو » واحدا من أجلها . وجعله هذا الجواب يستشيط حنقا ، فهم بأن يدعو إتيامه لكى يلتقوا بى من النافذة ، كما قال . وكنت حتى تلك اللحظة محتفظا بهدوئى ،

ولكنى إزاء هذا التهديد - وجدت أن الغضب والعزة قد تملكاني بدورى ، فاندفعت إلى الباب ، وبعد أن دفعت المزلاج الذى يوصده من الداخل ، عدت إليه وقلت فى لهجة رهيبة : « لا يا سيدى الكونت ، لن يتدخل أتباعك فى هذه المسألة ، فتكرم بتسويتها فيما بيننا ! » . وهذا تصرفى ومظهرى من سوريته فى الحال ، وتجلت الدهشة والروع على أساريره . فلما رأيته قد تخلى من هياجه ، ودعته بكلمات موجزة ، ثم ذهبت - دون أن أنتظر منه جوابا - ففتحت الباب ، وخرجت ، فاجتزت الحجرة الملحقة بمكتبه فى ثبات ، وسبط أتباعه الذين نهضوا كعادتهم ، والذين اعتقد أنهم كانوا أكثر استعدادا لمناصرتى منهم لمناصرتة . وبدون أن أعود إلى غرفتى ، هبطت السلم ، وغادرت القصر ، فلم ألج به بعد ذلك قط !



وذهبت لغورى إلى السيد لوبلون ، لانبئه بما حدث ، فلم يبد دهشه كثيرة ، إذ كان يعرف الرجل ، وإنما استبقاني للغداء . وكان هذا الغداء - برغم التعجل فى إعداده - بهيجا ، وقد حضره كل الفرنسيين ذوى المكانة ، الذين كانوا فى البندقية . ولم يكن بينهم فرد واحد فى صف السفير ، فقد روى القنصل حكايتى على الجماعة ، وما أن ألوا بها حتى صاحوا جميعا فى وقت واحد ، ولكن فى غير صالح صاحب السعادة . ولم يكن هذا قد سوى حسابى ، ولا أعطانى « سو » واحدا . ولما كانت كل مواردى لا تتجاوز بضع قطع من فئة « اللوى » ، فقد وجدتني

في حيرة من أمر سفرى . وإذا بكل الجيوب تفتتح لى ، فأخذت  
عشرين « سيكان » من السيد لوبلون ، ومثلها من السيد  
دى سان سير ، الذى كنت وثيق الصلة به ، وكان بلى القنصل  
فى المكائنة من قلبى . ثم شكرت الباقين ، وبقيت — إلى أن قدر  
لى الرحيل — مقيما لدى رئيس ديوان القنصلية ، لكى اثبت  
للراى العام أن الأمة لم تكن مشتركة فى مظالم السفير . ولقد  
أهاج هذا أن رأتى موضع تكريم فى محنتى ، بينما كان هو  
— برغم مركزه كسفير — منبوذا ، ففقد حجاه تهما ، وأخذ  
يتصرف كالمخبول . وبلغ من غفلته أن قدم إلى مجلس الشيوخ  
مذكرة لامتناعى . فلما أنبأنى بذلك الراهب دى بينى ، قررت  
أن أبقى أسبوعين آخرين ، بدلا من أن أبادر إلى الرحيل فى اليوم  
التالى ، كما كنت أعزم . وقد درس تصرفى فلقى اقرارا ، كما  
غدوت موضع تقدير عام . ولم تتنازل الرئاسة حتى بالرد على  
مذكرة السفير الرعناء ، كما أنبأتنى — عن طريق القنصل — بأن  
لى أن أبقى فى البندقية ما شئت ، دون أن أزعج نفسى بتصرعات  
رجل أحق ! . ومن ثم واصلت زيارتى لأصدقائى ، وذهبت  
لاودع السفير الأسباني — الذى أحسن استقبالى — والكونت  
دى مينوكييتى ، وزير نابلى ، الذى لم أجده فكتبت إليه وإذا  
به يرد بخطاب من اللف الخطابيات . وما لبثت أن رحطت — فى  
النهاية — غير مخلف ورائى أية ديون ، برغم ضائقتى ، سوى  
القرضين اللذين ذكرتهما من قبل ، وسوى خمسين « ايكو »  
كنت مدينا بها لتاجر يدعى « موراندى » ، وقد تكفل « كاريو »  
بدفعها إليه ، وإن لم أردّها إليه قط ، بالرغم من أننا تقابلنا

كثيرا بعد ذلك الحين . اما القرصان اللذان تحدثت عنهما ، فقد سددهما كاملين بمجرد ان تيسر لى ذلك .

\* \* \*

ولا يجوز ان نترك البندقية دون كلمة عن ملاهى هذه المدينة الشهيرة ، او — على الأقل — عن القسط الضئيل منها ، الذى قدر لى ان انعم به اثناء مقامى هناك . ولقد رويت كيف اننى — فى شبابى — كنت مقلا فى السعى إلى ملذات هذه المرحلة من السن ، او — على الأقل — المتع التى توصف بأنها ملذات . ولم اغير من مسلكى هذا فى البندقية ، ولكن مشاغلى — التى كانت كفيفة بأن تمنعنى من أى تغير — جعلت اسباب التسلية البسيطة ، التى كنت أستبجحها ، أكثر امتاعا . وكانت أولى هذه الأسباب والطفها هى مصاحبة الاكفاء من الناس : السادة لوبلون ، ودى سان سير ، وكاريو ، والتونا ، وسيد غورلانى (١) نسيت — لشدة اسفى — اسمه ، ولكنى لا استطيع ان اذكر لطفه دون ان تتأثر نفسى . ولقد أوتى — دون كل من عرفت من الرجال — اقرب القلوب شبيها بقلبى . ولقد ارتبطنا كذلك باثنين أو ثلاثة من الإنجليز ، واسعى الذكاء والمعرفة ، مشغولين مثلنا بالموسيقى . وكانت لهؤلاء السادة جميعا زوجات ، أو صديقات ، أو عشيقات . وكن جميعا — تقريبا — نساء موهوبات ، تعزف الموسيقى ويدور الرقص فى بيوتهن . وكان

---

(١) الغورلان اسم يطلق على أبناء منطقة ( غريول ) ، التى يقع جزء منها

— الآن — فى النمسا ، وجزء آخر فى ايطاليا . وهناك رقصة باسم « غورلان » .

لعب الميسر يدور هناك أيضا ، ولكن في القليل النادر ، إذ أن ميولنا النزاجة ، ومواهبتنا ، وشغفنا بالمرح ، جعلت هذه التسلية - الميسر - عقيمة ، فالمقامرة ليست تسلية إلا لأولئك الذين يستبد بهم الضجر ! . . وكنت قد حملت معي من باريس ، التحامل الذي خلقه الشعور القومي ضد الموسيقى الإيطالية ، ولكنني كنت قد أوتيت من الطبيعة ذلك الإدراك المرهف الذي لا يمكن لمثل هذا التحامل أن يصمد أمامه . فسرعان ما سرى إلى نفسي ذلك الشغف الذي توحى به الموسيقى الإيطالية إلى أولئك الذين يملكون القدرة على الحكم الصحيح بصدها . وإذا سمعت «الباركارول»<sup>(١)</sup> تبينت أنني لم أسمع قبل ذلك غناء . . . وسرعان ما أولعت بالأوبرا ولعا جنونيا ، حتى أنني كنت حين أضيق بالثرثرة والاكل واللعب في المقصورات - في الوقت الذي لم أكن أهفو فيه إلا إلى الانصات - اتسلل في كثير من الأحيان من رفاقي ، لأذهب إلى ناحية أخرى من الدار . وهناك كنت أجلس وحيدا في مقصورة مغلقة ، وأسلم نفسي للذة الاستمتاع بالأداء ، برغم طوله ، دون أن يزعجني شيء ، حتى نهاية المسهرة . وفي ذات يوم ، استسلمت للنوم - في مسرح سان كريزوستوم - فاستغرقت فيه بدرجة لم أنعم بها قط في فراشي ، ولم تقو الألحان الصاخبة ، الرائعة ، على إيقاظي ، ولكن . . من لي بمن يصف الشعور العذب الذي أحدثه في نفسي النغم الناعم والغناء الملائكي للذان أيقظاني ! . . وأية بقطة ، وأى

---

(١) أغاني نوتية الجندول .

استفراق ، واية نشوة تلك التى استشعرتها حين فتحت اذنى وعينى فى آن واحد ! .. كانت اول فكرة واتتنى هى اننى كنت فى الفردوس ! .. كانت تلك المقطوعة الرائعة ، التى لا ازال اذكرها ، والتى لن انسها ما حييت ، تبدا هكذا :

« استحوذت على الجميلة .. التى اثارَت أعماقى » (١) .

ورغبت فى ان احصل على لحن هذه القطعة ، وقد ظفرت به ، واحتفظت به زمنا طويلا ، ولكنه لم يكن على الورق فى روعته التى كان بها فى ذاكرتى .. كانت الانغام واحدة ، ومع ذلك فإن اللحن لم يكن واحدا .. لم يكن من سبيل إلى أداء اللحن بالروعة السماوية التى كان يتردد بها فى راسى ، والتى كان يؤدى بها فى الواقع عندما ايقظنى !

اما الموسيقى التى تعتبر هـ فى رأى - اسمى من موسيقى الأوبرا ، والتى لا مثيل لها فى إيطاليا أو فى بقية العالم ، فهى موسيقى « الاسكوله » .. و « الاسكوله » بيوت خبرية انشئت لتعليم الفتيات الصغيرات اللاتى لا موارد لهن ، واللاتى تعدهن الجمهورية بعد ذلك ، إما للزواج ، وإما للالتحاق بالاديرة . وللموسيقى المكانة الاولى بين المواهب التى تنمى فى هؤلاء الفتيات الصغيرات . وفى يوم الاحد من كل اسبوع ، وفى كنيسة كل من هذه « الاسكولات » الاربع ، تؤدى خلال قداسات الغروب مقطوعات (١) يشترك فيها عدد كبير من المنشدات وعدد كبير من العازفات ، ويقوم بتأليفها وتلحينها وإدارة أدائها اكبر

الموسيقين الإيطاليين .. وهى تؤدي فى المقصورات ذات الحواجز المصنوعة من الخشب المتشابك ( المعشق كجدران المنابر ) . ويقتصر أداؤها على الفتيات اللاتى لا تبلغ اكبر واحدة منهن العشرين من عمرها .. وليس بوسعى أن أتصور شيئا الذ وأعذب وأكثر تأثيرا فى النفس من هذه الموسيقى . فإن دسامة الفن ، وعذوبة الفناء ، وجمال الأصوات ودقة الاداء .. كل ما فى هذه الحفلات الموسيقية البهيجة ، يساهم فى خلق انطباع لا ينسب قطعا إلى « جودة الأسلوب » ، ولكنى أرتاب فى أن ثمة قلبا بشريا فى مناعة منه ! .. ولم يتخل كاريو وإيلى قط عن حضور هذه القداسات فى كنيسة « المنديكسائى » ، ولم تكن الوحيديين فى ذلك ، فقد كانت الكنيسة دائما تغص بالهواة .. بل أن ممثلى الأوبرا أنفسهم كانوا يذهبون لينموا ذوقهم الغنائى مسترشدين بهذه النماذج الرائعة . وكان الشيء الذى يدفعنى إلى القنوط ، يتمثل فى تلك الجدران الخشبية اللعينة ، التى لم تكن تسمح بمرور شيء سوى الأصوات ، والتى كانت تحجب عنى الملائكة اللاتى قد أوتين — ولابد — جمالا يليق بهذه الأصوات ! .. ولم يكن لى من حديث إلا عن هذا الموضوع ، وقد تحدثت فيه يوما ، فى دار السيد لوبلون ، فقال : « إذا كنت شديد الشوق إلى أن ترى هؤلاء الفتيات الصغيرات ، فمن

(١) المقطوعات المقصودة « Motets » وهى مقطوعات موسيقية غنائية

دينية ، تنظم من التعاليم اللاهوتية الخاصة بالطقوس الدينية .

السهل إرضاء شوقك . فإنتى من المشرفين على المؤسسة ،  
وكم أود أن أدعوك إلى وجبة خفيفة<sup>(١)</sup> معهن ! » .

ولم أتركه يرتاح حتى بر بوعدده . وإذا دخلت القاعة التى  
ضمت هؤلاء الجميلات اللاتى طال شوقى إليهن ، استشعرت  
رجفة عاشقة لم أعدها من قبل . وقدم السيد لوبلون إلى  
هؤلاء المغنيات الشهيرات ، اللاتى كانت أسماؤهن وأصواتهن  
هى كل ما عرفته عنهن : « تعالى يا صوفى ! » .. أنها بشعة  
الخلقة ! .. « تعالى يا كاتينا ! » .. إنها ذات عين واحدة ! ..  
« تعالى يا بتينا ! » .. كان الجدرى يشوه وجهها ! .. لم تكد  
توجد بينهن واحدة تخلو من هيئ ظاهر .. وضحك القاسى  
من المفاجأة العنيفة التى صادفتنى .. على أنه كانت بينهن  
اثنان أو ثلاث يبدون مقبولات الشكل ! .. ولم يكن يتقن الغناء  
إلا مجتمعات ( فى كورس ) ، فتولانى الأسى . وفى أثناء الوجبة  
الخفيفة ، رحنا نداعبهن لماذا المرح يفيض بهن ، وإذا الدمامة  
لا تخلو من بعض آيات البهساء التى تبينت وجودها غيبن .  
فقلت لنفسى : ما كن ليقوين على مثل هذا الغناء الرائع ، ما لم  
يكن قد أوتين أرواحا سامية .. وكن كذلك فعلا . وأخيرا ،  
تغير رأيى فيهن إلى درجة أننى انصرفت وأنا شبه متيم بهؤلاء  
الدميمات ! .. وجرؤت — فى غناء — على العودة إلى حضور  
قداسهن ، وقد تبينت ما طمأننى . وقد ظللت أجد غنساءهن  
عذبا ، وأرى أن أصواتهن كانت تضى على وجوههن بهساء ،

(١) Gouter « تعبيرة » أو وجبة خفيفة بين الغداء والعشاء .



وقدم السيد لوبلون الى هؤلاء المفضيات الشهيرات ، اللاتي كانت اسماءهن  
واسمائهن هي كل ما عرفته عنهن .

حتى أنني كنت أصر - ما دمت أسمع غناءهن - على أن  
أصورهن جميلات ، بالرغم مما كانت تصر عليه ميناى !

والموسيقى - فى إيطاليا - لا تكاد تتكلف شيئا يذكر ، ومن  
ثم فإن حرمان النفس منها - إذا كان لدى المرء ميل إليها -  
لا يكاد يستحق العناء الذى يبذل فى سبيل ذلك . وقد استأجرت  
بعضها ، وكنت فى مقابل « ايكو » واحد ، أستقدم إلى دارى  
أربعة أو خمسة من عازفى الموسيقى الغنائية ، أتدرب معهم  
- مرة فى الأسبوع - على عزف القطع التى تكون قد استأثرت  
بأعظم قدر من إعجابى فى « الأوبرا » . وكنت أجرب كذلك  
عزف بعض الألحان الغنائية التى ضمتها « عرائس الشعر  
اللطاف » (١) ولقد سألنى أستاذ الموسيقى الإيقاعية فى « سان  
جان كريستوم » قطعتين منهما - أما لأنه أعجب بهما حقاً ،  
وأما لأنه أراد أن يملقنى - فسررنى أن أسمعهما تؤدىان على  
أيدي فرقته الرائعة ، وأن تؤدى رقصاتهما الصغيرة « بتينا »  
.. وهى فتاة جميلة لطيفة ، كان يرعاها أسبائى من أصدقائها  
يدعى « ناجواجا » ، كثيراً ما قضينا السهرات فى داره -



أما من النساء ، فليس لرجل أن يعرض عنهن فى مدينة  
كالبنديقية ! . . وقد يقال لى : « اليس لديك ما تعترف به فى  
هذا الصدد ؟ » . . بلى ، فإن لدى ما يقال فعلاً ، وإنى أقدم  
على هذا الاعتراف بنفس الصراحة التى اتبعتها فى كل

(١) « الأوبرا » التى كان « روسو » قد ألها فى باريس .

امترافاتي الأخرى . . ولقد كنت دائما أنفر من البغايا ، بيد أنه لم يكن لدى سواهن في البندقية ، إذ كان محرما على ولسوج معظم البيوت في المدينة ، من جراء منصبى . ولقد كانت فتيات السيد لوبلون جد لطيفات ، ولكن التقرب اليهن كان أمرا عسيرا ، كما أن احترامى لأبيهن وأمهن كان أعظم من أن يسول لى مجرد التفكير فى اشتهاهن !

ولقد كنت خليقا بأن أميل كل الميل إلى شابة تدعى الأنسة دى « كاتاليو » ، كانت ابنة مندوب ملك بروسيا . ولكن كاريو كان يهواها ، حتى أنه كان يسعى إلى الزواج منها . . ولقد كان ميسور الحال ، فى حين أننى لم أكن أملك شيئا . . كان مرتبه مائة « لوى » ، أما أنا فلم أكن أقتضى سوى مائة « بيسستول » . وبغض النظر عن أننى ما كنت لأستطيع أن أسطو على صيد صديقى ، فأتى كنت أدرك أن ليس لرجل خالى الوغاض أن يقدم على التقرب إلى الحسان ، وإنما يكن . . ولو كان فى البندقية ! . . ولم أكن قد فقدت عادتى المشثومة ، وأعنى بها استبدال الحاجات التى أصبو إليها . ولما كنت جد مشغول إلى درجة لا تدع لى سبيلا إلى الشعور الملح بالحاجات التى يخلقها الجو المحيط بى ، فأتى عشت فى هذه المدينة علما تقريبا ، وأنا محتفظ بما كان لى — فى باريس — من طهر وحكمة . . كما تركتها بعد ثمانية عشر شهرا دون أن أقرب الجنس اللطيف فيها عدا مسرتين ، وبسبب المناسبتين غير العاديتين اللتين سأذكرهما فيما يلى :

ولقد أتاح لى أولاهما السيد الشريف فيتالى (١) ، بعد انقضاء فترة على الامتذار الذى أجبرته على أن يقدمه لى فى اكمل صيغة رسمية . فقد دار الحديث حول المائدة عن ملاهى البندقية ، فأخذ السادة يعتبرون على عدم اكتراثى بأشد هذه الملاهى حرارة ، ويطلبون فى إطراء رقة الغوانى البندقيات ، قائلين أن ليس فى العالم من يضارعهن . وقال دومينيك إننى خلىق بأن أتعرف إلى أبدعهن طرا ، وأنه يرجو أن يقدمنى إليها ، وإننى سأطرب لمعرفتها . وانطلقت أضحك لهذا الاقتراح المخرج ، لماذا بالكونت بياتى — وكان كهلا وقورا — يقول فى صراحة لم أكن أتوقعها من إيطالى ، إنه يؤمن بأننى أعقل من أن ادع عدوى يقودنى إلى دار غانية . والواقع أننى لم استشعر ميلا ، ولا تأثرت بإغراء ، ولكننى انتهيت بالرغم من ذلك — وبدافع من إحدى النزوات المتناقضة التى لم أكن أملك أن أنهما — إلى أن تركت عدوى يقودنى ، على النقيض من إملاء ميولى ، وقلبى ، وعقلى ، بل وإرادتى . كنت منساقا له لجرد الضعف والخجل من ابداء عدم الثقة به ، أو بلسان تلك البلاد :

Per non Parer Troppo Coglione (٢) ولقد كانت

« البادوانا » (٣) التى ذهبا إليها ذات وجه لا بأس بحسنه بل إنه كان جميلا ، ولكن جماله لم يكن من الطراز الذى يروق لى .

(١) وأوضح أن « روسو » يشق من « فيتالى » أى يصفه بأنه شريف .

(٢) عبارة إيطالية معناها : « لى لا يبدو مغرط الغباء » .

(٣) الغانية ، أو المومس .

وتركنى دومينيك فى دارها ، فأرسلت فى طلب بعض المطوجات ( آيس كريم ) ، وسألتها أن تغنى لى ، ثم تهيات — بعد نصف ساعة — للانصراف ، تاركاً على المنضدة « دوكا » (١) ، ولكنها فى عزة نفس غريبة — أبت إطلاقاً أن تقبل المبلغ دون أن تكون قد أدت ما يقابله . . وفى غياء — لا يقل غرابة — أرضيت عزة نفسها ! . . وعدت إلى القصر وأنا موقن من أننى أصبت بمرض خبيث ، حتى أن أول ما فعلت هو أن أرسلت فى طلب طبيب لأطلب منه بعض الأدوية . وليس ثمة ما يعادل الغم الذى عانيتهُ طوال ثلاثة أشهر ، دون ما علة حقيقية ، ودون ظهور أية علامة تبرره . فما كنت لأتصور أن من الممكن مغادرة أحضان مومس دون ما ضرر ! . . بل إن الطبيب نفسه تجشم كل عناء يمكن تصوره ، لكى يطمئننى ، فلم يوفق إلا إلى اقناعى بأننى كنت مخلوقاً على نمط خاص ، لا يجعلنى أصاب بالعدوى بسهولة . ومع أننى قد أكون أقل من أى رجل آخر تعرضاً لهذا الخطر ، إلا أن عدم تأثر صحتى البتة من هذه الناحية بالذات ، يبدو لى دليلاً على أن الطبيب كان مصيباً ! . . على أن هذا الراى لم يجعلنى متهوراً قط ، وإذ كنت قد أوتيت فعلاً هذه الميزة الطبيعية ، فإن فى وسعى أن أقول أننى لم أسوء استفلالها !



أما مغامرتى الأخرى ، فمع أنها كانت مع غانية كذلك ، إلا أنها كانت من نوع جد مختلف ، سواء فى أصلها أو فى نتائجها .

(١) عملة ذهبية كانت تسمى تاراج بين ١٠ و ١٢ فرنكاً .

فلقد ذكرت أن الكابتن أوليفييه - الريان - قد دعاني إلى الغداء على ظهر سفينة ، وأننى اصطحبت سكرتير السفارة الأسبانية . وكنت أتوقع أن تحيينا المدافع ، فإذا البحارة يستقبلوننا مصطفين ، ولكن قطعة واحدة من الذخيرة لم تشعل ، مما غاظنى كثيرا ، بسبب كاريو ، الذى رأيته مستاء . والواقع أن التحية بطلقات المدافع - على السفن التجارية - كانت تؤدي لأناس لا يعادلوننا مقاما بالتأكيد ، كما أننى كنت أخالنى جديرا بشيء من التمييز من الريان . ولم أستطع أن أخفى ما كان بنفسى ، فقد كان ذلك أمرا مستحيلا دائما . ومع أن الغداء كان بديعا ، وقد أدار أوليفييه الانخاف في إكرام رائع ، فاننى بدأت المسادبة وأنا منحرف المزاج ، ومن ثم فقد أكلت قليلا وتكلمت أقل !

وعند احتساء النخب الأول ، توقعت تصنيفا على الأقل ، ولكن شيئا من هذا لم يحدث . . . وضحك كاريو - الذى قرأ ما فى خاطرى - إذ رآنى أغمغم كالطفل . وفى ثلث الغداء ، رايت جندولا يقترب ، وإذا الريان يقول لى : « لعمري ! . . خذ حذرك يا سيدى فهنا هو ذا العدو ! » فسأله عما كان يعنى ، وإذا ذاك أجاب بدعابة . ورسا الجندول بجوار السفينة ، فرأيت فتاة باهرة الجمال ، باللغة الرشاقة ، فى ثياب مغربة ، تغادره . . . وفى ثلاث قفزات كانت فى الغرمة . ورايتها تستقر إلى جوارى ، قبل أن أعطن إلى أن ثمة مكانا قد أعد لها . . . وكانت غائبة بقدر ما كانت رشيقة . . . سهرام فى العشرين من عمرها ، على الأكثر . . . ولم تكن تتكلم بغير اللغة الإيطالية ، وكانت

لهجتها وحدها كافية لأن تدبر رأسي . وفيما كانت تاكل وتتكلم ،  
أخذت ترمقني ، ثم تفرست في لحظة ، وما لبثت أن صاحت :  
« يا للمعزاة الطيبة ! .. آه ! ما أطول الوقت الذي انقضى  
يا عزيزي بريمون دون أن أراك ! » .. وارتمت في أحضاني ،  
والصقت فمها بفي ، واحتضنتني حتى كادت تزهرق أنفاسي ! ..  
وراحت ميناها الواسعتان السوداوان — على قرار العيون  
الشرقية — ترميان قلبي بشواظ من لهب . ومع أن المفاجأة  
أحدثت شيئا من الاضطراب في البداية ، إلا أن غريزتي  
الشهوية سرعان ما تملكنتني — بالرغم من الحضور — إلى  
درجة أن الفاتنة نفسها اضطرت إلى أن تكبح جماحي ، إذ أنني  
لملت ، أو بالأحرى جننت ! .. فلما رأنتي قد بلغت  
الدرجة التي كانت ترجوها ، خففت من عناقتها ، ولكنها لم  
تخفف من ثورة عواطفها .. حتى إذا راق لها أن تبدي لنا  
السبب الحقيقي أو الزائف لهذا النزق قالت لنا أنني كنت أشبه  
السيد دي بريمون ، مدير جبرك توسكاني ، إلى درجة يصعب  
بمها التمييز بيننا .. وأنها كانت — ولا تزال — متهمة بهذا  
السيد دي بريمون ، وأنها كانت قد هجرته لحماقتها .. وأنها قد  
اختارتني بدلا منه ، فشاعت أن تهواني ، لأن هذا كان يروق  
لها ، وأن من الواجب — للسبب ذاته ! — أن أحبها ، طالما  
ظل هذا يلائمها ، فإذا ما هجرتني فجأة ، وجب أن أحتملها  
صابرا ، كما كان يفعل عزيزها بريمون ! .. واستولت على  
كما لو أنني كنت ملك يمينها ، فمهدت إلى بقاياها ، ومروحتها ،  
وحزامها ، وقلنسوتها .. وراحت تأمرني بأن أذهب إلى هنا أو  
هناك ، وأن أعمل هذا أو ذاك ، وأنا أطيعها ! .. وقالت لي

ان اذهب فاصرف جندولها ، لانها كانت راغبة في استخدام جندولى ، فصدمت ! . . وامرتنى بأن اغادر مكاتى ، وان أرجو « كاريو » بأن يحل فيه محلى ، لانها كانت تريد ان تتحدث إليه ، ففعلت ! . . وتحدثنا طويلا ، في صوت جد خفيض ، فتركتهما يفصلان . . ونادتنى ، مخففت إليهما ، فقالت لى : « أسمع يا جانيتو . . لست أريد البتة ان اكون محبوبة على الطريقة الفرنسية ، إذ ليس من ورائها طائل في الواقع . . ففى أول لحظة تشعر فيها بالضجر ، لك ان تمضى عنى . ولكن ، لا تهكث بين بين . . إننى أفذك ! » .

وذهبنا بعد الغداء لمشاهدة مصنع الزجاج في ( مورانو ) ، فابتاعت كثيرا من التحف الصغيرة ، التى تركتنا ندفع ثمنها في غير كلمة . . ولكنها كانت . . في كل مكان . . تجود بها يفوق بكثير كل ما انفقنا . وكان من الواضح . . من الاستخفاف الذى كانت تبعثر به نقودها ، وتحملنا على ان نبعثر نقودنا . . انها لم تكن تقيم للمال وزنا . . واعتقد انها عندما كانت تطلب أجرا لنفسها ، لم تكن تصدر في طلبها عن جشع بقدر ما كانت تصدر عن زهو . فقد كانت تطرب للأجر الذى يدفع في مقابل المتع التى تجود بها ! وفي المساء ، ذهبنا إلى دارها . وفيها كنا نتحدث ، لمحت مسدسين على منضدة الزينة ، فقلت لها وأنا أتناول أحدهما : « آه ! آه ! . . هاكم مصيدة للذباب من نوع جديد . . هل من سبيل إلى معرفة قيم تستخدم ؟ . . إننى أعرف ان لديك اسلحة أخرى ، أقوى فتكا من هذا ! » . . وبعد بضع مداعبات من هذا القبيل ، قالت لنا في غرور أرعن ، زائدا غتنة : « عندما اتكرم على أولئك الذين لا أحبهم ، فاننى اتقاضاهم ثمن الضجر

الذى يسببونه لى ، وليس هناك ما هو اعدل من هذا ! .. على  
اثنى وإن احتملت عناقهم ، فليست أحب إطلاقا ان احتمل  
إهاناتهم .. ولن أخطيء إصابة أول رجل ينتقص من شأنى !» .

وهند انصرافى ، اتفقنا على الموعد الذى أوافىها فيه ، فى اليوم  
التالى .. ولم أدمها تنتظر ، ووجدتها فى « ثوب الخلوة » (١)  
.. وهو ثوب مكشوف ، أكثر من أن يوصف بأنه خليع ، غير  
معروف إلا فى الدول الجنسية ، ولن أمتع نفسى بوصفه ،  
برغم اثنى أفكره تماما ! .. كل ما سأقوله هو أن كميته وفتحة  
عنقه كانت مطرزة بخيط حريرى ، مزدان بكرات صغيرة فى  
لون الورد . وقد بدا لى أن هذا كان يضاعف من تورد بشرتها  
الرائعة الجمال . وقد تبينت فيما بعد أن هذا الزى كان من  
المستحدثات الرائجة فى ( البندقية ) ، وأنه كان ذا تأثير جد  
مائن ، حتى اثنى لأعجب من أنه لم ينتقل قط إلى فرنسا . ولم  
تكن لدى أدنى فكرة من الغواية التى كانت فى انتظارى ..  
لقد تحدثت عن مدام دى « لارناج » ، وأنا فى تلك النقشوات  
التي تنقلنى إليها فكرياها فى بعض الأحيان ، ولكن .. لشدة  
ما كانت عجوزا ، ودهمة ، وباردة الحس ، إذا قيسست بحبيبتى  
« جوليتا » ! .. ولا تحاولوا أن تتصوروا مفائن ومحاسن هذه  
الفتاة الساحرة ، فليسوف تظنون بعيدين كل البعد عن  
الحقيقة ! .. إن مذارى الأديرة أقل نضرة ، وحسان الحريم  
أقل حيوية ، وحوريات الجنة أقل جاذبية ! .. أبدا ما حظى قلب

وحواس إنسان فان بمثل تلك المتعة الخطوة !.. آه ! ليتنى  
عرفت كيف أتذوقها في أتم كمالها للحظة واحدة ، على الأقل !..  
لقد تذوقتها حقا ، ولكن دون ما افتتان ، إذ اننى أفسدت كل  
الملاذات .. قتلتها وأنا غير حافل ، كما ينبغي أن يقال . لا ،  
ان الطبيعة لم تخلقنى قط للاستمتاع ، وإنما بثت في رأسى  
الفساد سم هذه السعادة التى لا سبيل إلى وصفها ، والتى  
غرست في قلبى شهوة الشوق إليها !

\*\*\*

وإذا كان في حياتى ظسرف واحد يعبر تمام التعبير عن  
فطرتى ، فهو هذا الذى أوشك أن أرويه . ان القوة التى أذكر  
بها .. في هذه اللحظة — الغاية المنشودة من كتابى ، لتجعلنى  
أطرح عنى الحياء الكاذب الذى يمنعنى من أن أحققها . فمليك  
ايها الراغب في معرفة دخيلة قلب إنسان — أيا كنت أنت — أن  
تتجدد إذ تقرأ الصفحتين أو الثلاث التالية ، فسوف تعرف فيها  
جان جاك روسو معرفة تامة !

لقد كنت ألج غرفة الغسائية ، وكأنتى ألج معبدا للحب  
والجمال .. وكنت أخال أننى أبصر القداسة في شخصها ،  
فما كنت لأعتقد أن بوسعى أن أحظى بالانفعالات التى الهمتنيها  
ما لم أحترمها وأقدرها . ولم أكد أعرف — خلال محاولات  
التقارب والتألف الأولى — نعم مفاتنها وعناقها ، حتى تولانى  
الخوف من أن أفقد ثمارها مقدما ، ومن ثم فقد تفت إلى التعجيل  
بإقتطافها . وفجأة ، أحسست — بدلا من النيران التى كانت  
تكوينى — ببرودة قاتلة تسرى في عروقى ، وخذلتنى ساقاى ،

فجلست وأنا أرى نفسى موشكا على الاغماء ، ورحت أبكى كالطفل !

ترى منذ الذى يستطيع أن يحدث سبب دموعى وما كان  
يجرى فى رأسى فى هذه اللحظة ؟ .. كنت أقول لنفسى : « إن  
هذه الحسنة التى أجدتها فى متناولى هى أروع نتاج الطبيعة  
والحب .. فالروح والجسد فى أكمل آياتهما .. وإثنا لطيفة  
وكريمة كما اثنا جميلة وديعة .. وخلق بالعظماء والأمراء أن  
يكونوا عبيدا لها ، كما يجدر بصولجانات الملك أن تكون عبيد  
قديمتها .. ومع ذلك ، فما هى ذى تعسة ، تجوب الطرقات ،  
فى خدمة كل إنسان .. لقد نفذ أحد ربابنة السفن التجارية  
يديه منها ، فقامت وألقت بنفسها على رأسى .. على الذى  
كانت تعرف أنه لا يملك شيئا .. أنا الذى لم يكن بوسمها أن  
تعرف فضائله ، ولا كانت هذه الفضائل شيئا يذكر فى نظرها !  
.. ان ثمة شيئا يجلب عن الإدراك ، فى هذا . فاما أن قلبى  
يخدعنى ويزيف حواسى ويجعلنى مطية مومس لا قيمة لها ، وإيا  
أن ثمة عيبا خفيا لا أدريه ، يهزم مفعول ممانتها ، ويحيلها  
تميمة فى نظر أولئك الذين كانوا خليقين — لولا ذلك — بأن  
يتناحروا فى سبيل الظفر بها » .. وشرمت أبحث عن هذا  
العيب فى استغراق عجيب ، دون أن يخطر لى البتة أن للفسق  
والعهر نصيبا فى ذلك . فإن نظرة بشرتها ، وإشراق محياها ،  
واسنانها التى كان بياضها يبهر البشر ، وحلاوة أنفاسها ، والجو  
العام المحيط بشخصها والموحى بالنظام .. كل هذا محاذ هذه  
الفكرة تماما من ذهنى . وإذ كنت لا أزال فى شك من حالى —

منذ زيارتي لبیت البقي « البادوانا » — فقد وسوست لنفسي بالخوف من أنني لم أكن في صحة تجعلني أهلاً لها ، واقتنعت كل الاقتناع بأن يقيني من هذا لم يكن زائفاً !

ولقد أهاجتني هذه الخواطر — التي جاءت في حينها المناسب — إلى الدرجة التي أبكتني . أما « جولينا » — التي كان هذا المنظر جديداً عليها ولا ريب ، في مثل تلك الظروف — فقد بهتت لحظة ، ولكنها بعد أن تمشت في أرجاء الحجرة ، ومرت أمام مرآتها ، أدركت الحقيقة ، كما أكدت لها عيناى أن هذا الأسى التهوسى لم يكن من النفور في شيء . ولم يكن مسيراً عليها أن تبرئني منه ، وأن تمحو الحياء الطفيف . ولكنني إذ هممت بأن انطرح متهاكاً على هذا النحر الذي بدا وكأنه كان يسمح للمرة الأولى — ليد رجل ونمعه بأن يمسه ، لمحت أنها لم تؤت سوى حلقة ئدى واحدة . وضربت جبتي براحتي ، وقرست ، فخيل إلى أنني أرى أن هذه الحلقة لم تكن على غرار الأخرى في الشكل . وإذا بي أنقب في ذهني عن تعليل لوجود حلقة شوهاء ، ولما رحت أقلب الفكر ، اقتنعت بأن لهذه الظاهرة علاقة بعيب طبيعي واضح . . وتجلى لى — كوضح النهار — أنني لم أكن أحتضن بين فراعى أجمل حسناء كان يوسمى أن أتصورها ، وإنما كنت أضمر نوعاً من المسخ . كنت أضمر نفاية الطبيعة ، والرجال ، والحب . وذهبت في غبائي إلى حد أن أحدثها من هذا العيب ، فطلقت الأمر — في البداية — على محمل الدعابة ، وقالت في مرجها وفعلت أشياء كانت كفيفة بأن تميتني هيأما ، ولكنها حين رأت بقية من قلق لم أقو على

إخفاؤها ، إذ بها تتخرج خجلا — في النهاية — فتمتدل ، وتسوى ثيابها . . ثم سارت — دون أن تنبس بكلمة واحدة — فجلست لدى نافذة مخدمها . ورغبت في أن اجلس إلى جوارها ، فغادرت مكانها وجلست على أريكة ، ثم نهضت بعد لحظة وتمشت في الحجرة وهي تزفر ، وقالت في لهجة قاسية ، مهينة : « جانييتو » . . دع النساء ، وادرس العلوم الرياضية !

وقبل أن أبرحها ، سألتها موعدا آخر كي التقاها في اليوم التالي ، فارجاته إلى اليوم الثالث ، وأردفت — وهي تبتمسم ابتسامة ساخرة — أنني ولا بد بحاجة إلى الاستجمام . وقضيت هذا الوقت متوكم المزاج ، ملء القلب بمفاتها وحسنها ، شاعرا بحماقتي ، لائما نفسي ، متحسرا على اللحظات التي أسأت استغلالها — والتي كان في يدي ، أنا وحدي ، أن أجعلها أمذب لحظات حياتي — مترقبا بأشد ألوان نفاذ الصبر اللحظات التي أستطيع فيها أن أموض ما فائتي . . ولكنني ظلت — مع ذلك — قلقا بالرغم من نفسي ، لا أدري كيف أوفق بين مفاتي هذه الفتاة الرائعة ، وبين فحش حالها . . وهرعت ، بل طرت إلى دارها في الموعد المحدد . ولست أدري أكانت هذه الزيارة خليفة بأن تضاعف من إرضاء طباعها الحادة . . كان غرورها — على الأقل — قميئا بأن يجد في الزيارة عملا يتملقه ، ومن ثم رحت أستمتع — سلما — بغبطة ما كنت أعتزمه من أن أريها ، بكل الوسائل ، أنني كنت أعرف كيف أصلح أخطائي . ولكنها أعلقتني من هذا العناء . فان نوتى الجندول — الذي أوفدته إلى دارها ، عندما رسونا — عاد إلى بنيا رحيلها في اليوم السابق

إلى ( فلورنسا ) . وإذا كنت لم أشعر بمدى حبي لها عندما كانت بين ذراعي ، فقد شعرت به في قسوة إذ فقسدتها . . . ولم يفارقني قط ندمي المهتاج . . . ولقد استطعت أن أتعزى عن مقدها — وهي التي كانت موفورة اللطف وموفورة الفتنة في حينى — ولكنى أعترف بأننى لم أستطع البتة أن أهون على نفسى الفكرة التي راودتني من أنها لم تحمل معها عنى سوى ذكرى مهينة زرية !



هاتان هما قصتاي الوحيدتان ، فان الشهور الثمانية عشر التي قضيتها في البندقية لم تخلف لى مزيدا أرويه ، اللهم إلا غراما لم يتجاوز أن يكون مجرد . . . مشروع ! فلقد كان « كاريو » مشغوقا بالنساء ، وقد سئم الذهاب دائما إلى دور مكبات كن على علاقات بسواه ، فساورته نزوة أن تكون له بدوره عشيقة . ولما كنا لا نفترق ، فقد اقترح على مشروعا لم يكن نادر المثال في البندقية : أن نقتنى فيما بيننا عشيقة ! . . . ولقد وافقت على ذلك ، وبقي أن يجد غانية نطمئن إليها . . . ويحث كثيرا ، حتى اهتدى إلى فتاة صغيرة ، فيها بين الحادية عشرة والثانية عشرة من العمر ، كانت أمها الخسيسة تسعى لكى تبيعها . وشاهدناها معها ، فاهتز قلبي إشفافا إذ رايت تلك الطفلة . . . كانت شقراء ، وادعة كالجمل ، لا يظن من يراها أنها إيطالية . وكانت نفقات المعيشة في ( البندقية ) زهيدة ، فأعطينا الأم بعض المال ، وتكفلنا بأن نعول الفتاة . وكان لها صوت رخيم ، فوهبناها معزفا صغيرا ، واستأجرنا لها مدرسا ليلقنها الغناء ، كى نهيبه .

لها وسيلة للعيش وكان كل هذا لا يكاد يكلف كلا منا قطعتين من  
 فئة « السيكان » في الشهر ، وقد كان كفيلا بأن يوفر علينا  
 نفقات أخرى . ولكنه كان بمثابة البذر الذي لن يؤون حصاده  
 إلا بعد امد طويل ، إذ لم يكن ثمة بد من أن ننتظر حتى تنضج  
 الفتاة . . . على أننا كنا قانعين بأن نتردد على الدار (١) ،  
 فنقضى امسياتنا في لعب وثرثرة بريئين مع هذه الصبية ، فننعم  
 بلهو قد يكون أنسب وأفضل مما كنا نحظى به لو أننا نلنا منها  
 وطرا . . . وكم هو صحيح أن أشد ما يجذبنا إلى النساء لا يمت  
 إلى الفسق بقدر ما يمت إلى لون خاص من المتعة يستمد من  
 الاقامة بالقرب منهن . . . ولقد تعلق قلبي بالصغيرة « انجوليتا »  
 في شغف جنسوني ، ولكن هذا الميل كان ابويا . . . ولم يكن  
 لشهواتي أثر يذكر في ذلك ، فبقدر ما أخذ حبي ينمو ، راح  
 احتمال السماح لهذه الشهوات بأن تكون ذات سلطان عليه  
 يتضاءل . . . وكنت أشعر بأنني خالق بأن استبشع أن أمس هذه  
 الفتاة — إذا ما أدركت سن البلوغ — كما لو أن هذا العمل كان  
 ماحشة مرفوعة . . . وكنت أرى مشاعر كاريو الطيب تتخذ عين  
 الاتجاه ، دون أن يعطن . . . كنا قد دبرنا لأنفسنا — دون أن نتكبد  
 عناء التفكير في الأمر — متعا لا تقل عذوبة عن تلك التي كنا  
 قد فكرنا فيها من قبل ، وإن اختلفت عنها . واني لوائق من أننا  
 كنا زاعمين بأن نظل حاميين للفتاة ، لا مفسدين لها ، مهما كان  
 يحتمل أن يصير إليه جمالها إذا ما كبرت . على أن نكتبني (٢)

(١) كانت الصبية تنعم مع أمها ، ويكمل روسو وصديقه بنفقاتها .

(٢) يقصد خلاله مع السليخ ومبارحته البلدية .

وقعت بعد ذلك بقليل ، فلم تدعنى اساهم فى هذا العمل الطيب ، ولم يعد لى من نصيب فى هذه المسألة اللهم إلا ميول قلبى . . فلنعد الآن إلى رحلتى :

كان أول ما فكرت فيه بعد مغادرتى دار السيد دى مونتيجى ، هو أن أعود إلى ( جنيف ) ، أملا فى أن تؤدى بعض الظروف السعيدة إلى إزاحة العقبات وتمكينى من الانضمام إلى « ملما » المسكينة (١) . ولكن الضجة التى أحدثها شجارى مع السفير ، وحماسته التى حملته على الكتابة عن ذلك إلى البلاط ، جعلتانى أقرر الذهاب إلى البلاط بنفسى لأقدم حساسيا عن مسئلى ، ولأرفع شكواى ضد هذا الرجل المجنون . وكتبت إلى السيد دى « تييل » - القائم بالشئون الخارجية مؤقتا ، عقب وفاة السيد « اميلو » - عن قراره ، ثم بارحت البندقية فى أعقاب رسالتى مبائرة ، فأتخذت طريقى مارا ببيرجامى ، و ( كومى ) ، و ( دومو دوسولو ) - وعبرت ممر ( سيمبلون ) . وفى ( سيون ) ، أبدى لى السيد دى « شينيون » - القائم بأعمال فرنسا - ألف مظهر من مظاهر الود . وكذلك فعل السيد ديلا كلوزير ، فى ( جنيف ) . وهناك ، جددت التعارف مع السيد دى جوفكور ، الذى اضطررت لأن أتقبل منه بعض المال . واجتزت ( نيون ) دون أن أرى أبى ، ولم يكن هذا العمل ليعيننى من ألم قاسى اختلج به فؤادى ، ولكنى لم أكن أملك أن أحمل نفسى على أن أظهر أمام زوجة أبى ، بعد ما أصابنى من سوء الطالع ، إذ كنت

(١) يقصد مدام دى لاوران نطعنا .

موقنا من أنها ستلقى الذنب على دون أن تسمع قولى . ولقد  
لامنى «دوفيار» الكتبى — وكان صديقا حميما لأبى — على هذا  
الخطأ لوما شديدا ، فذكرت له السبب . ولكى نصلح الخطأ ،  
استأجرت محفة ورحلنا معا إلى ( نيون ) ، فهبطنا فى فندق .  
وانطلق «دوفيار» بحثا عن أبى ، الذى لم يلبث أن جاء مهسرا  
فاحتضنتى . . وتناولنا العشاء معا . وبعد أن قضينا سهرة  
كانت جد ممتعة لفؤادى ، عدت فى صباح اليوم التالى إلى  
( جنيف ) مع دوفيار ، الذى ظللت دائما أذكر له بالمرفان ،  
ما بذله من فضل فى هذه المناسبة !



ولم يكن طريق ( ليون ) هو أقصر الطرق لغايتى ، ولكنى  
رغبت فى أن أمر بالمدينة ، لأتحرى عن حيلة خسيصة من حيل  
السيد دى مونتيجى . إذ أننى كنت قد اجتلبت من باريس  
صندوقا صغيرا ضم صديرية وثبيت حوائها بالذهب ، وبضعة  
أزواج من أساور الأقمصة المزركشة ، وستة أزواج من الجوارب  
الحريرية البيضاء ، ولا شئ أكثر من ذلك . واستجابة لاقتراح  
عرضه على السيد دى مونتيجى نفسه ، ضمنت هذا الصندوق  
— أو بالأحرى ، هذه العلبة — إلى متاعه . ولكنه فى كشف  
حساب الصيدلى — الذى أراد حملى على قبوله فى مقابل مرتبى ،  
والذى كتبه هو بيده — ذكر أن هذه العلبة ، التى أسماها  
«طردا» ، كانت تزن أحد عشر قنطارا ، وتقاضانى لذلك عن  
نقلها أجرا هائلا . واستطعت التحقق — بفضل السيد  
بوى ديلا تورا ، الذى أوصاه بى السيد روجان خاله — من سجلات

جھارك ليون ومارسيليا ، أن «الطرد» المزعوم لم يكن يزن سوى خمسة وأربعين رطلا ، وأن أجر النقل لم يدفع إلا عن هذا الوزن . وقد أضفت هذا البيان الرسمي إلى ذكريات السيد دي مونتيجي . وعدت إلى باريس مزودا بهذه الوثائق وبكثير من أمثالها ، وأنا متلهف على استغلالها . ولقد صادفت - خلال هذه الطريق الطويلة - مفسمات صغيرة في (كومي) ، باقليم (غاليه) ، وفي بقاع أخرى . ولقد رأيت - فيما رأيت - جزر (بوروميه) التي كانت جديرة بأن توصف . ولكن الوقت كان يمر سراعاً ، وكان الجواسيس يضيقون على النطاق ، ومن ثم فقد كنت مضطراً إلى أن أنجز - في سرعة وبأسوأ حال - رحلة كانت تتطلب سبعة من الوقت والطمانية ، الأمر الذي كان يعوزني . وإذا قدر للعناية أن ترعاني وأن تتيج لي - أخيراً - أياماً أكثر سكوناً وطمانينة ، فليسوف أخصص هذه الأيام لإعادة صوغ هذا المؤلف - إن استطعت - أو لأضيف إليه جزءاً مكملًا ، أشعر بأنه محتاج إليه كل الاحتياج (١) .

وكان ضجيج قصتي قد سبقني ، فما أن وصلت إلى باريس حتى الغيت كل امرئ - سواء من الرسميين أو من العامة - قد استنكر حقايق السفر . وبالرغم من هذا ، وبالرغم من صيحة الرأي العام في البندقية ، وبالرغم من الأدلة غسيرة المدحوضة التي قدمتها ، فأنني لم أستطع أن أظهر بالانصاف . . . بل إن الأمر لم يقتصر على أنني لم أفر بإرضاء ولا بتعويض ،

(١) عقب «روسو» على ذلك بقوله (٢) «ولقد عدلت الآن من هذا المشروع» .

وإنما تركت — فوق هذا — تحت رحمة السفير ، فيما يتعلق  
بمرتبي ، وذلك لمجرد أنني لم أكن فرنسيا ، فلم يكن لي الحق  
في أن أستجير بالدولة ، ومن ثم فقد كانت المسألة شخصية ،  
لا تخص سوانا نحن الاثنين ! .. كان كل امرئ يقرنى على  
أننى أهنت وأوذيت ونكبت ، وعلى أن السفير كان معتوها ،  
فاسيا ، ظالما ، وأن المسألة كلها كانت عارا باقيا له . ولكن ،  
ماذا بعد كل هذا ؟ .. لقد كان هو السفير ، أما أنا فلم أكن  
سوى السكرتير .. وكان النظام الصالح — أو ما يطلق عليه  
هذا الاسم — يقتضى ألا أنال أى انصاف ، فلم أقل شيئا  
منه ! .. ولقد خيل إلى أننى بالشكايات المستمرة ، وبإظهار  
هذا الاحمق أمام الملا بما كان يستحق أن يظهر به ، قد أستطيع  
أن اضطرهم إلى أن يطلبوا إلى أن أعقل لسائى ، وهو عين  
ما كنت أرتقبه ، إذ أننى كنت قد صممت على ألا أطيع حتى أظفر  
بالانصاف . بيد أنه لم يكن ثمة وزير للخارجية إذ ذاك . ولقد  
تركت أصرخ ، بل أننى لقيت تشجيعا على ذلك ، ووجدت من  
ردد صراخى ، ولكن القضية ظلت دائما عند هذا الحد ، حتى  
سئمت — فى النهاية — أن أظل دواما على حق دون أن أنال  
إنصافا ، فثبطت عزيمتى ، وبقيت على حالى !

وكان الشخص الوحيد الذى أساء استقبالى ، والذى كان  
أقل الناس إنصافا لشكايتى ، هى السيدة دى بوزينفال . فقد  
كانت لغرط اعتزازها بالامتيازات المترتبة على الجاه وسمو  
المكانة ، لا تملك أن تفهم أن من الممكن لسفير أن يسئ  
إلى سكرتيره . وقد كان مسلكها فى استقبالى مطابقا لهذه

النعرة الباطلة . ولقد غاظنى هذا ، حتى أننى كتبت إليها — بعد مبارحتى دارها — خطابا لعله أشد وأعنف خطاب كتبته فى حياتى ، ولم أذهب إلى دارها بعد ذلك قط ! . . ولقد أكرم الأب كاشيل وفادتى ، ولكننى لمحت — خلال تملقه الجزويتى — أنه كان يتبع فى أمانة مبدأ من أعظم مبادئ المجتمع . . . ذلك هو: التضحية دائما بالأضعف من أجل خاطر الأقوى ! . . ولكن شعورى المتأجج بعدالة قضيتى ، وكبريائى الفطرية ، لم يدعانى أطيق هذا التحيز صابرا . فكففت عن زيارة الأب كاشيل ، وبالتالى زيارة الجيزويتيين الذين لم أكن أعرف من بينهم سواه ! . . وإلى جانب هذا ، فإن روح الجور والدس لدى زملائه ، كانت تختلف من صلاح الأب هيميه الطيب ، مما جعلنى أشعر بغفور من اجتماعهم ، حتى اننى — منذ ذلك الحين — لم أر أحدا منهم ، اللهم إلا الأب بيرثيه ، الذى قابلته مرتين أو ثلاثا لدى السيد دويان ، إذ كان يعمل معه بكل ما فى وسعه على تنفيذ آراء مونتسكيو !

فلنختتم — إلى غير رجعة — ما بقى لدى من قول عن السيد دى مونتيجى ! . . لقد كنت أقول له — فى منازعاتنا — إنه لا يليق به أن يستخدم سكرتيرا ، وإنما الأليق به أن يستخدم أحد كتبة المحامين . ولقد أخذ برأى هذا ، واستخدم — كخليفة لى — كاتب محام حقا ، فلم يلبث أن سرق منه ، فى أقل من عام ، عشرين ألف أو ثلاثين ألف لييرة . ولقد فصله وزج به فى السجن ، وفصل مستشاريه فى عاصفة من الفوضىحة والتشهير ، وتشاجر فى كل مكان ، وتلقى من الإهانات ما كان

الخدم يربا بنفسه أن يتلقاه ، وانتهى — بفضل حماقاته — إلى أن استدعى ، وفصل من منصبه وأقصى إلى الريف ! . . . وكان من الواضح أن مسألتى لم تكن منسية بين المسائل التى وجه إليه اللوم بشأنها فى البلاط . وعلى أية حال ، فقد أوفد إلى — بعد قليل من اعتزاله العمل — وكيل أعماله كى يسوى حسابى ويدفع لى نقودى ، التى كنت فى حاجة ماسة إليها ، إذ كانت ديونى فى (البندقية) ، ديون شرف — إذا جاز أن نسميها كذلك يوما — وكانت تثقل قلبى بهم . فانتهزت الفرصة لتسديدها ، بما فى ذلك سند « جانيتو نانى » . ومن ثم أخفت ما قدم لى ، ودفعت كل ديونى . ومع أن هذا خلفنى معدما — كما كنت من قبل — إلا أننى تخففت من عبء كان قد أصبح أثقل من أن أحمله . ومنذ ذلك الحين لم أسمع كلمة عن السيد دى مونتيجى حتى موته ، الذى علمت به من صوت الشعب (١) . . . فليرحم الله هذا الرجل المسكين ! . . . لقد كان فى صلاحيته لمهنة السفير لا يفضلى فى صلاحيتى — فى صباى — لمهنة المحاماة (٢) . على أنه كان فى يده — هو وحده — أن يسلك مسلكا شريفا فى الاستعانة بى ، وأن يكفل سرمة ارتقائى إلى المنصب الذى كان الكونت دى جوفون قد رسم لى الطريق إليه — فى صباى — والذى استطعت بالاعتماد على نفسى فقط أن أصل إليه فى سن متقدمة !

(١) يقصد الصحافة .

(٢) ذكر روسو فى الكراسة الأولى من اعترافاته أن أباءه كان يريدون على أن يكون محاميا ، ولكنه لم يفلح فى فترة التدريب .

ولقد خلفت عدالة شكائتي ، وعدم جدواها ، بذور السخط في نفسي على نظمنا المدنية الحمقاء ، التي تضحي بفضلها المصلحة العامة والعدالة الحقّة ، لغير ما مصلحة واضحة أمرها . بل إنها لتهدم فعلا كل نظام ومصلحة ، ولا تؤدي إلا إلى أن تخلع شرعية السلطة العامة على ما ينال الضعيف من ظلم ، وما يبدية القوى من جور . . . ولم يمنع هذه البذور من أن تنمو إذ ذاك — كما ترمرمت فيما بعد — سوى أمرين : أولهما أن المسألة كانت شخصية لا تتعلق بسواي ، والمصلحة الشخصية — التي لم تؤد قط إلى أي شيء عظيم أو نبيل — لا يمكن أن تنتزع من قلبي قط تلك الخبثات القدسية التي لا يمكن لغير أنقى حب للعدالة والجمال أن يثيرها فيه . . أما الثاني فهو سحر الصداقة الذي سكب على غضبي شعورا ناعما خفف من حدته وهدأ من سوريته . إذ كنت قد تعرفت في البندقية على شخص من أبناء منطقة خليج (بسكاي) ، كان صديقا لصديقي كاريو ، وكان جديرا بصداقة كل رجل شريف . وكان هذا الشاب اللطيف — الذي أوتي كل المواهب وكافة الفضائل — قد شرع في جولة في ربوع إيطاليا ، لينمي في نفسه الميل إلى الفنون الجميلة . وإذ خيل إليه أنه لم يعد ثمة مزيد يحصله ، هم بالعودة إلى وطنه مباشرة ، فأخبرته بأن الفنون ليست سوى مجرد تسلية لعبقري مثله خلق لكي ينمي العلوم . وأشرت عليه بأن يرحل إلى باريس ، فيقضي فيها ستة أشهر في سبيل ذلك .

وقد صدقتني وأخذ بنصيحتي ، ومن ثم فانه رحل إلى باريس . . وكان في انتظاري عندما عدت إليها . . وكان

مسكنه أكثر اتساعاً من حاجته ، فعرض على أن اشاطره إياه ، وقبلت . وقد وجدته مليئاً بالتحمس لفروع المعرفة العليا . ولم يكن من شيء يسمو على قوى إدراكه ، فكان يستوعب ويهضم كل شيء بسرعة تدعو إلى العجب . ولكم شكر لى أن هديته إلى هذا الغذاء لعقله الذى كان يتحرق ظمأ إلى المعرفة ، دون أن يدري كنه هذا الظما ومبعثه . . . أية كنوز غنية بالأنوار والفضائل وجدتها في هذه النفس القوية ! . . لقد شعرت بأنه الصديق الذى كنت أصبو إليه ، فغدونا وثيقى الصلة . ولم تكن مشاربنا واحدة ، فكنا دائماً في جدال . . ولم نكن نتفق قط على أمر واحد ، إذ كان كل منا عنيداً . ومع ذلك فقد كنا لا نطيق غرقاً . ومع أننا كنا نتعارض دون انقطاع . إلا أن كلا منا لم يكن يتمنى أن يكون الآخر غير الذى كانه !

كان « ايناسيو ايمانويل دى التونا » من أولئك الأفراد النادرين ، الذين لا تنجيبهم سوى أسبانيا ، وقلما تستأثر بهم من أجل مجدها الخاص . ولم تكن له تلك النعرات القومية العنيفة ، المألوفة لدى قومه ، كما أن فكرة الثار كانت من البعد عن ذهنه بمثل ما كانت الرغبة فيه بعيدة عن قلبه . وكان أسمى نفساً من أن يحقد ، وكثيراً ما سمعته يقول في هدوء مفرط ، إنه ليس في وسع الإنسان الفانى أن ينال منه . وكان ميالاً إلى النساء في غير لين أو ضعف ، فكان يلاعب النساء وكانهن أطفال صغار . . وكان يلهو مع عشيقات أصدقائه ، ولكنى لم أر له يوماً عشيقة قط ، ولا عرفته يشتهي أن تكون له واحدة . كانت نيران الفضيلة المتأججة في قلبه لا تدع مجالاً قط للواهج الشهوة !

ولقد تزوج هذا الشاب مقب أسفاره ، ومات في ريعان الشباب ، مخلصا أطفالا . واني لأومن — ايماني بوجودي — بأن زوجته كانت المرأة الأولى ، والوحيدة ، التي أذاقته ملاذ الحب ! . . ولقد كان في ظاهره تقيا كأي أنساني آخر ، أما في باطنه لمكانت تقواه كتنقوى الملائكة . وفيها مدأي ، كان هو الشخص المتسامح الوحيد الذي رأيته في حياتي ، فما سألت أمرا من آرائه الدينية ، وما كان ليعنيه كثيرا أن يكون صديقه يهوديا ، أو بروكستانتيا ، أو تركيا (١) ، أو متعبدا ، أو زنديقا ، ما دام هذا الصديق أمينا شريفا . وبقدر ما كان عنيدا ، جامد الرأس إزاء آراء ضئيلة الأهمية ، فانه كان يتراجع بمجرد أن يتحول الجدل إلى الدين ، أو حتى إلى الأخلاق ، وكان يمسك لسانه ، أو يكتفي بأن يقول : « لست مسئولا إلا عن نفسي ! » . ومن الأمور التي تجل عن التصديق ، أن يقتنى الجمع بين سمو روحى كهذا وعقل يعنى بأدق التفاصيل . فقد كان يقسم يومه بالساعات ويحدد — مقدما — استخدام كل ساعة ، بل كل ربع ساعة وكل دقيقة ، ويتبع هذا التقسيم بدقة بالغة ، إلى درجة أنه كان — إذا دقت الساعة وهو في منتصف إحدى العبارات — يغلظ الكتاب دون أن يتم العبارة ! . . وكان بين كل هذه الأقسام — التي اعتاد أن يقسم إليها يومه — ما هو مخصص للدرس ، وما هو للتعامل ، وما هو للحديث ، وما هو للعبادة ، وما هو لقراءة مؤلفات « لوك » ، وما هو لتلاوة التسابيح ، وما هو للزيارات ، وما هو للموسيقى ،

(١) يستعمل « روسو » لفظة « تركى » كمرادف لاسلم .

وما هو للرسم . . ولم يكن لأى لهو ، أو أى إغراء ، أو أية مجاملة مجال للتدخل فى هذا النظام ، اللهم إلا إذا كان واجبا لا بد من أدائه ! . . وعندما أعطانى بيان تقسيمه الوقت — حتى أن أتبعه — طفقت أضحك ، حتى انتهيت بدموع الإعجاب ! . . ولم يكن يثقل على الغير إطلاقا ، ولا يحتمل أن يثقل عليه الغير ، وكان حازما مع أولئك الذين كانوا يحاولون مضايقته فى أدب . وكان حار المزاج ، ولكن فى غير عبوس . فكثيرا ما رأيته منفعلا ، ولكنى لم أره قط مغضبا . ولم يكن ثمة ما يفوق مرحه وبشاشته ، وكان ينصت إلى الفكاهة ويحب أن يتفكه ، وكان فى ذلك لامع البديهة ، أوتى موهبة فى قصائد الهجاء . فإذا ما استثاره أحد ، انقلب صارخا صاخبا ، حتى ليسمع صوته على بعد . . ولكن الابتسامة كانت تبرى على أساريره ، أثناء صياحه ، وكان — فى غمرة انفعاله — يطلق بعض الملح فيحمل الجميع على الضحك . ولم يكن بدين الجسم ، كما أنه لم يؤت سيماء الأسبانيين . . كانت بشرته بيضاء ، وخداه مهتلئين ، وشعره بنيا فاتحا ، يكاد يقرب من الصفرة ، وكذلك كان طويل القوام ، متين البنيان ، ذا جسد جدير بأن يأوى روحه !

هذا الشخص الذى أوتى قلبا يشبه رأسه حكمة وعقلا ، كان على بصيرة بالناس ، وقد كان صديقا لى . . وهذا كل ما أقول إن هو ليس من أصدقائى . ولقد تولقت صلتنا ، حتى لقد فكرنا فى أن نقضى ممرينا معا ، فأذهب — بعد سنوات — إلى ( أسكوشيا ) لأعيش معه فى ضيعته . ولقد دبرت جميع

أجزاء هذا المشروع - فيما بيننا - في اليوم السابق على رحيله .  
ولم يعد ينقصنا سوى ذلك الذي لا يملكه الإنسان لنفسه في  
مشروعاته ، مهما يحسن تدبيرها . . فلقصد قدر للأحداث بعد  
ذلك - وأعني مصائبى ، وزواجه ، وموته في النهاية - أن تفرق  
بيننا إلى الأبد ! . . وما أجدر المرء بأن يقول إنه لا نجاح إلا  
للخطط السوداء التى يدبرها اللئام . . أما المشروعات البريئة  
التي يدبرها الطيبون ، فإنها لا تكاد تتحقق قط !



ولما كنت قد تنوقت متاعب العمل في خدمة الغير ، فقد  
عقدت العزم على ألا أعرض نفسى لذلك مرة أخرى . ذلك  
أننى رايت أن خططى الطموحة التى أغرتنى الظروف بتدبيرها  
كانت تنقلب رأسا على عقب بمجرد مولدها ، وثبطت رغبتي  
في العودة إلى مهنة بدأتها بمثل هذا النجاح ، ولكننى - رغم  
ذلك - طردت منها . . ومن ثم فقد آليت على نفسى ألا التحق  
ثانية بخدمة أحد ، وأن أظل مستقلا ، فاستغل مواهبى التى  
كنت قد بدأت - أخيرا - أقدر مداها ، والتى كنت - حتى  
ذلك الحين - لا أنظر إليها إلا فى تواضع . لذلك استأنفت  
العمل فى « الأوبرا » التى كنت قد انصرفت عنها نظرا لرحيلى  
إلى ( البندقية ) . ولكى أفرغ إليها فى أقصى همدوء ممكن -  
مقب رجيل « التونا » ، فقد عدت إلى الإقامة فى فندقى  
القديم - « سان كينتان » - الذى كان يقع فى حى منعزل ،  
يبعد قليلا عن ( لوكسمبورج ) ، فكان لذلك أكثر ملاءمة -  
لتمكينى من العمل فى همدوء - من المسكن القائم فى شارع

( سانت أنوريه ) الصاخب . وهناك وجدت في انتظاري السلوى الحقيقة التي أذاقنيها السماء في شقوتي ، والتي كان لها وحدها فضل تمكينى من أن اتحمل تلك الشقوة . ولم تكن هذه السلوى معرفة عابرة ، ومن ثم فلا بد لى من الإقدام على بعض الاسهاب في بيان الطريقة التي نشأت بفضلها .

فلقد أوتينا في الفندق مضيعة جديدة من ( أورليان ) ، اختارت للعناية بالغسيل فتاة من بلدها ، فيما بين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين من عمرها ، كانت تتناول الطعام معنا ، ثباتها في ذلك شأن المضيعة . وكانت هذه الفتاة — المسماة تيريز لافاسير — من أسرة طيبة ، فقد كان والدها مراقب العملة في أورليان ، وكانت أمها تاجرة . وكان الأبوان كثيرى العيال . ولما كفت دار سك النقود — في أورليان — عن العمل ، وجد الأب نفسه على قارعة الطريق ، بلا عمل . . في حين أن الأم أفلس ، وتخبطت في أعمالها ، وانتهت إلى التخلي عن تجارتها ، فجاءت إلى باريس مع زوجها وابنتها التي أخذت تعمل ثلاثتهم من عملها !

وعندما رأيت هذه الفتاة على المائدة للمرة الأولى ، أخضت بمسلكتها المحتشم . وزادتنى دهشة نظراتها الوثابة اللطيفة ، التي بدت لعينى — إذ ذاك — نادرة المثال . وكانت الثلة التي تجتمع حول المائدة تضم — إلى جانب السيد دى بونفون — عدة من القساوسة الأيرلنديين والجسكوثيين ، وبعض أفراد آخرين على شاكلتهم . وكانت مضيفتنا نفسها زعيمة الفوضى في حياتنا ، في حين أننى كنت الوحيد الذى اعتاد أن يتكلم وأن

يتصرف في وقار واحتشام . ولقد عاكسوا الفتاة المسكينة ، فتوليت الدفاع عنها ، فإذا بالسآخرين ينقلبون على . ولو أنني لم أحس بميل طبيعي نحو الفتاة المسكينة ، لكان الشعور بالاشفاق ، بل والمعارضة ، كفيلا بأن يخلق هذا الميل ، فقد كنت أعجب بالاحتشام في الأقوال والأفعال ، لا سيما لدى الجنس الآخر . ومن ثم غدوت جهارا نصير الفتاة . ورأيت أنها قد تأثرت بعطفى ، وأن نظراتها أخذت تطنح بعرفان لم تكن تجرؤ على البوح به ، مما كان يزيدنى لباقة وطلاقة لسان!

ولقد كانت شديدة الخجل ، وكذلك كنت أنا . وسرعان ما نمت الرابطة التى لاح أن هذا التشابه في الطباع كان خليقا بأن يعوقها ! .. وأهاج ذلك مضيعة الفندق — إذ لاحظته — فإذا بمسلكها الفظ يزيد من تطور علاقائى مع الصغيرة التى لم يكن لها سوى نصير في الدار ، ومن ثم فأنها كانت ترمقنى في أسى إذا خرجت ، وتتهد في ارتياح إذا ما عاد حاميا . .. وما لبثت تجاوب قلبينا وتشابه طباعنا أن أحدثا أثرهما المعتاد . .. فقد خيل للفتاة أنها رأت في شخصى رجلا شريفا ، ولم تكن مخطئة في ذلك . . . ولقد خيل إلى أننى أرى فيها فتاة مرهفة الحس ، بسيطة ، خالية من الخلاعة ، ولم أكن — بدورى — مخطئاً في ذلك ! .. ولقد أثبتتها — منذ البداية — بأننى لن أهجرها قط ، ولن أتزوجها إطلاقاً ! .. وكان الحب ، والاحترام ، والاخلاص الصادق هم رسل فوزى ، وذلك لأن قلبها كان رقيقا ، أميناً ، مما جعلنى سعيداً دون ما حاجة إلى أن أكون جريئاً !

ولقد أدى خوفها من أن استاء إذا لم أجسد لديها ما كانت

تعتقد أنني أنشده ، إلى تأخير هنائي أكثر من أي شيء آخر .  
ورأيت أنها كانت مضطربة مرتبكة قبل أن تسلمني نفسها ،  
مشوقة إلى أن تمكنني من أفهامها ، دون أن تجرؤ على الإيضاح  
بنفسها . وإذا كنت بعيدا من أن أحسس السبب الحقيقي  
لحرجها ، فأننى عزوته إلى سبب جسد خاطيء ، وجسد مهين  
لشخصها وأخلاقها . فقد اعتقدت أنها كانت ترمى إلى أن  
تنبهنى إلى أن صحتى قد تتعرض للأخطار ، وأوقعنى هذا في  
كثير من الحيرة ، التى لم تصدنى منها ، ولكنها سميت هنائي  
أياماً عديدة . وإذا عز على كل منا أن يفهم الآخر ، فإن أحاديثنا  
في هذا الصدد كانت الغازا وأحاجى تدعو إلى أكثر من الضحك ،  
حتى لقد كانت الفتاة موشكة أن تظننى معتوها ، كما أنني كنت  
لا أكاد أعرف لنفسي رأيا فيها . وأخيرا تصارحنى . واعترفت  
لى — وهى باكية — بزلة وحيدة تعرضت لها وهى تغادر مرحلة  
الطفولة ، وكانت ثمرة جهلها ودهاء الشخص الذى أغواها .  
وما أن نهمتها حتى صحت فى اغتباط : « البكارة ! . . جميل أن  
ترتجى فى باريس ، وفى سن العشرين ! . . آه ! يا تيريزى ، أنني  
لجد سعيد بأن أحظى بك حكمة سليمة ، ولا أجسد نيك ما لم  
أكن أنشده ! » .



ولم أكن أسعى فى البداية لغير العبث ، ولكننى ما لبثت أن  
تبينت أنني وجدت أكثر من ذلك ، وأننى أوتيت زميلة ! . . فإن  
قليلاً من الألفة مع هذه الفتاة الرائعة ، وقليلاً من التامل فى  
موقفى ، جعلانى أشعر أنني — فى الوقت الذى لم أكن أكره فيه

في غير ملذاتي — قد خطوت خطوات كثيرة في تدعيم هنائي .  
 كان لا بد لي من عاطفة محتمة تحتل محل طموحي الخابي ،  
 فتملأ فؤادي . وقصاري القول أنني كنت بحاجة إلى خليفة  
 لما . . ولما كنت مضطرا إلى ألا أعاود العيش معها قط ،  
 فقد بات من المحتوم أن أبحث عن تعيش مع تلميذها ، وعن  
 أجد لديها من البساطة ورقة القلب ما كانت تجده لدى . وكان  
 لا بد لي من نعيم الحياة الخاصة واللغة المعاصرة ، لتعوضني عن  
 المهنة اللامعة التي كنت قد نبذتها . . كنت إذا ما خلوت بنفسي  
 وحيدا ، أشعر بقلبي خاويا ، لا يمكن أن يملأه سوى مخلوق  
 آخر . . وكان القدر قد حرمني من تلك التي خلقتني الطبيعة من  
 أجلها ، أو اقصأتني عنها على الأقل . ومن ذلك الحين ظلت  
 وحيدا ، إذ أنني لم أعرف في حياتي قط وسطا بين كل شيء أو  
 لا شيء (١) . ولقد وجدت في تيريز العوض الذي كنت بحاجة  
 إليه ، فعميت بفضلها سعيدا بقدر ما سمحت تطورات  
 الأحداث !

ورغبت — في البداية — في أن أشكل ذهنها ، فبددت في ذلك  
 جهودى ، إذ ظل ذهنها كما صاغته الطبيعة ، ولم يكن للثقافة  
 والتعليم تأثير عليه . ولست أخجل إطلاقا من أن أعترف بأنها  
 لم تتعلم البتة كيف تجيد القراءة ، وإن لم يكن ثمة بأس بكتابتها .  
 وعندما انتقلت للسكنى في شارع ( نيف ديه بيتى شساب ) ،

(١) يريد أن يقول أنه أحقاد أن يقال كل شيء ؟ أو ألا يقال شيئا على



ورفت — في البداية — أن اشكل ذهنها ، فبدت في ذلك جهودى إذ ظل  
ذهنها كما صاغته الطبيعة ، ولم يكن للثقافة والتعلم تأثير عليه .

كانت هناك — أمام نوافذى فى فندق بونشسارتران — ساعة اضطرت إلى أن اقضى أكثر من شهر فى تدريب تيريز على تعرف الوقت عليها . ومع ذلك مانها لا تكاد — حتى الآن — تحقق ذلك . ولم تستطع يوما أن تذكر أشهر السنة الاثنى عشر بترتيبها الطبيعي ، كما أنها لم تعرف رقما واحدا ، برغم كل العناية الذى تجشسته كى أعلمها الأرقام . فهى لا تستطيع أن تعد النقود ، أو أن تحسب ثمن أى شيء . . أما الكلمات التى تستخدمها فى الكلام ، فكثيرا ما تكون نقائص ما تريد قوله بالذات ! . . ولقد أمددت مرة قاموسا لتلك العبارات ، كى أسرى عن مدام « لوكسمبورج » ، فإذا أخطاؤها تضيع فى المجتمع الذى كنت أميش فيه . بيد أن هذه الفتاة كانت مستشارا رائعا فى المناسبات العصبية ، برغم ضيق عقلها إلى هذا الحد ، أو برغم غيابها إن شئتم ! . . وكثيرا ما كانت ترى فى المحن التى كنت أجدنى فيها — فى سويسرا أو إنجلترا أو فرنسا — ما لم أكن أراه أنا نفسى ، فكانت تمحضنى من النصيح خير ما ينبغى أن أتبع ، وكانت تنتزعنى من أخطار كنت أندفع إليها كالأعمى . . وفى حضور أرقى السيدات ، وفى محضر المعظماء والأمراء ، كانت مشاعرها وآراؤها الجيدة وإجاباتها ومسلكتها تنتزع لها التقدير العام ، وتجلب من التهاني — لطيف خصالها — ما كنت أشعر بصدقتها !

والعاطفة — فى قرب المحبوب — تغذى العقل كما تغذى الفؤاد ، فلا يعود لبسة داع للبحث عن الأسكار فى أى مكان آخر ! . . ولقد عشت مع تيريز فى خير ما كنت خليقا بأن أميش ( م ٧ - اعترافات - ج ٤ )

فيه مع أجمل عبقرية في الكون . ولقد حاولت أمها — التي كانت تفخر بأنها تربت في الماضي مع المركيزة دى مونبليو — أن تدمي رجاحة العقل ، ورغبت في أن تتكفل بتوجيه عقل ابنتها ، فأنسدت بحيلها بساطة تعاشرنا . ودفعني الغيظ من هذه المضايقة إلى أن أتغلب — بعض الشيء — على الحياء الأحمق الذي لم أكن أجرو معه على الظهور مع تيريز أمام الملاء ، فأصبحنا نقوم معا بنزهات قصيرة في الريف ، حيث كنا نتناول وجبات بسيطة كانت تلذ لي . ولقد تبينت أنها كانت صديقة في حبها إياي ، لمضاعف هذا من حنانى . ولقد عوضتني هذه الألفة الناعمة من كل شيء ، ولم يعد المستقبل يشغلنى ، أو بالأحرى أنه أصبح لا يشغلنى إلا كامتداد للحاضر ، إذ أننى لم أعدد اشتى سوى أن أطمئن إلى بقاء هذا الحاضر !

وأدت هذه العلاقة إلى أن أصبحت كل الملامى الأخرى نفايات عقيمة ، فلم أعد أأقدر مسكنى إلا لأذهب إلى تيريز ، ويات مسكنها مقربى تقريبا . ولقد صارت هذه الحياة المنعزلة عظيمة النفع لعملى ، حتى أن « الأوبرا » التي كنت عاكفا على تأليفها ، اكتملت — كلاما وموسيقى — في أقل من ثلاثة أشهر . ولم تبق سوى بعض الحان تكملية وبعض الحان لتصحح المناظر . وقد ضايقتنى هذا كثيرا ، فعرضت على « فيليدور » أن يتولاه في مقابل نصيب من الربح ، فجاء مرتين ، وأضاف بعض الحشو إلى الفصل الخاص بالشاعر « أوغيد » ، ولكنه لم يستطع أن ينصرف إلى هذا العمل — الذي كان يتطلب مثابرة — في مقابل ربح بعيد وغير مضمون . ومن ثم فإنه لم يعد ، واكملت عملى بنفسى .

وإذ اكتملت « أوبراى » ، آن لى أن أحصل من ورائها بعض الدخل، وكان هذا — فى حد ذاته — « أوبرا » أخرى ، أشد عناءا . . . فليس من سبيل إلى بلوغ غاية فى باريس ، إذا كان المرء يعيش فى عزلة . ولقد فكرت فى أن أستعين بالسيد ديلابولينيير ، الذى قدمنى إليه جوفكور فى داره ، عند عودتى من جنيف . وكان السيد ديلابولينيير هو نصير<sup>(١)</sup> رامو ، إذ كانت السيدة ديلا بولينير تلميذة هذا المتواضعة ، المتفانية فى الطاعة ، ومن ثم فقد كان « رامو » هو المطر والصحو<sup>(٢)</sup> فى هذا المنزل ، كما ينبغى أن يقال . . . ولقد ظننت أنه قد يفتبط بأن يساند عملا من ابتكار أحد تلاميذه ، فرغبت فى أن أريه مؤلفى ، ولكنه أبى أن يراه ، قائلا إنه لم يكن يستطيع أن يقرأ مقطوعات ، إذ أن هذا كان يتعبه كل التعب . وعقب لابولينير على ذلك بأن فى الوسع حمله على الإصغاء ، وعرض أن يجمع موسيقيين لأداء بعض القطع ، ولم أكن أرجو أفضل من هذا . . . ووافق « رامو » وهو يزمجر ، ودون أن يكف عن أن يردد أن الألحان التى يضعها رجل لم ينشأ فى جو موسيقى ، وإنما تعلم الموسيقى بنفسه دون ما عون ، لأبد وأن تكون شيئا بديعا . . . وأسرعحت أنسخ أدوار خمس أو ست من أحسن المقطوعات ،

(١) النصير المقصود هنا ، هو الرجل ذو الجاه والمال ، الذى يرمى أدبيا

أو فنانيا ويبلل له يد المون .

(٢) تعبير فرنسى معناه أن يكون الشخص ذا حظوة ومكانة ، بحيث يفضى

أهل البيت لغضبه ويسرون لسرويه . ويتأمله فى التعبير الدارج عندنا ما يقال من أن شخصا هو « الكل فى الكل » .

وتهباً لى اثنا عشر من العازفين ، بينما تولى الغناء البرت ،  
 وبيرا ، والآنسة بوردونيه . وما أن بدا لحن الافتتاح ، حتى رمى  
 « رامو » — باطنابه فى المديح — إلى الإحصاء بأن اللحن ما كان  
 ليكن أن يكون من تاليفى . ولم يدع مقطوعة تمر دون أن يبدى  
 امارات البرم ونفاد الصبر . ولكنه لم يلبث أن عجز عن تمالك  
 نفسه عند سماع أغنية بصوت « كونترتينور » — كان أداؤها  
 قويا محكما ، والموسيقى المصاحبة لها رائعة — فخطبني فى  
 خشونة ذهل لها الجميع مستنكرين ، وأعلن أن جزءا مما سمع  
 كان من عمل رجل أفنى فى الفن عمره ، فى حين أن الباقي من  
 عمل جاهل لم يكن على إلمام بالموسيقى ذاتها ! . . . ومن الصحيح  
 أن مؤلفى كان غير متناسق وعلى غير قاعدة ، ومن ثم فقد كان  
 رفيع القيمة فى بعض أجزائه ، وعقيا فى بعض آخر ، شأن  
 العمل الذى يقوم به كل امرئ لا يرقى بنفسه إلا بمعونة بعض  
 ومضات من العبقرية ، دون ما سند من العلم . وزعم « رامو »  
 أنه لم يكن يرى فى شخص سوى سارق صغير ، لم يؤت أية  
 موهبة ولا أى ذوق ! . . . ولكن العازفين ، ورب الدار — بوجه  
 خاص — لم يشاركوه رأيه . ولقد سمع السيد دى « رشيليو »  
 — الذى كان يكثر إذ ذاك من زيارة رب الدار ، والسيدة دى  
 بوبلينير ، كما هو معروف — بحديث مؤلفى ، فرغب فى أن  
 يسمع « الأوبرا » بأكملها ، معتزما أن يعمل على عرضها فى  
 البلاط إذا راقته له . ومن ثم مثلت « الأوبرا » — بكامل ما كانت  
 تتطلب من مغنيين وموسيقين — على نفقة الملك ، فى دار السيد  
 بونيفال ، الموكل بالحفلات الملكية . وقام « فرانكير » بالإخراج  
 . . . ولقد كانت النتيجة مدهشة ، حتى أن السيد الدوق دى

« ريشيليو » لم يكف عن الصياح والتصفيق . وفي نهاية أغنية  
جماعية — في الفصل الخاص بتاس — نهض وجاعنى فصافحتنى  
قائلا : « هذا هو اللحن الذى يشجى ، يا سيد روسو ! ..  
ما سمعت قط أجمل منه ، وإنى لأود أن أقدم هذه التحفة فى  
مرساى ! » . ولم تنبس السيدة دى بوبلينير — التى كانت  
حاضرة — بكلمة واحدة . أما « رامو » ، فبالرغم من أنه دعى ،  
إلا أنه لم يثأ أن يحضر .

وفى اليوم التالى ، استقبلتنى مدام بوبلينير — فى غرفة  
زينتها — استقبالا شديدا الجفوة ، وتعمدت أن تحط أمامى من  
شأن مؤلفى ، وقالت لى إنه بالرغم من أن بعض الوميض الزائف  
قد بهر السيد دى « ريشيليو » ، إلا أنه قد ثاب إلى نفسه ،  
ونصحتنى بالا أمول كثيرا على أوبرائى . . . وأقبل السيد  
الدوق بعد قليل ، فتحدث إلى بلهجة تخالف ذلك تماما ، إذ  
أطرى مواهبى ، وبدأ مصرا على أن يعمل على عرض مؤلفى على  
مشهد من الملك . وقال : « ليس هناك ما لا يمكن إجازته فى  
البلاط ، سوى الفصل الخاص بتاس ، فعليك أن تكتب فصلا  
غيره ! » . وكانت هذه العبارة وحدها حافزا دفعنى إلى أن  
أذهب إلى دارى ، فاحتبس نفسى . وفى غضون ثلاثة أسابيع ،  
استطعت أن أضع فصلا يحل محل فصل « تاس » ، وكان  
موضوعه « هيسود (١) يتلقى الإلهام من إحدى مرائس خياله » .

---

(١) هيسود : كان شامرا أفريقيا تناول الحياة بالبحث والتحليل ،  
بحكوا أن يضع دستورا أخلاقيا يكلل المحبة والسلام . وقد قدم « كتابى »  
— فى العدد ٥٥ — سيرته وملخصا لأعظم رسالاته : « الأيام والأعمال » .

واهتديت إلى طريقة خفية مكنتني من أن أدس في هذا الفصل قسطا من تاريخ مواهبى وقصة الغيرة التى راق لرامو أن يكرم بها هذه المواهب . ولقد كان في هذا الفصل الجديد سمو أقل جبروتا وأكثر تمسكا وإحكاما مما كان في الفصل الذى كان يدور حول « تاس » . وكذلك كانت الموسيقى أروع وأرقى ، ولو أن الفصلين الآخرين كانا معادلين لهذا ، لقدّر للأوبرا أن تعرض بنجاح . بيد أن مشروعا آخر عرض لى - فيها كنت أقوم بصقل الفصل وتنقيحه - فارجأت أداء هذه المسرحية !

### من سنة ١٧٤٥ إلى سنة ١٧٤٧

أقيمت في ( غرساي ) - في الشتاء الذى أعقب معركة دى فونتينو - حفلات كثيرة ، كان بينها عدة أوبرات عرضت في مسرح الـ « بيتيت ايكورى » . وكان بين هذه مسرحية فولتير ، التى كانت تحمل اسم « أميرة نافار » ، والتى نظم رامو موسيقاها . وقد عدلت وبدا اسمها إلى « أعياد رامير » . وقد تطلب تغيير الموضوع عدة تحويرات في الأغاني والرقصات التى كانت في « الدراما » السابقة ، سواء من حيث التركيب الشعرى أو التركيب الموسيقى . واستدعى هذا البحث عن شخص يؤدى هذه الغاية المزوجسة ، إذ أن فولتير كان - إذ ذاك - في ( اللورين ) ، وكذلك كان رامو . وكانا منهيكين معا في أوبرا « معبد المجد » (١) ، فلم يكن في وسعهما أن يعنيا بالتحويرات المنشودة . ومن ثم فإن السيد دى ريشيليو تذكرنى ، وعرض

على أن أقوم بالمهمة . . ولكي أحسن تبين ما ينبغي عمله ، أرسل إلى كلا من الشاعر والموسيقى على حدة . ولم أشأ - قبل كل شيء - أن أمس الفاظ المسرحية دون موافقة المؤلف ، فكتبت إليه في هذا الصدد ، رسالة جد أمينة ومحترمة - في الوقت ذاته - ونقلا لما كان يتطلبه الظرف . وها هو ذا رده ، الذي يوجد الأصل الخطي له ، في ملف الأوراق « ١ » ، رقم (١) :

« ١٥ ديسمبر سنة ١٧٤٥ .

« إنك لتجمع يا سيدى بين موهبتين كانتا - حتى اليوم - منفصلتين دائما . وهما سببان كافيان لحملى على أن أقدرك وأن أسعى إلى أن أحبك . وإنتى لفى هم من أجلك ، إذ تستخدم هاتين الموهبتين في عمل غير جدير بهما كل الجدارة . فمنذ بضعة أشهر ، طلب إلى السيد الدوق دى ريشيليو - طلبا جازما - أن أعد ، في لمح البصر ، مسودة صغيرة غير دقيقة ، لبضعة مناظر تافهة وناقصة ، تتمشى مع أغسان ورقصات لا ثلاثها إطلاقا . وقد صدمت برغبته بخذايرها ، ورجت أعمل في سرمة فائقة ، ودون ما إجادة . ثم أرسلت هذه المسودة التعسة إلى السيد الدوق دى ريشيليو ، وأنا موثق من أنه لن يستخدمها ، ومن أنتى لن اضطر إلى تصحيحها . ولحسن الحظ أنها بين يديك ، فلك أن تفعل بها كل ما تشاء ، إذ أنتى قد أقصيتها تماما عن ذهنى . ولست أرتاب في أنك ستفتح كل الأخطاء التى لا بد من أن تكون قد أفلتت منى في تعجل تأليف التصميم البسيط ، ن إنك قد ملأت كل نقص !

« وإننى لأذكر أن من السهوات التى تتم عن طيشى ، أننى نسيت أن أوضح فى هذه المناظر — التى تربط بين الأغانى والرقصات — كيف تنتقل الأميرة نجاة من سجن إلى حديقة أو قصر . وإذا لم يكن الشخص الذى أقام الحفلات لتكريمها ساحرا ، وإنما كان سيذا إسبانيا ، لذلك يبدو لى أنه لا ينبغي أن ندع للسحر مجالا . فأرجو أن تتكرم يا سيدى بإعادة النظر فى هذا الجزء الذى لا أحتفظ له بأكثر من فكرة مهتزة . وأنظر ما إذا كان من الضرورى أن تفتح أبواب السجن ، وأن تنقل أميرنا من هذا السجن إلى قصر جميل مذهب ومصقول ، يعد من أجلها . . . إننى لأعرف تمام المعرفة أن الأمر كله زرى للغاية ، وأنه ليس مما يليق بأى كائن مفكر أن يحمل هذه التفاهات على حامل الجذ ، ولكن . . . بما أن علينا ألا نُسبب من الأشياء إلا أقل ما استطاع ، فمن الواجب أن نبذل من العقل قدر المستطاع ولو كان ذلك فى أوبرا غنائية راقصة رديئة .

« إننى أدع لك وللسيد بالوكل شيء ، وأعتقد أننى لن ألبث أن أتشرف بأن أقدم لك آيات شكرى مما قريب ، وبأن أؤكد لك يا سيدى ، إلى أى مدى يشرفنى أن أكون . . . الخ » .

ولا يعجبني المرء لما فى هذا الخطاب من أدب جم — إذا قيس بخطابات فولتير نصف المهذبة التى كتبها لى بعد ذلك الحين — فقد كان يظننى ذا حظوة كبيرة لدى السيد دى ريشيليو ، فحمله الرئاء المرن على أن يبدي كثيرا من الاعتبار للواعد الجديد على البلاط ، ريثما يزداد معرفة بمدى مكانته !



وإذ حصلت من السيد دي فولتير هذا السلطان ، وأعلنت من كل اعتبار لرامو — الذى لم يكن له من هدف سوى الإساءة إلى — فإتنى جكفت على العمل — ولم ينقض شهران حتى كانت مهمتى قد أنجزت . ولم يكن الشعر سوى مهمة بسيطة ، إذ كان همى الأوحده هو أن اتفادى أن يكون تباين الأسلوب ملحوظا ، ومن حقى أن اعتقد إتنى قد وفقت . أما مهمتى — فى الناحية الموسيقية — فقد تطلبت مزيدا من الوقت والجهد ، فضلا عن إتنى اضطررت إلى أن أولف عدة قطع للمقدمات ، منها اللحن الامتياحى ، وكل الحان الإلقاء الغنائى (١) التى تكلفت بها فوجدتها بالغة الصعوبة ، إذ كنت مضطرا إلى أن أربط نغمات سيمفونية وصوتية متباينة الطبقات ، بقليل من السطور — فى كثير من الأحيان — وبوساطة أنغام سريعة جدا . ذلك لإتنى مقدت عزمى على ألا أغير أو أعبدل لحننا واحدا ، حتى لا يتهمنى رامو بإفساد الحائنه الأصلية . ولقد وفقت فى هذا الإلقاء الغنائى . فكانت النبرات واضحة ، مليئة بالقوة ، رائعة فى تناسق نغماتها ، بوجه خاص . ولقد أدى التفكير فى هذين العظيمين اللذين حظيت بشرف الاشتراك معها — على هذا النحو — إلى رفع روجى المعنوية ، وبوسعى أن أقول إتنى فى هذا العمل الذى لم يكن لى من ورائه حمد ولا مجد ، والذى لم يكن مقدورا للرأى العام ذاته أن يعلم بفضلى فيه — حافظت دائما على مثلى ومستواى !

(١) المقدمات التى طغى بالغناء ، دون أن تكون شعرا موزونا .

ولقد أجريت التجارب على المسرحية — بالشكل الذى نقحتها إليه — فى مسرح « الأوبرا » الكبير . ووجدتني الوحيد الحاضر من المؤلفين الثلاثة . فقد كان فولتير متغيبا ، فى حين أن رامو لم يحضر ، أو لعله تعمد أن يتواري . وكانت كلمات المناجاة (١) الأولى ملعبة بالأسى وهذا مطلعها :

« ألا أيها الموت تعال ، فاختم تعاسات حياتى ! » .

وكنيت مضطرا إلى أن أضع موسيقى تتمشى معها ، ومع ذلك فإن هذه الفاتحة هى التى خصتها السيدة ديلا بوبلينير بنقدها، إذ اتهمتني — فى تحامل — بأننى وضعت لحنا جنائزيا . وبدأ السيد دى ريشيليو بأن يسأل — فى إنصاف — عن كتب كلمات المناجاة، فاطلعت على المخطوط الذى كان قد أرسله إلى، والذى أثبت أنها من وضع فولتير . فقال : « ان المخطيء — فى هذه الحال — هو فولتير وحده » . وظل كل ما فعلت معرضا — خلال التجربة — لاستهجان السيدة ديلا بوبلينير ، ولانصاف السيد دى ريشيليو . على أننى ما لبثت أن تبينت أن التحامل كان شديد الوطأة ، فقد أشير على بتفتيح عدة أشياء فى مؤلفى ، كان لابد من استشارة السيد رامو بشأنها . وأكرمنى أن تكون هذه هى النتيجة ، بدلا من الاطراء الذى كنت أرتقبه ، والذى كنت جديرا به يقينا . فعدت إلى بيتى بقلب مثقل . . . وسقطت مريضا ، وقد هدنى الإعياء ، وراح الأسى ينهشنى . . . وظللت ستة أسابيع لا أقوى على الخروج !

(١) المونولوج : وهو الحديث الفردى الذى يلقيه المرء لنفسه .

وأرسل رامو - الذى وكلت إليه التعديلات التى أشارت إليها السيدة ديلا بوبلينيرا - يطلب إلى افتتاحية « أوبراى » الكبرى ، ليضعها فى مكان تلك التى وضعتها . وفطنت - لحسن الحظ - إلى الحيلة ، فرفضت . ولم يكن قد بقى على موعد تقديم المسرحية الأخرى أكثر من خمسة أيام أو ستة ، فلم يكن لديه وقت لتأليف افتتاحية ، واضطر إلى أن يترك تلك التى كنت قد وضعتها من قبل . . وكانت على النسق الإيطالى ، ومن نوع كان جديدا تمام الجدة على فرنسا ، فى ذلك الوقت . ومع ذلك فرائه لقى استساغة ، وسمعت من السيد دى « المالىيت » - رئيس ديوان الملك ، وزوج ابنة السيد موسار ، وكان قريبا وصديقا لى - أن هواة الفن أبدوا كل الرضى من مؤلفى ، وأن الراى العام لم يستطع أن يفرق بينه وبين إنتاج رامو . غير أن هذا اتخذ من الإجراءات - بالتواطؤ مع السيدة ديلا بوبلينيرا - ما يحول دون معرفته أننى قد ساهمت فى تلك القطعة . فعلى الكتب (١) التى توزع على النظارة ، والتى تثبت فيها دائما أسماء

---

(١) يعتمد الكتاب الذى يشتمل على برنامج الحفلة وموجز التمثيلية . وما يذكر أن هذا الكتاب لم يحمل اسم مؤلف الحوار ، ولا مؤلف الموسيقى . وإنما أورد فقط اسم « لامل » مؤلف « الباليه » . وقد عرضت التمثيلية فى ( موساى ) فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٧٤٥ ، أى بعد سبعة أيام فقط من اليوم الذى كتب فيه « فولتير » رسالته . وقد ذكر « روسو » - فى الفقرة السابقة - أن « رامو » طلب افتتاحية « عرائس أحلام الشعراء » قبل هذا العرض بخمسة أيام ، مكانه أنجز التعديلات فى حوالى يومين !

المؤلفين ، لم يذكر سوى اسم فولتير . وآثر رامو إغفال اسمه على أن يرى اسمي مقترنا به !

وما أن تمكنت من مغادرة داري ، حتى رفقت في زيارة السيد دي ريشيليو . ولكن الفرصة كانت قد فاتتني ، إذ أنه كان قد رحل إلى ( دنكرك ) ، حيث كان عليه أن يشرف على رحيل الحملة التي كانت موجهة إلى ايقوسيا ( اسكتلندا ) . ولما عاد ، ظلت لنفسى - لأبرر كسلى - إن المناسبة قد انقضت . وبما اتنى لم أجد أراه منذ ذلك الحين ، فقد أضعت على نفسى التكريم الذى كان مؤلفى يستحقه . . التكريم الذى كان جديرا بأن يدره على . ومن ثم فإن وقتى ، وعملى ، وحزنى ، ومرضى والنقود التى كلفنيها . . كل هذا تكبدته دون أن يعود على بـ « سو » واحد ، بل ودون أى تعويض . ومع ذلك فقد اعتدت دائما أن أرى أن السيد دي ريشيليو كان ميالا بطبعه نحوى ، وكان يحسن الظن بمواهبى ، ولكن نحسى والسيدة ديلا بوبلينير حالا دون كل نتيجة لحسن طويته !

وما استطعت قط أن أفهم سر كراهية هذه المرأة التى كنت أغضب نفسى على إرضائها ، والتى اعتدت أن أثابر على أن أبدى لها مجاملتى . ولقد شرحت لى « جوفكور » الأسباب ، فقال : « هناك - أولا - صداقتها لرامو ، الذى كان يحظى علنا برعايتها ، والذى لم يكن يحتمل أية منافسة . . وفوق ذلك ، كان لئمة ذنب جوهرى يصممك فى نظرها ، ولن تغتفره لك أبدا . . ذلك هو أنك جنيفى ! » . . وهنا بين لى أن الراهب « هوير » - الذى وفد هو الآخر من ( جنيف ) ، والذى كان

صديقا صدوقا للسيد ديلا بوبلينير — كان قد بذل قصارى وسعه ليصده عن الزواج من هذه المرأة التي كان يعرفها تمام المعرفة ، والتي حرصت — بعد الزواج — على أن تولى كل جنيفى كراهية لا سبيل إلى مغالبتها . وأردف جوفكور قائلا : « ومع أن لابوبلينير يكن لك ودا — أنا موثق منه — إلا أنه ليس لك أن تعتمد على مؤازرته ، فهو مدله في هوى زوجته ، وهى تكرهك .. وأنها لخبثة ، مأكرة .. ولن يكون لك شأن في هذا المنزل » . وأدركت ما كان يرمى إليه !



ولقد أدى لى جوفكور هذا خدمة أخرى — حوالى ذلك الوقت — كنت في حاجة ماسة إليها . فلقد فقدت أبى الفاضل ، وقد ناهز الستين من عمره . ولم أشعر بقسوة هذا المصاب كما كنت خليقسا بأن أحس بها فى الماضى ، عندما لم تكن الضائقات تشغل بالى بمثل ما كانت تشغله فى هذه الآونة . إذ اننى لم أحاول قط — خلال حياته — أن أطالب ببقية تركة أمى التى كان يحصل دخلها البسيط . أما بعد موته ، فلم يداخلى تردد بهذا الشأن ، ولكن عدم توفر دليل قضائى على وفاة أخى كان عقبة أخذ جوفكور على عاتقه عبء إزاحتها ، وقد أزاحها فعلا بفضل مساعى المحامى « دى لولم » . ولما كنت فى حاجة ملحة إلى هذا المورد الضئيل ، وكأنت المسألة محوطة بالريب ، فقد رحت أنتظر نبأ حاسما فى صبر نالقد وظهف . وفى ذات مساء ، وجسدت ، إذ أبت إلى مسكنى — الرسالة التى كان منتظرا أن تشمل على هذا النبأ ، فتناولتها لأمضها ، وأنا

أرتجف في لهفة خجلت منها في سريرتي ، وقلت لنفسى في ازدراء: « وبعد ؟ ! .. أينساق جان جاك لسلطان المصلحة الخاصة والفضول إلى هذه الدرجة ؟ » .. ووضعت لفورى الرسالة على رف المدفأة ، ثم خلعت ثيابى ، وأويت إلى فراشى فى هدوء ، فحظيت بنوم يفوق ما اعتدت .. ثم صحت فى اليوم التالى متأخرا ، دون أن أعود إلى التفكير فى الرسالة . وفيما كنت أرتدى ثيابى ، لمحتها ففضضتها فى غير تعجل ، ووجدت فيها حوالة مالية . وساورتنى كثير من الأفكار السارة - فى آن واحد - ولكن بوسعى أن أقسم أن أقواها جميعا كانت تلك التى نبهتنى إلى انقصارى على نفسى . وأستطيع أن أذكر عشرين من أمثال هذه المناسبة فى حياتى ، ولكنى لا أجد وقتا لى أروى كل شيء . ولقد أرسلت قسطا بسيطا من هذه النقود إلى « ماما » وأنا أبكى حسرة على الأوقات السعيدة ، التى كنت فيها على استعداد لأن ألقى بكل شيء عند قدميها ! .. كانت كل رسائلها توحى بضيقها . ولقد أرسلت لى أكواما من الوصفات والأسرار التى كانت تزعم أن بوسعى أن أجمع بها ثروة لى ولها . ولقد كلن مجرد التفكير فى فاققتها يعصر قلبى ويضيق أفق عقلى . وكان القليل - الذى اعتدت أن أرسله إليها - يقع فى أيدى الأثقال الذين كانوا يحيطون بها ، دون أن تنتفع شيء منه . فجعلنى هذا أكره أن أشرك هؤلاء التعساء فيما كانت تمس إليه حاجتى ، لا سيما بعد المحاولات غير المجدية التى بذلتها لانتزاع « ماما » من قبضاتهم ، مما سيرد ذكره فيما بعد .

وانساب الوقت ، وانسابت النقود معه . وكنا اثنين ، بل أربعة .. بل أننا كنا سبعة أو ثمانية ، كما يحسن أن يقال .

ذلك لأنه بالرغم من أن « تيريز » كانت زاهدة في أية مصلحة شخصية ، إلى درجة لا يكاد يكون لها مثيل ، إلا أن أمها لم تكن على ثساكلتها . فما أن رأت أحوالها تتحسن قليلا — بفضل رعايتي — حتى استدمت كل أسرتها لتشاطرها الغنية . فإذا بالأخوات ، والأبناء ، والبنات ، والأحفاد يقدون جميعا ، ما عدا ابنتها الكبرى ، التي كانت متزوجة من مدير مرائب النقل في ( انجير ) . . وأصبح كل ما أفعله من أجل تيريز ، يتحول بفضل أمها إلى هؤلاء النهمين . ولما لم أكن جشعا ، ولا كنت مستذلا لشهوة مستعرة ، فأننى لم ارتكب أية حماقات . بل إننى في اغتباطى بأن أعول تيريز — في حياة لا بأس بها ، خالية من القرب ، ولكنها في وقاء من الحاجة — أقررتها على أن تسلم أمها كل ما كان بوسعها أن تكسبه من عملها . ولم أكن اقتصصر على ذلك . . ولكننى استسلمت للقدر الذى كان يتعقبنى . . ففى الوقت الذى كانت فيه « ماما » ضحية لاندالها ، كانت تيريز ضحية لأسرتها ، ولم يكن بوسعى أن أقدم أى عون يعود بالنفع على تلك التى كنت أقصد نفعها فى الحسالىن . ولقد كان من العجيب أن صغرى بنات السيدة لوغاسير — وهى الوحيدة التى لم تحظ بصداق من أهلها — هى الوحيدة التى راحت تعمل أباهما وأمها . . وأن هذه المسكينة — بعد أن ظلت طويلا تتلقى الصفعات من إخوتها وأخواتها ، بل ومن أبناء هؤلاء — أصبحت فريسة لنهبهم ، دون أن تملك لسرقاتهم دفعا يذوق ما كانت تملك من مقاومة لصفعاتهم من قبل . ولم يكن بين أبناء أخوتها سوى واحدة فقط ، تدعى « جوتون ليدوك » ، كانت على قدر من اللطف ورقة الطبع ، برغم ما كان يفسدها من قذوة الآخرين ودروسهم .

ولما كنت كثيرا ما أراهم مجتمعين ، فقد أصبحت أطلق عليهم ما يطلقه بعضهم على بعض من القاب ، فأنا أنادى ابنة الأخ بـ « ابنة أخى » ، والعمة بـ « عمى » . وأصبح الفريقان يناديانى بـ « بياعى » . ومن هنا نشأ اسم « العمة » الذى أنادى به تميز باستمرار ، والذى يردده أصدقائى فى بعض الأحيان ، على سبيل المدامية !



ومن المعلوم أننى لم أضيع لحظة واحدة — فى مثل هذا الموقف — دون أن أحاول أن انتزع نفسى منه ، وإذا حدثت أن السيد دى ريشيليو قد نسينى ، ولم أعد آمل فى شيء من ناحية البلاط ، بذلت بضع محاولات لقبول تقديم أوبراى فى باريس . ولكننى صادفت عقبات كان تذليلها يتطلب وقتا ، فى حين أن حاجتى كانت تزداد شدة يوما بعد يوم . ولقد أشير على بأن أقدم تمثيلتى الهزلية الصغيرة « نارسييس » على مسرح الإيطاليين « اوزيتاليان » . فقبلت التمثيلية ، وظفرت بالتردد على المسرح دون مقابل ، مما سرفنى كثيرا . ولكن هذا كان غاية ما فى الأمر إذ أننى لم أوفق قط إلى أن أحملهم على إخراج المسرحية . حتى إذا ضقت بمداهنة الممثلين الفكاهيين، انصرفتم منهم . ولجأت فى النهاية إلى الحيلة الأخيرة التى بقيت لى ، والتى كان يجب أن تكون الوحيدة الجديرة بأن تتبع . ففهما كنت أتردد على دار السيد ديلا بونلينيير ، ظلمت بعسدا من دار السيد دويان . ومع أن ربتى الدارين كانتا على بعض صلات القربى ، إلا أنهما لم تكونا على وئام ، ولم تتزاورا قط .

بل لم تكن بين الدارين أية صلة ، وإنما كان « ثيريو » هو الوحيد الذى اعتاد أن يتردد على هذه وتلك . وقد وكل إليه امر السعى إلى حملى على العودة إلى دار السيد دويان .

وكان السيد فرانكويى ماضيا — فى تلك الأثناء — فى دراسة التاريخ الطبيعى والكيمياء ، وقد أعد لنفسه غرفة للدراسة . وأظنه كان يطمح فى عضوية محفل العلوم ، وكان يرفب — فى سبيل ذلك — فى أن يضع كتابا ، وقد خطّر له أننى أستطيع أن أكون ذا نفع فى هذا الصدد . وكان للسيدة دويان — من ناحيتها — رأى مشابه فى شخصى ، كما أنها كانت تفكر فى أن تؤلف كتابا . ومن ثم فقد ودا أن يستأجرانى لأكون أثمبه بسكرتير يتقاسمائه . وكان هذا هو الهدف من مسامى ثيريو . فطلبت — كمربون — أن يستخدم السيد دى فرانكويى نفوذه وتنفيذ « جيليو » من أجل تجربة إخراج تمثيلية فى الأوبرا ، فوافق . وأجريت مدة تجارب لإخراج « عرائس الشعر اللطاف » فى « المخزن » (١) فى بادىء الأمر ، ثم انتقلت التجارب إلى المسرح الكبير . وحضر التجربة الكبرى كثير من الناس ، وحظيت كثير من المقطوعات بتصفيق شديد . على أننى شعرت أثناء الأداء الموسيقى — الذى أساء « ريبيل » الإشراف عليه — بأن هذه التمثيلية لن تلقى قبولا ، بل إنها لن تكون معدة للعرض دون تعديلات كبيرة . وعلى هذا فأننى سحبتها دون ما إيضاح ، ودون أن أمرض نفسى لسماع رفضها . ولكننى رأيت بجلاء ،

(١) القسم الذى كانت تحفظ به المناظر المسرحية وقريب التمثيل .

ومن عدة بواصر ، أن التمثيلية ما كانت ستجاز ، ولو كانت في اكمل حال . ذلك لأن السيد دى فرانكويى كان قد وعده حقا بأن يهيم السبيل لتجربتها ، ولكنه لم يعد بأن يضمن قبولها . وقد بر بوعده تماما . ولقد كان يخيل إلى دائما — فى هذه المناسبة وفى كثير غيرها — بأنه ومدام دوبان لم يكونا حريصين على أن يدعائى اكتسب شهرة محققة فى المجتمع . ولعل ذلك كان راجعا إلى خوفهما من أن يظن — عندما تظهر مؤلفاتهما — أنهما قد شحذا مواهبهما على محك مواهبى . ومع ذلك ، فإن السيدة دوبان كانت دائما مقتصدة فى رأيها عن كفاعتى ، ومن ثم فإنها لم تستخدمنى قط إلا لاكتب ما كانت تمليه على ، أو لأقوم لها بأبحاث علمية بحتة ، ومن ثم فإن هذا الظن — فيما يتعلق بها — قد يكون جائرا !

### من سنة ١٧٤٧ إلى سنة ١٧٤٩

أدى هذا الفشل الأخير إلى تثبيط عزيمتى تماما ، فهجرت كل أمل فى الرقى والمجد ، ولم أعد أفكر فى مواهبى الحقيقية أو الموهومة ، التى لم تعد على بطائل ، بل كرست وقتى وجهدى لكسب قوتى وقوت تيريزى ، بالشكل الذى راق لذائك اللذين تكفلا بتمكينى من ذلك . ومن ثم فأننى تفرغت تماما للسيدة دوبان والسيد دى فرانكويى . ولم يدعنى هذا إلى سعة من العيش موفورة . . فإن المرتب الذى تقاضيته فى العامين الأولين — وكان ثمانمائة أو تسعمائة فرنك سنويا — كان لا يكاد يوفى لى حاجاتى الأولية . إذ أننى كنت مضطرا إلى الإقامة على مقربة منها ، فى حجرة مؤنثة ، بحى من الأحياء التى تتطلب نفقات

كثيرة ، كما كنت أدفع إيجار مسكن آخر ، في الطرف الأقصى  
 لباريس ، عند نهاية شارع ( سان جاك ) ، حيث كنت أذهب  
 لتناول العشاء في كل مساء تقريبا ، مهما تكن حال الطقس .  
 وسرعان ما ألفت عملي الجديد ، بل إنني بدأت أميل إليه  
 فاهتمت بالكيمياء ، وتلقيت دروسا عدة مع السيد دي  
 فرانكويي ، لدى السيد رويل . ورحنا نسود أكدا سا من الورق  
 بما كنا نكتبه في هذا العلم ، سواء من صواب أو عن خطأ ، برغم  
 أننا لم نكد نلم بمبادئه الأولية ! . ولقد ذهبنا — في سنة ١٧٤٧  
 — لقضاء الخريف في ( تورين ) ، في « شاتو دي شينونسو » ،  
 القصر الملكي القائم على نهر الشير ، والذي شيده هنري الثاني  
 من أجل ديانا دي بواتيير . . التي لا تزال الحروف الأولى من  
 اسمها ترى منقوشة هناك . وكان هذا القصر قد آل إلى السيد  
 دوبان ، بوصفه المشرف العام على الأراضي الزراعية للملك .  
 ولقد استمتعنا كثيرا بالاقامة في هذا المكان البديع ، وازددنا  
 سمنة ، حتى أنني أصبحت بدينا كالرهبان ! . . ونعشنا بقدر  
 كبير من الموسيقى ، كما أنني ألفت عدة ثلاثيات غنائية (١) ،  
 زاخرة بالقوة وبالتناسق النغمي ، وسوف أتحدث عنها في  
 « الملحق » إذا قدر لي أن أكتبه . كذلك كنا نقوم بتمثيل بعض  
 المسرحيات الفكاهية ، واستطعت — في خمسة عشر يوما — أن  
 أولف واحدة ، من ثلاثة فصول ، أسميتها « الخطبة المتهورة » (٢) ،

(١) قطع غنائية يشترك في أدائها ثلاثة أشخاص .

وهي موجودة بين أوراقى ، ولا تمتاز بغير مرحها المفرط .  
ووضعت هناك بعض مؤلفات صغيرة أخرى ، منها قصيدة  
بمعنوان « درب سيلفيا » (١) ، من درب فى المتنزه الذى كان  
يمتد على ضفاف نهر ( الشير ) . على أن هذا لم يصرفنى عن  
دراساتى الكيمياء ، ولا عن العمل الذى كنت أؤديه للسيدة  
دوبان .

وبينما كنت ازداد سمنة فى شينونسو ، كانت تيريزى  
المسكينة تتضخم فى باريس بشكل آخر ، حتى إذا عادت ،  
وجدت « المؤلف » الذى كنت بدائه ، قد تقدم بدرجة لم أكن  
أتصورها (٢) . وقد دفع بى هذا — نظرا لموقفى — إلى حيرة  
بالغة ، لولا أن زملاء المائدة أمدونى بالحيلة الوحيدة التى كان  
يوسعها أن تخرجنى من المازق . وهى من البيانات الدقيقة  
التى لا أملك أن أبوح بها فى بساطة ، لأنى قد اضطر — إذا  
أقدمت على أى إيضاح — إلى أن التمس لنفسى الممانير ، أو  
إلى أن أدين نفسى ، وما أرانى راغبا فى أن أفعل هذا أو ذاك !

غنى أثناء إقامة « التونا » فى باريس ، اعتدنا أن نتناول  
وجباتنا على مقربة من مسكننا ، بدلا من أن نأكل فى أحد  
المطاعم . فكنا نتردد على السيدة لاسيل ، بالقسرب من مر  
« الأوبرا » . . وكانت زوجة حائكة ، تقدم أطعمة غير شهية ،

(١) لم يلبث القصر أن آل إلى مالك هدم هذا الحرب الذى أذاع روسو  
شهوته (٢) والذى كان يجلب زواجا غريسا من الأجانب .

(٢) من المفهوم أنه يعنى أن ملاحظته بغيره الموت جليلا »

ولكن مائدتها كانت قبلة الطامعين ، نظرا لمن كانوا يجتمعون حولها من رفاق طيبين موثوق بهم . فما كان لاي مجهول أن يلج المكان ، بل كان لا بد من أن يقبله واحد ممن اعتادوا تناول الطعام هناك . وكان « الكوماندور دي جرافيل » ممن استقروا هناك . وهو شيخ ماجن ، موفور الظرف والفكاه ، ولكنه بذىء اللسان . . وقد اجتنب حوله ثلة من الشباب الطائش الذكي ، تألفت من ضباط من فرق الحرس والفرسان . . وكان « الكوماندور دي تونان » حامى كل فتيات الأوبرا ، وقد اعتاد أن يحمل إلى المكان — في كل يوم — كافة أنباء هذا الوسط العايب . . أما السيدان « دويليسى » — وكان « بكباشي » محالا على الاستيداع ، و« شيخا طيبا حكيما » — و « انسيليه » (١) — وكان من ضباط الفرسان — فقد فرضا قدرا من النظام على

---

(١) كتب « روسو » على هذا بقوله : « إلى هذا الانسياح اهديت تمهيلية فكهة مسترة من تأليفي ، بعنوان « أسرى الحرب » ، وضعتها بعد النكبات التي نزلت بالفرنسيين في بلغاريا وبوهيميا ، ولم أجرؤ اطلاقا على أن اعترف بها ، أو أن اعرفها . وكان ذلك لسبب واحد ، هو أن الملك ، وفرنسا ، والفرنسيين ، لم يحفظوا — غيبا أحسب — بأفضل ولا أصدق من الأطراء الذي اشتملت عليه هذه التمهيلية . ولما كنت جمهوريا وناقدا صريحا للحكومة ، فائنسى لم أجسر على أن اعترف باننى مدح أمة كانت كل مبادئها متعارضة مع مبادئى . وإذا كنت أشد أسى لصاحب فرنسا من الفرنسيين أنفسهم ، فقد خشيت أن تؤخذ على محمل الملق والجبن ، إمارات الحب الصادق ، الذي ذكرت — في الجزء الأول من اعترافاتي — عهد وسببه ، والذي كنت استعجب من إبدائه ! » ( وقد ورد ذكر ذلك في الكراسة الخامسة ) .

هؤلاء الشبان . كذلك كان يتردد على المكان تجار ، وماليون ، ومتعهدون بتوريد الأغذية . . ولكنهم كانوا مؤدبين ، أمناء ، من المبرزين في حرفهم ومهنتهم . وكان السيد دى بيس والسيد دى نوركاد بين هؤلاء الذين نسيت أسماءهم . وقصارى القول إن المرء كان يرى هناك أناسا محترمين من جميع الأنواع غيما عدا الرهبان وفوى الأوشحة<sup>(١)</sup> الذين لم يقع عليهم بصرى هناك إطلاقا ، فقد كان ثمة اتفاق على عدم تقديم أحد منهم . وكانت هذه المائدة ، على ازدحامها ، جد مريحة في غير صخب ، كثيرة الثثرة في غير بذاءات . فما كان القسائد ( الكوماتدور ) الشيخ لينسى البقة — بكل قصصه المأجنة — الأدب الذى ألفه في البلاط ، فلم تكن تخرج من فمه إطلاقا أية كلمة بغيضة لا تغتفرها له النساء . وكانت لهجته دستورا للمائدة كلها ، فكان كل أولئك الشبان يروون مغامراتهم الغرامية في كثير من التحرر والكياسة . ولم تكن قصص الفانيات لتغيب عن المائدة ، إذ كان ثمة مورد لها جد قريب ، فقد كان المرء الذى يفضى إلى دار السيدة لاسيل ، يؤدى كذلك إلى حانوت السيدة دوشات ، وهى تاجرة أزياء ذائعة الصيت ، كانت تستخدم — إذ ذاك — غتيات موفورات الجمال ، اعتاد السادة أصحابنا أن يسعوا إلى مجاذبتهم الحديث ، بعد الغداء . وكان بومسعى أن اتسلى كما كان يفعل الآخرون ، لو أننى كنت أكثر جرأة مما أنا . إذ أننى لم أكن بحاجة إلى أكثر من أن ألج الحانوت ، كما كانوا يفعلون ، ولكننى لم أجسر . أما السيدة لاسيل ، فقد ظللت

(١) يقصد المحامين .

أذهب لتناول الطعام لديها في كثير من الأحيان ، عقب رحيل « التونا » . وهناك ، سمعت فيضا من الحكايات المسلية . كما اقتبست تدريجيا المبادئ التي ألفيتها مستتبة هناك . . . دون المقاييس الخلقية ، والحمد للسماء ! . . فمن أشراف أوفوا ، إلى أزواج خدعوا ، إلى نساء استخففتن الفواية ، إلى أطفال ولدوا في الخفاء . . كل هذه كانت موضوعات عادية مألوفة هناك . وكان ذلك الذي يساهم أكثر من سواء ، في زيادة عدد سكان ملجأ اللقطاء ، هو أكثر الناس نصيبا من الإعجاب . ولقد أصابتنى عدوى هذا كله ، غصفت طريقة تفكيري على نسق تلك التي رأيتهما سائدة بين قوم ظرءاء ، وممرطى الأدب بوجه عام ! . . وقلت لنفسى : « ما دام هذا هو العرف السائد في البلاد ، فللمرء أن يتبعه إذا ما أقام فيها » . . وهذه هي الحيلة التي كنت أنشدتها . فاعتزمت - في اغتباط - أن انتهجها ، دون أية هواجس من ناحيتي أو تردد . . وكل ما كان على أن تغلب عليه ، هو مخاوف تيريز ، التي كابدت في حملها على انتهاج الوسيلة الوحيدة لانقاذ شرعها ، كل ما في الدنيا من عناء ! . . ولقد انضمت لى أمها التي كانت تخشى التورط في طفل جديد . وانصاعت تيريز في النهاية ، فاختيرت مولدة ( داية ) حكيمة ، مأمونة ، تدعى الأنسة « جوان » . كانت تقيم عند ( رأس سان أوستاش ) . . لنعهد إليها بهذه الوديعة . فلما آن الأوان ، نقلت تيريز - بمعرفة أمها - إلى دار الأنسة جوان ، لتضع حملها ، وذهبت إلى هناك عدة مرات لأزورها ، وحملت إليها ريزا مزدوجا نقش على بطاقتين ، لتوضع إحداها في ثياب الطفل ، على أن



وحملت اليها رمزا مزدوجا نقش على بطاقتين ، لتوضع احدهما في  
تباب الطفل ، على أن تودعه القابلة ( الداية ) ادارة ملجأ اللقطاء .

تودعه القابلة ( الداية ) إدارة ملجأ اللقطساء ، بالطريقة المعهودة .. وفي العام التالي ، تكررت المضايقة ، وتكرر العلاج ، فيما عدا الرمز الذى أغفل ! .. ولم يعد ثمة تفكير فى الأمر — من ناحيتى — لا ولم يكن ثمة انصياع يفوق انصياع الأم ، التى أطاعت وهى تتنهد . ولسوف تبسود تباعا كل التفسيرات التى أدت هذه الطريقة إلى فرضها على أسلوبى فى التفكير ، وعلى مصيرى كذلك . أما الآن ، فلنلزم هذه المرحلة الأولى ، إذ أن معقباتها — التى كانت من القسوة بقدر ما كانت متوارية غير ظاهرة — لن تلبث أن تضطرنى إلى العودة إليها كثيرا .



ولسوف أنكر هنا واقعة أول تعارف بينى وبين السيدة « ديبيناي » ، التى كثيرا ما سيقرد اسمها فى هذه المذكرات . كان اسمها الآنسة ديسسكلافيل ، ثم تزوجت من السيد « ديبيناي » ، نجل السيد « دى لاليف دى بيلجراد » ، الذى كان مديرا عاما للأراضى الزراعية . ولقد كان الزوج موسيقيا ، على شاكله السيد دى فرانكوى . كذلك كانت هى الأخرى موسيقية ، وقد خلق الولع بهذا الفن ودا عظيما بين هؤلاء الأشخاص الثلاثة . وقدمنى السيد دى فرانكوى إلى السيدة ديبيناي ، فكنيت أتناول العشاء معها فى بعض الأحيان . وكانت لطيفة ، ذكية ، موهوبة ، خليفة يان ينشد المرء ودها حقا . على أنها أوتيت حديقة — تسمى الآنسة « ديت » — كانت تعتبر خبيثة ، وكانت تعاشر الشيفالييه دى فالورى ، الذى

لم يكن حسن السمعة ، واعتقد أن صحبة هذين الشخصين قد أساءت إلى السيدة ديبيناي ، التي خبتها الطبيعة بسجية غالبة ، وصفات رائعة تخفف من ، أن تتوازن مع نزواتها . ولقد أوحى إليها السيد دي فرانكويي قسما من الود الذي كان يمكنه نحوي ، وصارحتني بصلاته بها ، ولهذا السبب فانتى ما كنت لأحدث من هذه الصلات هنا ، لولا أنها أصبحت معروفة إلى درجة أنها لم تعد خافية على السيد ديبيناي . . . كذلك أثرتني السيد دي فرانكويي باعترافات عجيبة من هذه السيدة ، لم تذكرها لي بنفسها إطلاقا ، ولم يخطر ببالها البتة أنني كنت على علم بها . فأننى لم أفتح فمي — ولن أفتحه — بالحديث في هذا الموضوع ، إليها أو إلى أى امرئ آخر (١) . ولقد أدت كل هذه الاعترافات — من كل من الطرفين — إلى الزج بى في موقف جد حرج ، لا سيما إزاء السيدة دي فرانكويي ، التي كانت تعرفنى خير معرفة ، فلم تفقد ثقتها بى بالرغم من توثق صلاتى بغريماتها . ولقد عمدت — بقدر ما كان بوسعى — إلى مواساة هذه السيدة البائسة ، التي لم يبادلها زوجها — دون ما شك — ما كانت توليه من حب . وكنت أصغى إلى هؤلاء الثلاثة ، كل على حدة ، وأصون أسرارهم بأقصى وفاء ، دون أن يقدر قط لاي من ثلاثتهم أن ينتزع منى شيئا من أسرار الاثنين الآخرين ، ودون أن أخفى عن كل من المراتين ودى لغريماتها . . .

---

(١) لم تعد اعترافت السيد دي فرانكويي لروسو سرا خائفا على أحد . فإن المذكرات التي نشرت باسم ديبيناي تبين لنا أنها أصيبت بعدوى مرض خبيث ، من زوجها . . . وأنها نزلت هذا المرض إلى عشيقها ، الذي قدر له أن يموت بها !

ولقد حاولت السيدة دي فرانكويي أن تفيد مني في أمور كثيرة، فقبلت برفض بات . . كما أن السيدة ديبيناي أرادت أن تحملني - ذات مرة - رسالة إلى فرانكويي ، فلم تقابل برفض مشابه فحسب ، بل إنني صارحتها كذلك بجلال تام ، بأنها لم تكن بحاجة إلى أكثر من أن تعرض على مثل هذا الأمر - مرة ثانية - إذا شأنت أن تقصيني عن دارها إلى الأبد ! . . ومن الواجب أن أنصف السيدة ديبيناي ، فإنها كانت أبعد من أن تبدى استياء من مسلكي ، بل إنها تحدثت عنه إلى فرانكويي بأبلغ تقدير ، ولم يقل ترحيبها بي بعده ، عما اعتادت أن تستقبلني به قبله . وهكذا استطعت أن أمضي موفقا وبسيط العلاقات العاصفة بين هؤلاء الأشخاص الثلاثة الذين كنت اعتمد عليهم في معاشي - إلى حد ما - والذين كنت أكن لهم صديق المثل . . واستطعت أن احتفظ - إلى النهاية - بودهم ، وتقديرهم ، وثقتهم ، إذ رحت أنصرف في رفق ومجاملة ، يرافتهما - دائما - استقامة وحزم . وبالرغم من غيبياتي وحمائتي ، فإن السيدة ديبيناي كانت تميل إلى أن تصطحبني إلى الحفلات اللاهية التي كانت تقام في (لاشيفريت) ، في قصر على نهر (سان دنيس) ، من أملاك السيد دي بيلجراد . وكان ثمة مسرح هناك ، كثيرا ما أخرجت عليه مسرحيات . وقد عهد إلى بأحد الأدوار ، فظلت استذكره ستة أشهر - دون انقطاع - ومع ذلك فأنني لم استغن عن راح يهمس إلي بعبراته من البداية إلى النهاية ، أثناء التمثيل ! . . وبعد هذه التجربة ، لم يعرض على أي دور !

وفي تعرفي بالسيدة ديبيناى ، حظيت كذلك بمعرفة الأنسة دى بيلجراد ، التى لم تلبث أن أصبحت كونتة هودينو . وكانت أول مرة رايتها فيها ، فى اليوم السابق على زواجها . وقد حدثنى طويلا (١) ، بتلك الألفه الساحرة التى فطرت عليها . والفتها مفرطة فى اللطف ، ولكنى كنت أبعد من أن أرى أنه كان مقدرا لهذه الشابة أن تشكل هدف حياتى يوما ، وأن تجرنى — عن براءة ودون إدراك أو قصد — إلى الحضيض الذى أعيش فيه اليوم !

ومع أننى لم أتحدث عن « ديدرو » منذ عودتى من البندقية ، ولا عن صديقى السيد « روجان » ، إلا أننى لم أهمل أيا منهما ، بل أن روابط الود أخذت تزداد توثقا بينى وبين الأول — بوجه خاص — يوما بعد يوم . وكما أننى أوتيت « تيريز » ، فقد أوتى هو « نانيت » ، وكانت هذه ناحية أخرى من نواحي التقارب بيننا . ولكن الفارق كان فى أن تيريزى ، وإن ماثلت نانيت فى حسن الشكل ، إلا أنها كانت أرق مزاجا والطف شخصية منها ، وقد خلقت لترتبط برجل محترم . . أما فتاته فكانت سليطة ، « زغرة » اللسان ، لا تبدى أمام أنظار الغير ما يخفى سوء التربية . ولقد تزوجها — مع ذلك — وكان هذا عملا طيبا منه ،

(١) استعمل « روسو » هنا تعبيرا غير شائع فى الفرنسية ، لذلك

استعملنا فى الترجمة « حدثنى » بدلا من « تحدثت الى أو معى » !

إذا كان قد وعدنا بالزواج . أما أنا ، فلم أكن بحاجة إلى أن  
أحذو حذوه ، إذ أنني لم أبذل مثل هذا الوعد إطلاقاً !

ولقد اتصلت كذلك بالراهب دي « كونديللاك » ، الذي لم  
يكن أفضل مني حالاً في الأدب ، ولكنه كان مهيباً لأن يصير إلى  
ما أصبح اليوم عليه . ولعلني كنت أول من أبصر كفايته ،  
وقدره حق قدره . ولاح أنه كذلك ارتاح إلى ، وعندما احتبست  
نفسى في غرفتى بشارع ( جان سان دنيس ) — على مقربة من  
« الأوبرا » — لأضع الفصل الذى ضمنته أوبراى من « هيسود » ،  
اعتاد أن يفد فى بعض الأحيان ، ليعتاول الغداء معى ، وحيدين ،  
وكنا نتقاسم النفقات . ولقد كان يعمل — إذ ذاك — فى كتابه :  
« رسالة فى أصل المعرفة البشرية » ، الذى كان أول مؤلفاته .  
فلما فرغ منه ، تمثلت الحيرة فى العثور على كتبى يتكفل بنشره .  
إذ أن أصحاب المكتبات الباريسية يعاملون كل مبتدىء فى صلف  
وجفاء . وكان علم ما وراء الطبيعة غير شائع — إذ ذاك — ومن  
ثم فإِنَّه لم يكن مورداً لموضوع جذاب . ولقد تحدثت إلى  
« ديدرو » عن « كونديللاك » ومؤلفه ، وحملته على أن يتعرف  
إليه . ولقد خلقا لى يتوافقا ، فسرعان ما تألفا . وأغسرى  
« ديدرو » الكتبى « دوران » على أن يقبل مخطوط الراهب ،  
فتمسلم هذا العالم الكبير بما وراء الطبيعة ، فى مقابل كتابه  
الأول ، مائة « ايكو » ، وكان فى هذا إيثار له وتكريم ما كان من

المحتمل أن يلتقياها لولاي ١ . . ولما كنا نحن الثلاثة (١) نقيم في احياء متباعدة جدا ، فإتينا كنا نجتمع مرة في الأسبوع ، في (الباليه رويال) ، فنذهب لتناول الغداء معا في فندق (البانييه فلورى) . ولا بد أن هذه المأدبة الصغيرة الأسبوعية كانت محببة إلى ديدرو كثيرا ، إذ انه لم يتخلف عنها قط ، وهو الذى كان يخفق دائما في أن يذكر مواعيده الأخرى . ولقد رسمت - في تلك اللقاءات - خطة نشرة دورية تسمى « الساخر » (٢) ، على أن نكتبها بالتعاقب ، ديدرو وأنا . ولقد وضعت الخطوط الأولى للعدد الأول ، فإدى هذا إلى أن اتعرف إلى «داليبير» ، الذى حدثه ديدرو عن النشرة . غير أن أحداثا - لم تكن منظورة - اعترضت طريقنا ، فظل المشروع عند هذا الحد . وكان هذان المؤلفان (٣) قد اضطلعوا بوضع «قاموس محيط» ، قصد به - في البداية - أن يكون نظيرا مترجما لموسسوعة « تشامبرز » ، وقريب الشبه من « قاموس جيمس الطبى » الذى كان ديدرو قد فرغ من ترجمته . ولقد رغب ديدرو في أن يشركنى في بعض أجزاء مشروعه الثانى ، فاقترح على أن اضطلع بالقسم الموسيقى . وقد قبلت ، وأدبت مهمتى في عجلة ،

(١) الراهب وديدرو وروسو .

(٢) Le Persi Fleur

(٣) ديدرو وداليبير .

وفي غير إجابة ، خلال الأشهر الثلاثة التي حددتها لي ، كما  
 حددتها لكافة المؤلفين الذين قدر لهم أن يشتركوا في هذا  
 المشروع ، على أنني كنت الوحيد الذي كان قد أكمل عمله في  
 الموعد المعين ، فأسلمته مخطوطي ، الذي كنت قد عهدت  
 بنسخه إلى أحد وصفاء السيد دي فرانكويي ، ويدعى ديبون ،  
 مكتبه بخط حسن ، ودعمت له في مقابل ذلك — من جيبى  
 الخاص — عشر قطع من فئة «الايكو» ، لم يقدر لي قط أن  
 أستردها . إذ أن ديدرو كان قد وعدنى — باسم الناشرين —  
 بقسط من الأرباح ، لم يعد إلى محادثتى بشأنه مرة أخرى ،  
 ولا فاتحته أنا بصدده !

ولقد تعطل مشروع « الموسوعة » هذا بسبب سجنه .  
 واجتلب عليه كتابه « أفكار فلسفية » بعض مضايقات لم تؤد  
 إلى نتيجة ما . ولكن الأمر اختلف بالنسبة إلى كتابه « رسالة  
 عن العميان » ، الذى لم يشتمل على ما يستحق النقد فيها عدا  
 بعض مسائل شخصية رأت السيدة « دوبريه دي سان مارو »  
 والسيد « ريومير » أن فيها ما يمسها ، ومن ثم فقد سجن  
 ديدرو — من أجلها — في سجن ( فانسين ) . ولن يصف شيء  
 مدى التبايح التى أحدثتها في نفسى محنة صديقى . فإذا  
 بخيالى المكتئب — الذى اعتاد دائما أن يضخم المحن — يجمع في  
 انزعاجه ، إذ خيل إلى أن ديدرو قد يمكث هناك طيلة عمره ،  
 فكنت أجن لذلك ، وكتبت إلى السيدة دي بومبادور ، أناشدتها

إطلاق سراحه ، أو العمل على أن أحبس معه . ولم ألق ردا  
 ما من خطابي ، إذ أنه كان جد بعيد عن المعقول ، فلم يحدث  
 اثرا . ولست أدمى لنفسي فخر أن يكون خطابي قد ساهم  
 فيها حدث بعد ذلك ، من تخفيف متاعب السجن على يديرو  
 المسكين . على أنه لو كان قد قدر لهذا الحبس أن يستمر فترة  
 أخرى بنفس القسوة ، فليست أشك في أنني كنت أموت كهدا  
 وقنوطا ، تحت أسوار ذلك السجن اللعين . . وحتى إذا كان  
 خطابي قد أحدث مفعولا يسيرا ، فأننى لم أوله أهمية تذكر ،  
 حتى أنني لم أتحدث عنه إلا لنفر قليل من الناس . . ولم  
 أتحدث عنه إلى يديرو نفسه البتة !



## الكراسة الثامنة

سنة ١٧٤٩

خليق بي ان أقف قليلا إذ انتهت الكراسة السابقة . فمع الكراسة الحالية ، تبدأ أصول السلسلة الطويلة من المحن ، التي ألت بي .

لم يفتنى — أثناء ترددي على دارين من المع دور باريس — ان أعقد بعض صلات التعارف ، برغم قلة لباقتى . فتعرفت — حين تعرفت إليهم لدى السيدة دويان — إلى الأمير الشاب وريث إمارة ( ساكس جوتا ) ، وإلى مربية البارون دي تون ، كما تعرفت لدى السيد ديلا بويلينيير إلى السيد دي سيجاي ، صديق البارون دي تون ، وكان معروفا في عالم الأدب بالنسخة البديعة التي كانت لديه من ديوان « روسو » (١) . ولقد دعانا البارون — أقصد دعا السيد سيجاي وإياي — إلى قضاء يوم أو اثنين في ( فونتناي — سو — بوا ) ، حيث كان الأمير يمتلك دارا ، فذهبنا . . وفيما كنا نمر بفانسين ، شعرت بقلبي يتمزق ، إذ رأيت السجن . ولمح البارون آثار ذلك على وجهي . وعند العشاء ، تحدث الأمير عن سجن « ديدرو » ، فعمد البارون — ليحملني على الكلام — إلى اتهام السجين بالنزق . . وهو عين ما بدر مني في غلظتي إذ أنبريت للدفاع عنه ! . ولقد اغتفر لي هذا الاندفاع ، باعتباري رجلا أنساق لعاطفته

(١) الثامن: جان بابتيست روسو .

نحو صديق تعس ، واتخذ الحديث وجهة أخرى . وكان ثمة اثنان من الألمان الملحقين بخدمة الأمير ، أحدهما يدعى «كليفيل» ، وهو رجل جم الذكاء ، كان في ذلك الحين قسا راعيا للأمير ، وغدا نفيما بعد مربيا له ، خلفا للبارون . . أما الآخر ، فكان شابا يدعى السيد « جريم » ، كان يتكفل بالقراءة للأمير ، ريثما يتسنى له الحصول على منصب آخر . وكان تواضع ملبسه بنم عن شدة حاجته إلى ذلك .

ومنذ تلك الليلة ، بدأت بينى وبين كليفيل رابطة لم تثبت أن تطورت إلى صداقة . أما صلتى بالسيد جريم ، فلم تصل إلى هذا الحد بمثل هذه السرعة ، إذ أنه لم يكن يحاول أن يظهر ، بل كان بعيدا كل البعد عن حب الظهور الذى خلعه عليه الثراء فيما بعد . . ولقد دار الحديث عند القداء — في اليوم التالى — عن الموسيقى ، فلجاد الخوض فيه . وقد ابتهجت حين علمت أنه يحسن المصاحبة على المعزف ، فقضينا اليوم في موسيقى ، على معزف الأمير ، ومنذ ذلك الحين بدأت تلك الصداقة التى كانت جد لطيفة في أولها ، وجد نكدة في آخرها ، والتى ساكتر من الحديث عنها فيما بعد .

وإذ عدنا إلى باريس ، علمت بالنبا المفرح . . بأن ديدرو قد غادر «الزناينة» ، وأنه منح قلعة ومقننه ( فانسبن ) كسجن له — اعتمادا على وعد شرف منه — وسمح له بأن يستقبل أصدقاءه . ولكم شق على ألا أستطيع أن أهرع إليه في التوا . . فلقد تأخرت يومين أو ثلاثة ، لدى السبدة دويان ، بسبب واجبات لم يكن ثمة مفر منها . . وبعد ثلاثة أو أربعة

قرون من التلهف ، طرت لأرتقى بين ذراعى صديقى ! ..  
ويا لها من لحظة جلت عن الوصف ! .. ولم أجده وحيدا ، بل  
كان معه « داليمير » وأمين صندوق كنيسة « سانت شابيل »  
.. وإذ دخلت ، لم أر فى المكان سواه ، ولم أفعل سوى أن  
تفزت ، وأن صرخت .. والصقت وجهى بوجهه ، وضمته  
بشدة دون كلام سوى كلام دموعى وعبراتى .. كنت أختنق  
شوقا وطربا ! .. وكأنت أولى حركاته أن تخلص من عناقى ،  
واستدار نحو رجل الكنيسة قائلا : « أترى يا سيدى كيف  
يجبنى أصدقائى ؟ » .. وإذ كنت غارقا فى انفعالاتى ، غاننى  
لم أر من هذا المسلك سوى جانبه الطيب ، ولكننى إذ أفكر  
فيه أحيانا — بعد ذلك — أرى أن هذا لم يكن خليقا بأن  
يكون أول ما يخطر ببالى لو أتنى كنت فى موقف ديدرو !

ووجدته متأثرا بسجنه أشد التأثر ، فلقد تركت « الزنزانة »  
طابعا غظيما على نفسه ، ومع أنه ارتاح إلى المقام فى القلعة ،  
وقدا حرا فى التجول فى متنزه لم تكن تحيط به أسوار ، إلا أنه  
كان محتاجا إلى صحبة أصدقائه ، كى لا يستسلم للأفكار  
السوداء . ولما كنت الشخص الذى يعطف أشد العطف على  
الأمه — يقينا — فقد رأيت أننى ولا بد — كذلك — الشخص  
الذى تسرى منه رؤيته ، أكثر من أى شيء آخر . وبالرغم من  
وجود بعض الشواغل العاجلة الملحة ، فقد رحت أتردد عليه  
بعد ذلك — مرة كل يومين — وحيدا ، أو مع زوجته ، لأقضى  
معه فترة الأصيل .



وجاء الصيف في ذلك العام - ١٧٤٩ - شديد الحر . وكان ثمة فرسخان بين باريس وفانسين . ولما لم أكن في سعة تمكننى من استئجار عربة ، فقد اعتدت أن أنطلق في الساعة الثانية - من بعد الظهر - على قدمى ، إذا ما كنت وحيدا . . . وكنت أغذ السير لأصل في أقرب وقت . . . وكانت الأشجار القائمة على طول الطريق ، غير وارفة الأفنان ، على ما هو مألوف في تلك المنطقة ، فلم تكن تضى على شينا من الظل تقريبا ، وكثيرا ما كنت أرمى على الأرض ، وقد أرهقنى الحر والتعب ، ومجرت عن المضى . . . ولكى أخفف من سرعة انطلاقى ، عمدت إلى اصطحاب أحد الكتب خلال الرحلة . وفي ذات يوم ، اصطحبت كتاب « تقويم فرنسا » . وفيما كنت أقرأ لبان سبرى ، صادفت السؤال الذى طرحه المحفل العلمى لديجون ، ليكون موضوع مبارأة<sup>(١)</sup> العام التالى : « هل يساعد تقدم العلوم والفنون على إفساد الأخلاق أو على تطهيرها ؟ » . وما أن قرأت هذه الكلمات ، حتى تمثلت كونا آخر ، وغدوت إنسانا آخر . ومع اننى احتفظ بذكرى حية للأثر الذى أحدثته السؤال فى نفسى ، إلا أن تفاصيل الواقعة غابت عن بالى مذ أودعتها إحدى رسائلى الأربع إلى السيد دى « ماليزيرب » . وهذه إحدى الظواهر العجيبة التى تتصف بها ذاكرتى ، والتى

(١) كانت مبارأة سنوية يعدها المحفل العلمى بديجون ، لأحسن رسالة

تكتب فى الموضوع الذى يطرحه للمسابقة .

تستحق الذكر . فهي حين تسعفنى لا تبضى فى ذلك إلا طالما كنت معتمدا عليها . وما أن أسسكب ما استودعتهما إياه على الورق ، حتى تتخلى عنى . . وإذا ما كتبت شيئا مرة ، فأنى لا أعود أذكره إطلاقا ! . . وترافقتى هذه الظاهرة ، حتى فى الموسيقى . فقد كنت أعرف كثيرا من الأغاني عن ظهر قلب ، قبل أن أدرسها . ولكنى لم أكد أحقق الغناء من « النوتة » ، حتى عجزت عن استبقاء أية أغنية فى ذاكرتى ، وما أرانى أستطيع اليوم أن أردد أغنية واحدة بأكملها ، من كل الأغاني التى كنت أحبها !

والذى أذكره بجلاء — فى هذه المناسبة — هو أننى عندما بلغت ( فانسين ) كنت فى حال من الانفعال تشبه بحران الحمى . ولاحظ « ديدرو » ذلك ، فأفضيت إليه بالسبب ، وقررات عليه « مناجاة نابريشيوس » (١) ، التى كتبها بالقلم الرصاص ، تحت إحدى أشجار البلوط . فشجعنى على أن أنشر آرائى ، وأن أشارك فى المباراة . وقد كان هذا ! . . ومنذ تلك اللحظة غدوت من الضائعين . فلقد كان ما بقى من عمري ومن تعاساتى

---

(١) Prosopopée de Fabricius . . . وكان نابريشيوس قنصلا

من حكماء الرومان ، وقد عرف باتنهاب البسطة فى بوائبه الخفية ، وبالوفاء ، والنزاهة ، والتجرد من المصلحة الذاتية . واتخذ اسمه رمزا للرجل الذى يظل فقيرا سليم الذمة مهما يرتفع فى مناصب الحكم .

نتيجة لا مناس مني لهذه اللحظة من لحظات الاختبال والضلال (١) !

وتسامت مشاعري إلى مستوى أمكاري ، بسرعة تفوق التصور . فإذا بكل أهوائي التافهة تختنق في فورة الحقيقة والحرية والفضيلة . . وأدعى من هذا إلى الدهشة ، أن هذه الفورة ظلت محتدمة في مؤاذي طيلة أربع أو خمس سنوات أخرى ، بدرجة لعلها لم تساور قلب أي بشر آخر !

واقبلت على العمل في إعداد هذا المقال ، بطريقة جد عجيبة، اعتدت دائما أن أنتهجا في كل مؤلفاتي الأخرى تقريبا . فقد خصصتها بالساعات التي لم يكن النوم يواتيني فيها بالليل . وكنت أستغرق في التفكير وأنا في فراشي مغمض العينين، وأروح أقلب عباراتي في رأسي ، وأعاود تقليبها في عفاء لا يمكن تصوره، حتى إذا انتهيت إلى الرضاء عنها ، أودعتها ذاكرتي إلى أن أستطيع تسطيحها على الورق . ولكن الوقت الذي كان يستغرقه تهوؤي وارتداء ثيابي ، كان يضيعها على . . فإذا ما عكفت على ورقي ، لم يوافني شيء مما نظمته في بالي تقريبا .

---

(١) اضف « روسو » - في رسالة إلى « مالميزرب » توصيلات بديمة لهذه المناسبة ، اذ قل : « شعرت بدوار طاغ يستولي على رأسي ، يقبه نشوة السكران . . ويخفقان عنيف . . فلم أعد أملك أنفاسي وأنا أسير ، ومن ثم أرتيت على إحدى أشجار الطريق ، وقضيت نصف ساعة في هذا الاتعمال ، فلما أتت تبينت أن صدر صدري كان مغطلا بالدموع ، دون أن أكون قد شعرت بأنني فوجئتها » .

ورأيت أن أستخدم السيدة لوفاسير كسكرتيرة ، فأسسكتها مع ابنتها وزوجها على مقربة منى ، وكأنت هي التي تأتي في كل صباح لتوقد نارى وتؤدي الخدمات البسيطة التي أحتاج إليها ، اقتصادا لأجر الخادم ، وعند وصولها ، كنت ألقى عليها من سريرى ما أعددت في الليل . وقد أدى هذا النظام — الذى اتبعته زمنا طويلا — إلى إنقاذ كثير مما كان معرضا للنسيان ! . . حتى إذا فرغت من المقال ، عرضته على ديدرو ، الذى أبدى ارتياحا إليه ، وأشار إلى بعض تعديلات . على أن هذا العمل الأدبى الملىء بالحرارة والقوة ، كان يفتقد المنطق والترتيب افتقادا تاما ، فهو — دون كل ما أنساب من قلمى — أضعفها في الحجة ، وأقصرها إلى التناسب والتناسق . على أن من الكتابة لا يستوعب دفعة واحدة ، مهما تكن المواهب التى نطر المرء عليها !

وأرسلت هذا المقال ، دون أن أتحدث عنه إلى أحد ، اللهم إلا « جريم » — فيما أظن — إذ كنت قد بدأت أرتبط وإياه بأعظم ود ، منذ التحق بخدمة الكونت دى فرييز . وكان لديه معزف اتخذناه ملتقى يجمعنا ، مكنت أقضى مع « جريم » حوله كل لحظات فراغى ، نغنى الألحان الإيطالية وأغاني ملاحى الجندول ، دون انقطاع أو ملل من الصباح حتى المساء ، أو — بالأحرى — من المساء إلى الصباح . وعندما كنت لا أوجد في دار السيدة دويان ، فقد كان من المحقق أو أوجد لدى السيد « جريم » . أو معه — على الأقل — سواء في نزهة أو في مسرح . وكنت قد كلفت عن الذهاب إلى مسرح « الكوميدي ايتاليين » — الذى

كنت استمتع بحق دخوله بالمجان ، والذي لم يكن « جسيم »  
 يحبه — وأصبحت أتردد معه على « الكوييدى فرانسيز » ،  
 الذى كان مولعا به . وقصارى القول ان جاذبية قوية ربطتني  
 بهذا الشاب ، حتى اننى أصبحت لا أطيق بعدا عنه ، وحتى ان  
 العمه المسكينة (١) غدت موضع إهمال منى ! .. أقصد اننى  
 أقللت من زيارتى إياها ، إذ ان عاطفتى لم تهن لحظة واحدة  
 خلال حياتى !

ولقد أدت استحالة تقسيم وقت فراغى الضئيل بين ميولى ،  
 إلى ان تجددت لدى ، بقوة لا قبل لى بها ، الرغبة — التى  
 ساورتنى منذ وقت طويل — فى ان يكون لى ولتيريز مسكن  
 واحد . ولكن العقبة التى تمثلت فى عدد أفراد أسرتهما ، وفى  
 الحاجة إلى المال لشراء الأثاث — بوجه خاص — جعلتني  
 أمسك حتى ذلك الحين . ثم سئمت لى فرصة المحاولة ،  
 فانتهرتها .. ذلك ان السيد دى فرانتكويى والسيدة دويان شعرا  
 تماما بأن مبلغا يتراوح بين ثمانمائة وتسعمائة فرنك فى العام ،  
 مبلغ غير كاف ، فرغما من تلقاء نفسيهما مرتبى السنوى إلى  
 خمسين « لوى » . وفضلا عن هذا ، فان السيدة دويان لم  
 تكذ تسمع بأننى كنت أسعى إلى تأثيث مسكن خاص لى ، حتى  
 — ساعدتنى ببعض نفقات من أجل هذا الغرض . وبالإضافة  
 إلى الأثاث الذى كان لدى « تيريز » من قبل ، لمناشملنا ،  
 واستأجرنا مسكنا صغيرا فى مبنى « اللانجدوك » ، بشوارع

(١) ذكر « روسو » ان هذا اللعب أطلقه استداله على « تيريز » .

( جرينيل سانت اونوريه ) ، لدى قوم طيبى السمعة جدا ،  
ودبرنا معيشتنا قدر المستطاع ، واقبنا هناك فى امان وارتياح  
سبع سنوات . . . الى ان نزلت الى « الارميتاج » .



وكان والد تيريز كهلا طيبا ، مفرط الدعة ، يخاف زوجته كل  
الخوف ، ومن ثم فقد أطلق عليها لقب « الملازم كريمينيل » (١)  
الذى خلعه « جريم » بعد ذلك — على سبيل الدعابة — على  
ابنتها . ولم تكن السيدة لوفاسير تفتقر إلى حضور البديهة ،  
واقصد فى أدب الخطاب ، بل إنها كانت تفخر بأدبها وبسلوكها  
اللائق بالمجتمع الراقى ، بيد أنها كانت ذات رياء غريب لم أكن  
أطيقه . وكانت تقدم لابنتها من النصيح اسوأه ، وقد حاولت  
أن تحملها على أن تخدمنى وتمسك بى . . . وكانت تداهن  
أصدقائى — كلا على حدة — وتحاول أن تقترب إلى الواحد  
منهم على حساب الآخر ، أو على حسابى أنا . . . وفيها عدا  
لك فأنها كانت أما طيبة ، لأنها وجدت أن مصلحتها فى أن تكون  
كذلك . وكانت تتستر على أخطاء ابنتها ، لأنها كانت تفيد من  
وراء ذلك . . . هذه المرأة التى أغرقتهما بعنابتى ورعايتى  
وبالهدايا الصغيرة ، والتى كنت أتوق من قلبى إلى أن أحمل  
نفسى على حبها ، كانت — بسبب استحالة نجاحى فى هذ-

---

(١) Lieutenant Criminel كان قاضيا فى « الشاتيل » ، وهو

الاسم الذى يطلق على دار للقضاء فى باريس ، تضم اثنين من أقدم المحاكم ،  
أحدهما مدنية والأخرى جنائية .

الصدد - السبب الاول للتعيب الذى كنت أعانيه فى مسكنى الصغير . وغيا هذا ، فان بوسعى ان أقول إننى تذوقت - خلال هذه السنوات الست او السبع - اكمل هناء عائلى يسمح به الضعف البشرى !

كان قلب تيريزى قلب ملاك ، وقد عززت حياتنا المشتركة حبنا ، فأخذنا نزداد إحساسا - يوما بعد يوم - بأن كلا منا خلق للآخر . ولو قدر لمتعنا ان توصف ، لكانت بساطتها داعية للضحك ، سواء فى ذلك نزهاتنا خارج المدينة وحيدتين ، حيث كنت أنفق - بعظمة - ثمانية او عشرة « سو » فى إحدى الحانات . . او مشاؤنا البسيط فى النافذة ، وقد جلسنا متقابلين على مقعدين صغيرين ، فوق صندوق كان يشغل عرض فراغ النافذة . . فكانت هذه تستخدم - بهذا الوضع - كمائدة ، وكنا نستنشق الهواء الطلق ، ونشاهد ما حولنا ، والمارة . . ومع اننا كنا فى الطابق الرابع ، إلا انه كان فى وسعنا ان نطل على الطريق ، ونحن نتناول الطعام ، ترى منذ الذى يستطيع ان يصف ، بل منذ الذى يستطيع ان يشعر بمغتن هذه الوجبات التى كانت تتألف - فى مجموعها - من ريع رغيف من الخبز الخشن ، وبعض الكريز ، وقطعة صغيرة من الجبن ، ونصف « ستييه » (١) من النبيذ كنا نشربه معا . . أيتها الصداقة ، والبة ، والافة ، وراحة البال . . ما الذ مذاقك ! . لقد كنا

(١) نصف « الستييه » يعادل جزءا على ١٦ من الجالون .

تمكث أحيانا في جلستنا هذه إلى منتصف الليل ، دون أن نفكر في شيء ودون أن نفطن إلى الوقت ما لم تنبهنا الأم العجوز إليه ! . . ولكن لنُدع هذه التفاصيل التي قد تبدو عقيمة أو مضحكة ، فلقد اعتدت أن أشعر — وأن أصرح — دائما ، بأن الهناء الحق لا توصف !

ولقد حظيت — في نفس تلك الفترة تقريبا — بمتعة أخرى ، كانت أكثر خشونة من هذه . . وكانت آخر متعة من نوعها أندم عليها . فلقد ذكرت أن « كلبفيل » — القس — كان لطيفا ، ولم تكن علاقتي به تقل تولقا عن علاقتي بجريم ، حتى أصبحنا متآلفين . وكانا يتناولان الطعام أحيانا على مائنتي . وكانت هذه الوجبات تتجاوز حدود البساطة بعض الشيء ، كما كانت تزيدها مراحا فكاهات كلبفيل ونكاته المهذبة ، والمداعبات الجرمانية من « جريم » الذي لم يكن بعد قد طلق العيب . . ولم تكن الشهوة تتسلط على مآدبنا الصغيرة ، بل كان المرح يملأ مكانها . وقد شعرنا بارتياح إلى اجتماعاتنا ، فلم نعد نطيق افتراقا . وكان كلبفيل قد أمث مسكنا لفتية صغيرة ، لم تكف عن أن تهب نفسها لكل الناس ، لأنه لم يكن قادرا على أن يكفلها وحده ! . . وفي ذات مساء ، كنا نلج أحد المقاهي ، وإذا بنا نجد كلبفيل خارجا منه ، في طريقه إليها ليتناول العشاء معها . فدأبناه ببعض الفكاهات ، التي انتقم لنفسه منها بلباقة ، إذ اضطررنا إلى أن نشاركه نفس العشاء ، ثم راح يسخر منا بدوره . وبدأت لي الفتاة المسكينة حلوة السجيا ، مغرطة الدعة ، غير مدربة على مهنتها التي كانت تبصرها بها

— بقدر الإمكان — عجوز مأكرة كانت برفقتها . واستخفنا الحديث والنبذ إلى درجة نسينا معها أنفسنا . ولم يشأ كلبفيل الطبيب أن ينتقص من كرمه ، فتعاقب ثلاثتنا على غرفة مجاورة مع الفتاة ، التي لم تدر أكان لها أن تضحك أم أن تبكى ! . . ولقد اعتاد «جريم» دائما أن يؤكد أنه لم يمسسها، وأنه ما أطال المكث معها إلا ليستعذب إطالة انتظارنا ونفاد صبرنا . وإذا كان قد تعفف عنها ، فمن غير المحتمل أن ذلك كان عن توجس من الفتاة ، إذ أنه — قبل التحاقه بخدمة الكونت دي شيريز ، وأقامته في داره — أقام لدى فتيات من غانيات حي ( سسان روش ) بالذات .

وخرجت من شارع (ديه موانو) — حيث كانت الفتاة تقيم — وأنا أشد استحياء من القديس « بريو » ، حين بارح المنزل الذي أسكر فيه . ولقد كنت أتمثل قصتي بجلاء ، وأنا أكتب قصته! . . ولاحظت تيريز أن في الأمر شيئا ، لا سيما وانتهى كنت مرقبكا ، وكنت أبدو ساخطا على نفسي . وقد تخلفت من العيب ، بأن اعترفت لها بصراحة وإيجاز . وكم أحسنت صنعا ، إذ أن «جريم» جاءها — في الصباح التالي — متشفيا، وروى لها ذنبى في مبالغة . ومنذ ذلك الحين ، لم يكف قط عن أن يذكرها به في خبث وإغاضة . وكان هذا أشنع ذنوبه ، فقد كان من حقى — إذ أثمنتته على سرى طواعية ، وفي غير تحفظ — أن اتوقع منه ألا يحملنى على أن أنسى يوما على هذه الفتاة .

أبدا لم أشعر بطيبة قلب تيريزي ، كما شعرت بها في هذه المناسبة ، فقد أبدت من الذهول والاستنكار لتصرف « جريم » أكثر مما أبدت من الاستياء لعدم وفائي ، فلم اتجشم أكثر من أن تقبلت منها عتابا رقيقا مؤثرا ، لم ألمح خلاله أي أثر لسطو أو ضغينة !.. لقد كانت سذاجة عقل هذه الفتاة الرائعة ، تعادل طيبة قلبها ، وهذا جل ما يقال !.. على أن ثمة مثلا لذلك ، جديرا بالذكر ، يحضرني الآن .. فلقد ذكرت لها أن كلبيفل كان قسا ، وراعيا دينيا لأمر ( ساكس - جوثا ) . وكان القس - في رأيها - رجلا ممتازا ، حتى أنها في تخطيها بين الأفكار المتباينة ، أخذت كلبيفل على أنه « البابا » . ومن ثم فقد ظننتها اختبلت ، حين أنبأتني - ذات مرة - عند مودتي إلى المنزل ، بأن « البابا » قد حضر لزيارتي . واستدرجتها حتى أوضحت ، ثم انطلقت بأسرع ما وسعني لأروى هذه القصة لجريم وكلبيفل : الذي لصق به اسم « البابا » فيها بيننا .. كما أطلقنا على غانية شارع ( ديه موانو ) ، اسم « الماما جان » (١) !.. وكان هذا مثار ضحك مز علينا أن نخمده ، حتى كدنا نختنق !.. أن أولئك الذين جعلوني أقول - في خطاب حلالهم أن ينسبوه إلي - إنني لم أضحك في حياتي سوى مرتين ، لم يعرفوا شيئا عني في هذه الفترة ، أو في أيام صباي ، وإلا ما خطرت لهم هذه الفكرة إطلاقا !

(١) Papesse .. لم نجد ترجمة لهذه الكلمة خيرا من « الماما » !

## من سنة ١٧٥٠ إلى سنة ١٧٥٢

علمت في العمام التالي — سنة ١٧٥٠ — أن مقالى فاز  
 بالجائزة في ( ديجون ) ، وكنت قد كففت عن التفكير فيه . فليقظ  
 هذا النبأ — من جديد — كل الأفكار التى كانت قد أوجت إلى به ،  
 وبث فيها قوة جديدة ، وأدى إلى أن تحركت — للمرة الأولى —  
 رواسب البطولة والفضيلة التى كان أبى ووطنى وبلوتارخ قد  
 أودعوها قلبى فى طفولتى . فلم أجد ما هو أعظم وأجمل  
 من أن أكون حرا وفاضلا ، وأن أرتفع بنفسى فوق اعتبارات  
 الحظ والرأى العام ، ، وأن أكون مستقلا بذاتى . ومع أن الحياء  
 الزائف والخوف من الرأى العام منعانى — بادئ الأمر — من أن  
 أمضى وفقا لهذه المبادئ ، ومن أن أخرج فجأة ، وعلائية ، على  
 مادات وعرف القرن الذى أميش فيه . . إلا أننى منسذ ذاك  
 الحين عقدت عزمى ، ولم أرجىء تنفيذ ما انتويت لأمد أطول مما  
 كان يتطلبه هذا الانقلاب كى يغدو موفقا .

وفيما كنت أرسم فلسفتى عن واجبات الإنسان ، وقع حادث  
 جعلنى أفضل التفكير فى واجباتى الشخصية . فقد كانت تيريز  
 حبلى للمرة الثالثة . . وفى أمانة تامة بينى وبين نفسى ، وفى  
 اعتزاز مفرط صدف بى عن الرغبة فى أن تكون أعمالى مكفبة  
 لمبادئى ، شرعت أدرس مصير أولادى وعلاقتى بأهمهم ، على  
 ضوء قوانين الطبيعة ، والعدالة ، والعقل ، والدين . . الدين  
 القدسى ، الأزلى ، كما أراده خالقه ، لا كما شووه البشر فى  
 تظاهرهم بالرغبة فى تطهيره ، ولا كما حوله الناس — بقوانينهم

الموضوعة - إلى مجرد عقيدة قوامها الكلمات .. فان فرضي  
المستحيل لا يبهظ الناس ما داموا يتغافلون عن تنفيذه !

ولو اننى كنت مخطئا في استنتاجاتى ، لما كان ثمة ما هو  
ادمى للدهشة من الطمأنينة ، التى اقبلت بها عليها .. ولو اننى  
كنت من أولئك الناس ذوى المنبت الوضيع ، وذوى الأذان  
المغلقة دون صوت الطبيعة الرقيق ، وذوى النفوس التى لا ينبت  
فيها أى إحساس صادق بالعدالة والإنسانية ، لكان جمود قلبى  
ميسور الإدراك . ولكن ما أوتيت من حرارة القلب ، وإرهاف  
الحس ، وسهولة التعلق بالناس .. وهذا السلطان الذى كانت  
تقرضه على علاقاتى بهم ، وهذه اللوعات القاسية التى كنت  
امانيها إذا ما اضطررت إلى قطع العلاقات .. وهذه النية الطيبة  
التي فطرت عليها نحو أقرانى ، وحبى المتأجج لكل ما هو عظيم ،  
وما هو صادق ، وما هو جميل ، وما هو عدل .. وهذا الجزع  
من السوء بكل أنواعه ، وهذا العجز عن الكراهية والحد ، بل  
ومن تمنيهما .. وهذا الحنان ، وهذا الشعور الناعم بالوثاب  
الذى أحس به حين أرى كل ما هو فاضل وكريم ولطيف ..  
أفليس من الممكن لكل هذه الصفات أن تتألف في قلب واحد ،  
مع الحرمان الذى يدوس - في قبر ما تورع - أعذب الالتزامات  
وأحلاها ؟ .. لا . . . اننى لأشعر وأجاهر بأن هذا مستحيل ،  
فان جان جاك لم يكن قط عديم الشعور ، ناكرا لصلوات الرحم ،  
ولا كان أبدا جاحدا ، لحظة واحدة في حياته . . . ومن المحتمل  
أن أكون قد أخطأت ، ولكنى لم أكن قط قاسى القلب .. ولو  
اننى شئت أن أفضى بحججى ، لتكلمت أكثر مما ينبغى . وبما

أنها كانت من القوة بحيث أغسوتني ، فأننى أخشى أن تغوى كثيرين غيرى ، ولست أبغى أن أعرض الشبان — الذين قد يقرأون حديثى — لأن ينساقوا إلى الاساءة لأنفسهم بفضل هذا الخطأ . ومن ثم فسأكتفى بأن أقول إن غلطتى كانت على هذا النسق : إننى إذ أسلمت أولادى إلى الدولة لتربيتهم ، لعجزى عن تنشئتهم بنفسى ، وإذا قضيت عليهم بأن يصبحوا عمالا أو مزارعين ، بدلا من أن يصبحوا مغامرين وطلاب ثروة ، كنت أظننى أؤدى تصرفا يليق باب مواطن صالح ، وكنت أتمثل نفسى عضوا فى جمهورية أملاطون . ولقد أشعرتنى حسرات قلبى — فى أكثر من مرة ، فيما بعد — أننى كنت مخطئا ، ولكن عقلى كان أبعد من أن يوحى إلى بنفسى الرأى ، ومن ثم فأننى كثيرا ما باركت السماء لأنها صانتهم مما لقيه أبوه فى حياته ، ومن الحظ الذى كان يهددهم إذا ما اضطرتت إلى التخلي عنهم . ولو أننى أسلمتهم إلى السيدة ديبيناى ، أو السيدة دى لوكسمبورج ، اللتين رغبنا — فيما بعد — فى أن تكفلاهم ، سواء بدافع من الصداقة ، أو من الكرم ، أو من الخ حافز آخر . . لو أننى فعلت ذلك ، فهل تراهم كانوا يغدون أكثر سعادة ، أو ينشأون رجالا أمناء محترمين ، على الأقل ؟ . . لست أدري ، ولكننى واثق من أنهم كانوا خليقين بأن ينشأوا على كراهية أبويهم ، وربما على الغدر بها . . ومن ثم فقد كان من الأفضل مائة مرة ، أنهم لم يعرفوا أبويهم ! وهكذا أسلم ابنى الثالث إلى ملجأ اللقطاء ، كما كان شأن الطفلين السابقين . . وكذلك كان شأن الطفلين التاليين، إذ أننى

أوتيت خمسة . ولقد بدا لى هذا الاجراء ملائما ، حكيما ،  
 مشروعا إلى درجة أننى إذا كنت لم أنخر به علانية ، فإنما كنت  
 أصدر فى ذلك عن شيء من مراعاة خاطر أهم . . على أننى  
 أنبأت به كل أولئك الذين كنت قد أطلعتهم على ملاقتى بها . .  
 قلته لديدرو ، ولجريم ، كما ذكرته . . فيما بعد . . للسيدة  
 ديبيناي ، ثم للسيدة دى لوكسمبورج بعد ذلك . . ولقد فعلت  
 ذلك فى صراحة ، وبمطلق الحرية ، دون أى اضطراب ، وكان  
 بوسعى أن أخفى الأمر بسهولة عن الناس أجمعين . . إذ أن  
 الأنسة «جوان» (١) كانت أمينة ، كتومة جدا ، وكان بوسعى أن  
 أطمئن إليها كل الاطمئنان . وكان الوحيد من أصدقائى ، الذى  
 كنت أجد مصلحة فى أن أكشف له سرى ، هو الطبيب «ثيرى» ،  
 الذى عنى بمعنى المسكينة فى إحدى مرات الوضع ، عندما  
 سمعت حالها . ومجمل القول أننى لم أحط تصرفى بشيء من  
 الغموض ، لا لأننى لم أتعلم قط أن أكنم شيئا عن أصدقائى  
 محسب ، وإنما لأننى لم أكن أرى . . فى الواقع . . أى ضرر  
 ذلك . . إذ أننى . . إذا قدرنا كافة الامتبارات . . قد اخترت  
 لأولادى الخير ، أو ما آمنت بأنه الخير . بل أننى كنت أتمنى  
 . . ولا أزال . . لو أننى نشأت وتربيت على شاكلتهم !



(١) الأنسة «جوان» هى الغائبة أو المولدة التى كانت تعنى بفيريز عند

الوضع ، وتتكل بإسلام الأطفال إلى ملجأ اللطماء . .

وفي الوقت الذي كنت أسجل فيه اعترافاتي هذه ، كانت السيدة لوفاسير تحذو حذوي — من ناحيتها — بيد أنها كانت تعرض آراء أقل تشويقا . وكنت قد قدمتهما — هي وابنتها — إلى السيدة دويان التي أولتهما ألف آية من آيات الطيبة ، بدافع من صداقتها لي . ولقد أطلعتهما الأم على سر ابنتها . فما كان من السيدة دويان الطيبة ، السخية ، التي لم تطلع قط على مدى حرصى على أن أوغر لهما كل أسباب العيش — برغم تواضع مواردى — إلا أن كتلت للابنة معاشا سخيا كتبت عنى هذه سره ، بأمر من أمها ، طيلة مقامى فى باريس ، فلم تعترف لى به إلا فى « الأرميتاج » ، وبعد أن كشفت لى عن عدة أمور أخرى كتبت تخفيها فى صدرها . ولقد كنت أجهل أن للسيدة دويان علما بشيء ، إذ أنها لم تبد إطلاقا أية إشارة . . كما أتنى أجهل ما إذا كانت السيدة دى شينوتسو — زوجة ابنها — على علم بالامر . هى الأخرى . على أن السيدة دى فرانكويى — زوجة ابن زوجها — أحاطت به ، ولم تستطع أن تمسك لسانها ، فتحدثت إلى منه فى العام التالى ، بعد أن كنت قد تركت دار الأسرة . وقد حملنى هذا على أن أكتب لها — عن هذا الموضوع — رسالة توجد فى أظابيرى ، وقد عرضت فيها من حججى ما كان بوسعى أن أذكره دون أن أقحم السيدة لوفاسير وأسرنها ، إذ أن معظم الحجج والأسباب الحاسمة كانت منبعثة من ناحيتهم ، وقد تكتمتها (١) .

(١) شتد هذه « الأسباب الحاسمة » فى الكراسة الخامسة .

اقتنى لألمثن إلى كتمان السيدة دويان للأمر ، وإلى مسودة السيدة دى شينونسو ، وكذلك كنت مطمئنا من ناحية السيدة دى فرانكويي ، لا سيما وأنها توفيت قبيل أن يشيع سرى مدويا ، بوقت طويل . ومن ثم فانه ما كان ليتفشى إلا على السنة أولئك الذين أفضيت إليهم به بالذات ! .. والواقع أن هذا لم يحدث إلا بعد أن تقطعت بينى وبينهم الصلات . وبهذا وحده يمكن الحكم عليهم في الواقع ، دون رغبة منى في أن أعفى نفسي من اللوم الذى استحقته ، بل اننى لأوثر أن آخذ الذنب على عاتقى ، على أن أقضى عليهم بما يستحقه خبثهم . إن ذنبى لعظيم ، ولكنه لا يعدو أن يكون خطأ .. فلقد أهملت واجباتى ، بيد أن الرغبة في الإيذاء لم تداخل غواذى أبدا ، ولن يقدر لمشاعر الأب أن تتحدث باقناع من أطفال لم يرهم إطلاقا .. ولكن خيانة ثقة الصداقة ، وانتهاك حرمة أقدس المعاهدات ، ونشر الأسرار التى سكبت في صدورنا ، والخط عمدا من قدر الصديق المخدوع الذى ما يزال يحترمنا وهو ينأى بجانبه منا .. هذا كلها ليست أخطاء ، ولكنها خسة نفس وسخيفة !

لقد وعدت بأن أقدم اعترافاتي ، لا تبريرات تصرفاتي . ومن ثم فاني أقف .. في هذا الموضوع .. عند هذا الحد . ومن واجبي أن أكون صادقا ، وللغاريء أن يكون عادلا . ولن أطالبه قط بأكثر من هذا .



وإلى زواج السيد دى شينونسو إلى أن أصبحت أكثر ارتياحا إلى دار أمه ، بفضل مزايا الزوجة الجديدة وعقلها .

فقد كانت شابة مغرطة اللطف ، بدا انها أثرتني من بين الكتبة الذين كانوا في خدمة السيد دويان . . وكانت الانسة الوحيدة للسيدة فيكونتة دي بروشيشوار ، الصديقة الحميمية للكونت دي فرييز ، وبالتالي لجريم الذي كان ملحقا بخدمته . على اننى كنت الشخص الذى قدمه إلى ابنته وادخله دارها ! (١) ولكن طباعهما لم تتفق ، ومن ثم فان هذه الصلة لم تدم طويلا . اما « جريم » - الذى لم يكن يضع عينيه ، منذ ذلك الحين ، إلا على كل ما فيه نفع مؤزر - فقد أثر الأم ، التى كانت من نجوم المجتمع الراقى ، على الابنة التى كانت تنشد أصدقاء تثق بهم وترتاح إليهم ، ولا يكون لهم شأن بأية مؤامرة أو دسيسة ، ولا يسمعون إلى غاية بين العظماء . . . وإذ لم تجد السيدة دويان في السيدة دي شينونسو كل ما كانت ترجوه من لبن ، أحالت دارها إلى مكان كئيب بالنسبة للشابة . فآثرت السيدة دي شينونسو - التى كانت معتزة بميزاتها ، وربما بمنبتها أيضا - أن تنبذ ملاهى المجتمع ، وأن تبقى وحيدة - تقريبا - في مخدعها ، على أن تحتل نيرا لم تكن تحس بأنه يلائمها !

ولقد أدى هذا الاعتزال إلى مضاعفة تعلقى بها ، مدفوعا بذلك الميل الطبيعى الذى كان يجتذبنى إلى التعساء . ولقد وجدت فيها عقلا مفكرا يميل إلى ما وراء الطبيعة ، وإن كان في بعض الأحيان ينحو إلى السفسطة . وكان حديثها جـد

(١) يقصد « روسو » أن العروس كانت ابنة الكونت دي فرييز من علانة بالفيكونتة دي بروشيشوار ، ولكنها نسب للفيكونت ، ومن ثم فانها كانت تجهل ابهاما الحقيقي ، الذى قدم اليها كصديق !

جذاب لى . إذ أنه كان بعيدا عن أن يكون حديث شابة تركت مدرسة الدير من عهد قريب ، ومع عمقه هذا ، فاتها لم تكن قد بلغت العشرين من عمرها ! . . . وكانت بشرتها بيضاء فاصعة تبهر الأبصار ، كما أن قوامها كان خليقا بأن يبدو مهيبا وجميلا ، لو أنها أقامت عودها مستويا . أما شعرها فقد اختلطت شقرته بسمرة باهتة ، في جمال نادر ، مما كان يذكسرنى بهما البائسة في أوج شبابها ، فكان يهيج مؤادى . بيد أن المبادئ القوية التى كنت قد رسمتها لنفسى — من عهد قريب — وآليت أن اتبعها بها تكبدت ، جعلتنى في أمان منها ومن مفاتنها ! . . . ولقد اعتدت — طيلة فصل الصيف بأكمله — أن أقضى معها ثلاث أو أربع ساعات في عزلة ، ألقتها الحسب في درس جدى ، وأضايقتها بأرقامى التى لا تنتهى ، دون أن أقول لها كلمة غزا واحدة ، ودون أن أرمتها بنظرة ! . . . ولو أن هذا حدث بعد خمس أو ست سنوات من تلك الفترة ، لما كنت تمينا بأن أكون عاقلا أو غبيا إلى هذا الحد . . . ولكن القدر كان قد كتب على ألا أحب حبا حقيقيا سوى مرة واحدة في حياتى ، وأن تكون أول وآخر زهرات قلبى وقفنا على امرأة غير هذه !

ولقد كنت دائما — مذ أقمت في دار السيدة دويان — راضيا بنصيبى ، لا أبدى أية رغبة في أن يتحسن . ولقد جاءت الزيادة التى أضافتها السيدة إلى مرتبى — بالاشتراك مع السيد دى فرانكويى — صادرة عن محض إرادتهما وحدهما بحسب . . . وفي هذا العام ، فكر السيد دى فرانكويى — الذى كانت صداقته لى تزداد يوما بعد يوم — في أن يضعنى في مركز أعلى قبدر

وأكثر ثباتا . ولقد كان محصلا عاما لمالية فرنسسا ، وإذا كان السيد دودوييه — أمين خزانته — مكتهلا وغنيا ، وراغبيا في أن يعتزل العمل ، فقد عرض على السيد دي فرانكويي هذا المنصب . . ولكي أعد نفسي لتولييه ، ترددت لبضعة اسابيع على دار السيد دودوييه لالتقى معه الارشادات الضرورية . وسواء كنت لم أوت موهبة لهذا العمل ، أو أن دودوييه — الذي بدا لي راغبيا في أن يعهد بهذا المنصب إلى خليفة آخر — لم يكن يلقتني أصول المهنة من طيب خاطر ، فأننى رحت ألم بالمعلومات التى كنت محتاجا إليها ، فى ببطء وسوء استيعاب . . ولم ينفذ إلى راسي قط نظام الحسابات التى كانت معقدة عن قصد ونية مبيتة . على أننى وإن لم أستوعب دقائق المهنة ، لم اتوان قط من أن أمضى مهرانا نحو المقدرة على ممارسة مهام الإدارة . بل أننى شرعت فيها ، فتوليت السجلات والخزانة ، وصرفت وتسلمت نقودا ، وأصدرت إيصالات . ومع أن ما لدى من ميل أقل من أن يؤهلنى لهذه المهنة ، إلا أن تقدم سننى جعلنى حكيما ، فاعتقدت العزم على أن اتغلب على نفورى من أن أنصرف بكل نفسى إلى وظيفتى . ولكن سوء الحظ شاء — فى الوقت الذى بدأت أألف عملى فيه — أن يقوم السيد دي فرانكويي برحلة قصيرة ، ظلمت خلالها الموكل الوحيد بخزائنه ، التى لم يكن يودعها — فى ذلك الوقت — سوى مبلغ يتراوح بين خمسة وعشرين ألفا وثلاثين ألفا من الفرنكات . فإذا القلق وانتشغال البال ، اللذان سببتهما هذه الامانة ، يقنعاننى بأننى لم أخلق لأكون صرافا . ولست أرتاب فى أن اللهفة التى رحت أرتقب بها عودة السيد

دى فرانكوى قد ساهمت فى المرض الذى وقعت فريسته عقب هذه العودة !

ولقد قلت فى الجزء الأول من اعترافى إننى كنت موشكا على الموت عندما ولدت . وكان ثمة عيب فى تكوين المثانة ، أدى إلى احتباس البول بصفة شبه مستمرة ، خلال سننى عمى الأولى ، فكانت عمى «سوزان» — التى تولت العناية بى — تلقى عناء لا يمكن تصوره ، كى تصون حياتى . على أنها أفلحت فى ذلك ، واستطاعت بنيتى القوية أن تغلب فى النهاية ، فتحصنت صحتى كثيرا خلال صباى . . وفيما عدا نوبة الضعف والهزال التى ذكرتها من قبل ، وفيما عدا كثرة احتياجى إلى التبول ، الأمر الذى كان أقل ارتفاع فى الحرارة يجعله عملية متعبة . . فيما عدا ذلك غائى بلغت الثلاثين من عمى ، دون أن أحس بما كان فى جسمى من عيب سابق .

وأصابتنى أولى العلل عند وصولى إلى البندقية . فان عناء الرحلة والحر الشديد الذى عانيت به ، جلبا على رغبة مستمرة فى التبول ، وأوجعا فى الكليتين ، لازمتنى حتى مقدم الشتاء . ولقد أيقنت بعد زيارتى للموسم (١) أننى ميت ، ولكنى — مع ذلك — لم أعان أقل تعب . . وبعد أن أرهقت نفسى بالوهم — أكثر منى بالأم جسدية — بسبب «جولييتا» ، إذا بصحتى خير مما كانت فى أى يوم . وظللت هكذا إلى ما بعد سجن ديدرو ، إذ أن اشتداد سخونة دمى — خلال رحلتى إلى فانسبن فى الحر

(١) ورئت هذه الواقعة فى صفحة ٦٢ من هذا الجزء .

القائظ الذي كان سائدا إذ ذاك — أدى إلى ألم عنيف في الكليتين،  
لم أستعد — مذ واتاني — صحتي الأولى !

وفي الفترة التي اتحدث عنها ، أدى إسرافي في إرهاق نفسي  
بالمعمل البغيض في تلك الخزانة اللعينة ، إلى أن اضمحلت  
صحتي أكثر من ذي قبل ، ومكثت في فراشي خمسة أسابيع  
أو ستة ، في أشد اهتمام يمكن تصوره . وأوفدت السيدة  
دوبان لعيادتي «موران» ، الذي كان ذائع الصيت ، والذي سبب  
لي — برغم مهارته ورقة لمساته — أوجاعا لا تخطر ببال ، ولم  
يستطع قط أن يصل إلى موطن علتي ، فنصحني بأن الجأ إلى  
«داران» ، الذي استطاع بمجساته — وكانت أكثر مرونة — أن  
يخفف عني بعض الأوجاع . على أن موران — حين أنبا السيدة  
دوبان بحالي — صارحها بأنني لن أكون على قيد الحياة بعد  
سنة أشهر . وحملني هذا الحديث — الذي نمتي إلى — على أن  
أفكر جديا في حالي ، وفي حماقة التضحية براحة جسمي وبالي  
في الأيام القلائل التي تبقّت لي في الحياة ، لأغدو مستعبدا لوظيفة  
لم أكن أشعر نحوها بأي ميل ! .. ومن ناحية أخرى ، كيف  
كان لي أن أوفق بين المبادئ القاسية التي اتخذتها لنفسي وبين  
منصب لم يكن يتسق معها إلا قليلا ؟ .. ألم يكن من المجافاة  
للذوق أن أدمو — وأنا المحصل العام للمالية — إلى التجرد من  
المصلحة الذاتية ، وإلى الفقر ؟

واشتد تخمر هذه الآراء في رأسي باشتداد الحمى ، وراحت  
تتماسك بقوة ، حتى أن شيئا لم يقو — منذ ذاك الحين — على  
تبديدها ، لموطدت عزمي — خلال فترة نقاهتي — على تنفيذ

ما استقر عليه رأيي خلال بحران الحمى ! .. ونبذت إلى الأبد كل مشروع للإثراء والرفعة ، معترفاً أن اقضى في الاستقلال والفقر ، الفترة القصيرة التي تبقت لى في الحياة ، فاستخدمت كل قوى روحي في تحطيم أغلال الراى العام ، وفي أن أقدم بشجاعة على ما أراه خيراً ، دون أن أحفل البتة برأى الناس . وكانت العقبات التي اضطررت لمغالبتها ، والجهود التي بذلتها للانتصار عليها ، فوق كل تصور . وقد وفقت بقدر المستطاع ، بل وأكثر مما كنت أرجو ، ولو أنني نجحت في أن ادفع عنى رغبة الصداقة ، بقدر توفيقى في التحرر من رغبة الراى العام ، لبلغت غاية ما ربي ، بل لعلها كانت أعظم الغايات التي خطرت لمخلوق فان ، وأدعأها — على الأقل — للفضيلة .. على أنني — إذا رحمت اتخبطت تحت أقدام الأحكام الخرفاء التي تصدر من قطع الادعاء الذين يسمون العظماء ، والذين يسمون الحكماء — أسلم نفسي وأنقاد كالطفل لأولئك الذين كانوا يسمون أنفسهم اصحاء ، والذين كانوا يغارون من أن يرونى أشقى وحدى طريقاً جديدة . وأنا أبدو جد منهمك في إسعاد نفسي ، فلم يعودوا يفكرون — في الواقع — إلا في أن يجعلونى مثاراً للضحك ، وشرعوا في العمل على تحقيرى ، لكى يصلوا من وراء ذلك إلى تشويه سمعتى ! .. كان تغير شخصيتى ، الذى بدأ في هذه الفترة — وليست شهرة الأدبية — هو الذى أثار غيرتهم منى .. ولعلهم كانوا على استعداد لأن يغفروا لى إن لمعت في من الكتابة ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يغفروا لى أن ضربت بمسلكى مثالا بدا أنه ضايقهم ! .. لقد غطرت على الود ، فكانت طباعى السلسلة الودية تغذى هذا الود دون عناء . ولقد كنت محبوباً

من كل أولئك الذين عرفوني ، طالما كنت أعيش مجهولا لدى  
الرأى العام ، فلم يكن لى عدو واحد . . . على أن اسمى لم يكذب  
يلمع ، حتى أصبحت بلا أصدقاء . . . وكانت هذه نكبة كبرى ،  
ولكن الأكبر منها أنتى كنت محاطا بقوم كانوا يسمون أنفسهم  
إصدقاء ، فى حين أنهم لم يكونوا يستغلون الامتيازات التى  
يتيحها لهم هذا الاسم ، إلا لى يجرونى إلى الهلاك . . . ولسوف  
تكشف فى سياق هذه المذكرات ، تلك المؤامرة البشعة . على  
أنتى سأكتفى . . . فى الوقت الحاضر . . . بأن أشير إلى أصلها ،  
وسيتبدى عما قريب كيف تشكلت أولى حلقاتها !



كان لا بد لى ، فى الاستقلال الذى أردت أن أحيه فيه ،  
من أن أحصل على القوت . وصور لى خيالى وسيلة جد  
سهلة ، هى نسخ الموسيقى مقابل كذا للصفحة . ولو أن عبلا  
أكثر ثباتا من هذا كان يؤدى إلى الغاية ذاتها ، لأقمت عليه .  
ولكن هذه المهنة كانت توائم ميولى ، كما أنها كانت الوحيدة  
الكفيلة بأن تهيب لى قوتى من يوم إلى آخر ، دون أن تقتضى  
خضوعا أو تبعية لأحد . ومن ثم فقد قنعت بها . . . واعتقادا  
منى بأننى لم أعد بحاجة إلى أن أعول هم المستقبل ، خنقت  
صوت غرورى ، وانقلبت من صراف لأحد رجال المال ، إلى  
ناسخ موسيقى . . . وظننت أنتى قد كسبت كثيرا بهذا الاختيار ،  
فلم يداخلى ندم يذكر ، حتى أنتى لم اتخل عن هذه المهنة إلا  
بحكم الظروف القاهرة ، لأعود فاحترفها بمجرد أن وسعنى ذلك .  
ولقد أدى نجاح مقالى الأول إلى زيادة تيسير تحقيق هذا

القرار . وقد تكفل ديڤرو يطبع المقال بعد فوزه بالجائزة .  
وقد كتب لى - وأنا طريح الفراش - رسالة أعلننى فيها بنشر  
المقال وبنتيجة ذلك . فقال : « لقد حظى بكل إطرء .. وما كان  
لمثل هذا النجاح مثيل من قبل » . ولقد منحنى هذا التحبيذ  
الذى أولاه الراى العام من رضى لكاتب مغمور - أول اطمئنان  
حقيقى إلى كفايتى التى كنت فى ريبب منها قبيل ذلك ، برغم  
مشاعرى الداخلية . وتبينت النفع العظيم الذى كان بوسعى  
أن أظفر به من هذه الكفاءة ، بالنسبة إلى القرار الذى كنت أهم  
بتنفيذه ، وقدرت أن ناسخا على قسط من الشهرة الأدبية ، لن  
يعاتى الحاجة إلى العمل إطلاقا !

وما أن استقر رأى وتوطد عزمى ، حتى كتبت إلى السيد  
دى فرانكوى أنبئه بذلك ، واشكر له - والسيدة دويان كذلك -  
كل ائتمهما ، سائلا إياهما أن يعهدا إلى بما يرغبان فى نسخه  
ولم يفته فرانكوى من هذه الرسالة شيئا ، بل ظن أننى مازلت  
فى بحران الحمى ، فهرع إلى دارى ، ولكنه وجد أن رأى كان  
قد استقر تماما ، إلى درجة أنه لم يستطع أن يزعم عنى عنه ..  
وذهب فأنبا السيدة دويان والناس كلهم بأننى قد اختللت ،  
متركته يقول ما شاء ، ومضيت فى طريقى . وبدأت إصلاح  
نفسى بملبسى ، فتخلّيت عن الزوائد المطرزة بالتصيب ، وعن  
الجوارب البيضاء ، وارتديت قلنسوة مستديرة من الشعر  
المستعار ، وطرحيت عنى سيفى ، وبعثت ساعتى ، وهتفت  
لنفسى فى غبطة تتوق التصور : « الحمد للسماء ، فلن تعود بى  
حاجة إلى تعرف كم الساعة ! » . وتكرم السيد دى فرانكوى

بالقريب فترة طويلة ، قبل أن يتصرف بشأن خزانته ، حتى إذا رأى — في النهاية — أنني مصر على قراري ، عين السيد دالبيار ، الذي كان قبل ذلك مربيا ومعلما لشيونونسو في صفرة ، والذي كان معروفا في ميدان فلاحة البساتين بكتابه عن « الزهور الباريسية » (١) .

ومما خفف من عنت انقلابي التقشفي ، أنني لم أطبق الزهد — في البداية — على ملابس الداخلية المتبقية مما كان لدى في ( البنديقية ) فقد كانت جميلة ووفيرة ، وكنت مولعا بها بوجه خاص . وبفضل اضطراري إلى أن أتخذها مظهرا للنظافة ، إذا بي أجعلها موضع بذخ وترق ، الأمر الذي لم يلبث أن أبهظني . ولقد تكرم علي شخص ما فخلصني من هذه الريقة . ففي أمسية عيد الميلاد ، وبينما كانت الخادمت في قداس الغروب ، بينما كنت في « حفلة موسيقية روحية » (٢) أغتصب باب غرفة في أعلى الدار ، كان غسيلنا منشورا فيها بعد غسله . . وسرقت الثياب جميعها ، وكان بينها اثنان وأربعون قميصا لي من أبداع الأقمشة ، كانت تؤلف الشطر الأكبر من ثيابي الداخلية . ومما

---

(١) أضف « روسو » إلى هذا قوله : « لست أشك إطلاقا في أن فرانكوي وخلصاءه يرددون رواية منافضة لهذه ، ولكني استشهد بما خاله فرانكوي — إذ ذاك — وما ظل يردده للملا وقتا طويلا بعد ذلك ، إلى أن تكونت المؤامرة . ولابد أن ثوى الإدراك السليم والامم الطيبة ، لا يزالون يذكرون قوله » .

(٢) وهي حفلات لا تعزف فيها سوى الموسيقى الدينية ، كتقوع من الرياضة الروحية .

ذكره الجيران شوهد رجل يغادر الدار — في تلك الفترة — حاملا بعض اللقائف . ولقد ارتابت تيريز وإيلى في أخيهما ، الذى عرف بأنه امرؤ سوء . . . وراحت الأم تدفع هذا الاشتباه بحمية ، ولكنه تأكد بأدلة كثيرة عززته لدينا ، بالرغم من استنكارها إياه . ولم أجسر على القيام بتحقيق دقيق ، خشية ان اكتشف أكثر مما كنت أحب . على أن الأخ لم يظهر بعد ذلك فى دارى ، وما لبث أن اختفى تماما . ولقد رثيت لسوء طالع تيريز وطالعى ، لارتباطنا بأسرة على هذه الشاكلة ، ورحلت أناشدها أكثر من ذى قبل ، أن تطرح عنها عبءا خطيرا كهذا . ولقد أبرأنى هذا الحادث من ولعى بالثياب الداخلية الجميلة ، ولم أعد أقتنى بعد ذلك سوى ثياب من أقمشة عادية ، تتمشى مع بقية ملابسى .

وإذ استكملت انقلابى الإصلاحى بهذا الشكل ، لم يعد لى من هم سوى أن أدمعه وأعززه ، بالعمل على أن أجتث من قلبى كل ما كان عرضة للتأثر بآراء الناس . . . وكل ما كان يوسع به ان يحولنى — بدافع من الخوف أو من اللوم — عن كل ما كان فى حد ذاته طيبا ومعقولا . وإلى جانب الضجة التى أحدثتها مقالى ، أثار قرارى ضجة هو الآخر ، وجلب على عملا مكنتى من أن أبدا مهنتى الجديدة بتوفيق لا بأس به . على أن عدة أسباب عاقبتنى عن أن أنجح فى هذه المهنة بالقدر الذى كنت تمينا بأحصل عليه فى ظروف أخرى . وكان أول هذه الأسباب صحة السيئة . فان مرضى الأخير خلف معقبات منعتنى من استبعاد حالى الصحية السابقة ، وانى لأعتقد بأن الأطباء الذين

أسلمت نفسي إلى رعايتهم ، الحقوا بي من الضرر فوق ما الحقته  
 المرضى . فلتقد سسعت بالتوالى إلى موران ، فدوران ،  
 مهيلىتيوس ، مبالوان ، فثيرى . . وكانوا جميعا من الأساتذة ،  
 وكلهم من أصدقائى ، وقد عالجنى كل منهم على طريقته دون أن  
 يخفف عنى شيئا ، بل أنهم أضعفونى كثيرا . وكنت كلما حملت  
 نفسى على اتباع إرشاداتهم ، ازدبت شحوبا ، وهزالا ،  
 وضعفا . وأخذ خيالى — الذى أزعجوه — يقيس حالى بمدى  
 مفعول عقابهم ، فلم يعد يصور لى سوى سلسلة متتابعة  
 من الآلام ، التى تسبق الموت ، ومن احتباس البول ،  
 والحصباء ، وأحجار القبر ! . . كانت كل ألوان العلاج التى تخفف  
 من الغير — من مياه طبية ، وحمامات ، وحجامة — لا تزيد  
 أوجامى إلا استفحالا . وإذا وجدت أن مجسات داران — وهى  
 الوحيدة التى أدت إلى بعض النتائج ، وجعلتنى أعتقد أن  
 لا سبيل لى إلى الحياة بدونها — لم تكن تهيب لى ، برغم ذلك ،  
 سوى تسكين مؤقت للأوجاع ، فقد بادرت إلى إنفاق مبلغ جسيم  
 فى اقتناء كمية هائلة من المجسات تكفينى طيلة العمر ، ولو غارق  
 داران الحياة ! . . ولا بد أننى أنفقت خمسين « لوى » على  
 الأقل ، خلال السنوات الثماني أو العشر التى استخدمت فيها  
 هذه المجسات دون انقطاع ! . . ومن اليسر تبين أن علاجى  
 ياهظ النفقات ، مؤلما مزعجا كهذا ، كان يشغلنى عن العمل ،  
 وأن المرء إذا ما كان مشرفا على الموت ، لا يشعر برغبة  
 ملهونة فى كسب خبزه اليومى !

وكانت الشواغل الأدبية ملهأة أخرى ، لا تقل عن سابقتها  
عدوانا على عملي اليومي . فما هو أن نشر مقالتي ، حتى انقضى  
على حياة الأدب ، وكأنهم عصابة جمعت صفوفها . وعاظمتي أن  
أجد مثل هذا العدد من « السادة جس » الصغار (١) ، يحاولون  
أن يفرضوا سلطاتهم وإن لم يكونوا على دراية بالامر ، فقد  
امتشقت قلبي ، وعالجت فريقا منهم بطريقة لم تدع ضحكات  
في صفوفهم ! . . وكان أول المتهاوين تحت طعنات قلبي ، سيد  
من ( نانسي ) يدعى السيد جوتييه ، فقد أهين بغلظة في رسالة  
إلى « جريم » . أما الثاني ، فكان الملك « ستانيسلاس » (٢)  
نفسه ، الذي لم يتورع عن أن يخوض المعركة ضدّي : وقد  
اضطرنني الشرف الذي أضفاه عليّ ، إلى أن أبدل لهجتي في الرأ  
عليه ، فأتخذت لهجة أكثر وقارا ، وإن لم تكن أقل شدة .  
فغندت رسالته تماما ، دون أن أغض من اجترام المؤلف . ولة  
عرفت أن جيزويتيا يدعى الاب « مينو » كان ذا يد في الموضوع  
فامتدبت على مطنتي في التفرقة بين عمل الأمير وعمل الراهب ،  
وانقضضت دون إشفاق على كل العبارات الجيزويتية ،  
فكشفت — في طريقي — عن خطاسا تاريخي كنت أعتقد أنه

---

(١) السيد « جس » إحدى شخصيات مسرحية مولير « طبيب الغرام » وقد  
استعمل « روسو » هذا الاسم ليرمز إلى المتعامل الذي تعبیه المصلحة  
الشخصية عن الحق .

(٢) الملك ستانيسلاس الأول ، ملك بولندا وقد عاش من سنة ١٦٧٧ إلى  
سنة ١٧٦٦ ، وخلفه « ستانيسلاس » الثاني ، آخر ملوك بولندا ، وقد عاش  
بين سنتي ١٧٢٢ و ١٧٩٨ ، والغالب أن « روسو » قصد أولهما .

لا يصدر إلا عن قلم قداسته . وهذا المقال — الذى كان أقل من سواء إثارة للضجيج لسبب ما — يعتبر فى حد ذاته فريدا فى نوعه . فقد انتهزت فيه الفرصة لأبين للرأى العام كيف أن فى وسع فرد معين أن يذود عن قضية الحق ، ضد ماهر ذى سلطان . وكان من العسير أن أتخذ لهجة أبية ومحترمة — فى الوقت ذاته — تفوق تلك التى اتخذتها فى ردى عليه . وكنت مجدودا إذ قدر لى أن أنزل فريما كان قلبى مفعما نحوه بتقدير كنت أملك أن أبدية له دون ما تعلق . ولقد ظن أصدقائى — الذين أنزجوا من أجلى — أنهم لن يلبثوا أن يرونى فى « الباستيل » ، ولكن الخوف من ذلك لم يداخلنى لحظة واحدة .. وكنت محقا . فقد قال هذا الأمير الطيب ، بعد أن أطلع على ردى : « لقد طقيت جزائى ، ولن أزج بنفسى فى الأمر بعد ذلك » . ومن ذلك الحين ، طقيت منه الكثير من أمارات التقدير والكرم — التى سأضطر إلى ذكر بعضها — وانتشر مقالى فى فرنسا وأوربا فى هدوء ، ودون أن يجد امرؤ فيه منفذا إلى لوم !

وصادفت — بعد ذلك بقليل — فريما آخر لم أكن أتوقعه هو السيد « بورد » الذى كنت أعرفه فى (ليون) ، والذى أولانى — قبل عشر سنوات — كثيرا من الود ، وأدى لى عدة خدمات ، ولم أكن قد نسيت ، ولكنى كنت قد تغافلت عنه تكاسلا ، كما أننى لم أكن قد أرسلت إليه مؤلفاتى ، إذ مازتنى الفرصة المواتية لأبعث بها إليه — وكنت فى ذلك مخطئا . ولقد هاجمنى — ولكن فى أدب وأمانة — فرددت عليه بنفس اللهجة . وعاد إلى الهجوم

بإصرار ، فأفسح بذلك المجال إلى رد مفحم ، لم ينبس بعده بكلمة (١) ، ولكنه صار أشد أعدائي ضراوة ، وأفتهمز وقت محنتي ليوجه إلى شتائم مقذعة ، كما رحل إلى لندن خصيصا لكي يسعى إلى إيذائي !

ولقد شغلتنى هذه المجادلات القلمية كل انشراح . إذ بددت كثيرا من الوقت الذي كان يتطلبه عملي في النسخ ، وعاشت تقدمي في طلب الحقيقة ، وحدث من الكسب الذي كان يدخل جيبي . وكان « بيسو » - ناشر مؤلفاتي في ذلك الحين - لا يمنحني دائما سوى مبالغ زهيدة جدا في مقابل كتيباتي . وكثيرا ما كان لا يدفع شيئا البتة . ومن أمثلة ذلك أنني لم أتلق درهما واحدا عن رسالتي الأولى ، إذ أعطاه ديديرو إياها دون مقابل . وكان لا بد من أن انتظر طويلا ، وأن اقتزع منه القليل - الذي كان يجود به - « سو » إثر « سو » . وفي الوقت ذاته ، لم تكن سوقتي في النسخ رائجة ، فقد كنت مشغولا بمهنتين ، وهذه هي الوسيلة لكي أسوء أداء كل منهما ! . ولقد تعارضت هاتان المهنتان في ناحية أخرى ، وقد تمثل هذا التعارض في تباين أسلوب الحياة الذي كانت كل منهما تضطرني إلى انتهاجه . . ذلك أن نجاح مؤلفاتي الأولى ، جعلني قبلة الأنظار . إذ أثارت المكانة التي احتلتها فضول الناس ، وود

(١) يبدو أن الذاكرة خانت « روسو » هنا ، إذ أنه لم يوجه الرد « بورد »

سوى رد واحد ، بشأن مقاله : « في غوائد العلوم » . ثم برد الثلاث على معال  
شان تنشر الكاتب في الموضوع ذاته .

الرغبة في معرفة هذا الرجل الغريب الأطوار ، الذى لم يكن يخطب ود أحد ، ولا يحفل إلا بأن يعيش على سجيته طليقا ، سعيدا . . وكانت هذه الرغبة كافية لأن تجعل الحياة التى كنت أنشدها مستحيلة ، إذ لم تعد حجرتى تخلو من أناس كانوا يغدون ليسلبونى وقتى بمختلف الحجج . وعمدت النساء إلى ألف حيلة لاستدراجى إلى موائدهن . . وكنت كلما جافيت الناس ازدادوا إصرارا على ملاحقتى . . ولم أعد أقوى على صدهم جميعا ، ففى الوقت الذى جلبت فيه على نفسى ألف عذو — بسبب الرقص — كانت رغبتى فى مجاملة الغير نستعبدنى ، ولم أعد أحظى من يومى بساعة واحدة لنفسى ، مهما أحاول !



وادركت إذ ذاك أن العيش فى فقر وحسرة ، ليس دائما بالسهولة التى يتصورها المرء . فلقد شئت أن أعبش على مهنتى ، ولكن الجمهور لم يشأ . . وكاتوا يبتكرون ألف وسيلة تافهة لتعويضى عن الوقت الذى كان يضيع على ، ناذا الهدايا — من بشخصه (١) . ولم أعرف عبودية أكثر قسوة وإذلالا من هذا ، ولا رأيت له علاجا سوى أن أرفض جميع الهدايا ، كبرها وصغيرها ، دون ما استثناء لإرضاء أحد . . ولم يؤد كل هذا

---

(١) بوليشيندل : شخصية وردت فى خرافات ( نابولى ) القديسة ، مرتدى صاحبها قبة ذات قرنين ، وقد تضخم جسمه من أكل ومن خلف ، وله أنف كمنقار الدجاجة ، وصوت أجش حاد ينطلق فى خفة ( أخف ) « وهو رجل شرس ، صاحب « عبيد » متعكضين »

إلا إلى اجتذاب واهبى الهدايا ، الذين كانوا يطمعون في أن يحفظوا بفخر التغلب على صدودى ، وأن يدينسونى بفضيلتهم بالرغم منى . وكم من امرىء كان يخن على بـ « ايكو » واحد - لو أننى طلبته - ولكنه راح يضايقنى بعطاياه دون انقطاع ، وهو يتهمنى بالخطيئة والكبر ، ليثأر لنفسه من رضى !

ولا بد أن القارىء قد حدس أن القرار الذى كنت قد اتخذته ، والنهج الذى رغبت في انتهاجه ، لم يصادفا هوى لدى السيدة لوفنسير . ولم يفلح كل ما كان لدى ابتتها من تجرد من النفع الذاتى ، في أن يمنع هذه الابنة من أن تنساق لتوجيهات أمها . ومن ثم فإن « الدادتين » (١) - كما اعتاد جوفكور أن يسميهما - لم تكونا حازمتين دائما مثلئى في رفض الهدايا ، من ناحيتهما ، ومع أن كثيرا من الأشياء كانت توارى عنى ، إلا أننى رأيت ما كان كافيا لأن يقنعنى بأننى لم أر كل شيء . . . وقد عذبنى هذا ، لا خشية أن اتهم بالتواطؤ معها - وهو ما ننبأت بأننى ملاقيه عما قريب - وإنما بسبب الفكرة القاسية التى أوحى بها عجزى من أن أكون صاحب السلطان فى بيتى ، وعلى نفسى ! . . . ولقد رجوت ، وتوسلت ، وغضبت . . . دون جدوى ! . . . ولقد صورتنى الأم فى صورة المتذمر الأبدى التائب والتوبيخ ، ورمتنى بأننى مثلكس شرس . . . وكانت لا تفتأ تتهامس مع أصدقائى . . . كان كل شيء فى بيتى محوطا بالغموض والأسرار ،

(١) الواقع أن التعبير الدارج « دادة » أدق من « مربية » فى أداء المعنى

ولكنى — اتقاء للتعرض للعواصف دون انقطاع — لم أعد أجرؤ على الاستفسار عما كان يجرى . ولقد كان التخلص من هذا الازعاج يتطلب حزمًا لم أكن أملكه ، إذ أنني كنت أعرف كيف أصبح ، ولكننى كنت لا أدري كيف أقرن الصباح بالعمل . . فتركت أصبح ، وظل كل شيء ماضيًا في مجراه ؟

هذه المزعجات المستمرة ، وهذه المضايقات اليومية التى كنت فريسة لها ، جعلت — فى النهاية — مسكنى ومقامى فى باريس من أبغض الأمور . وكنت إذا ما سمحت لى صحتى بالخروج ، وإذا لم أنسق إلى هنا أو إلى هناك تحت إغراء معارفى ، أتبشى وحيدًا ، وأنا أحلم بخطتى العظيمة فى الحياة . وكنت أسطر بعض الخواطر ، مستعينا بمفكرة بيضاء وقلم من الرصاص اعتدت أن أحتفظ بها فى جيبى . وهكذا دفعت بى المضايقات الخفية لحال اخترتها لنفسى ، إلى مهنة الأدب نهائيًا ، فقد رحلت ألوذ بها فرارًا من تلك المضايقات . وهذا هو السر فى أننى بثت كل مؤلفاتى الأولى ، المرارة والضيق اللذين دفعتانى إلى أن أشغل نفسى بكتابتها .

وهناك عامل آخر ساهم فى ذلك . . فأننى حين اقحمت — بالرغم منى — فى المجتمع ، دون أن أوتى طباعه ، أو أن أكون على استعداد لأن أكتسبها ، قررت أن أتخذ لنفسى طباعًا خاصة تغنينى . وإذا كانت جماقتى وحياتى الماضى — اللذين عجزت عن مغالبتها — صادرين أصلاً عن الخوف من أن تعوزهم آداب اللياقة ، فقد رأيت — لكى أشجع نفسى — أن أدوس تلك الآداب تحت قدمى . وأحالنى الحياء إلى هجاء مقذع لاذع ، وحرصت

على أن أزدري آداب اللياقة التي لم أنعلم كيف أمارسها . ومن الصحيح أن هذه الغلطة تمشت مع مبادئ الجديدة ، فإذا بها تكتسب سهوا في عقلي ، وتتخذ مظهر الجسارة المنبثقة عن الفضيلة . . . وأستطيع أن أذهب إلى القول بأنها بهذا الشكل الجليل ، استطاعت أن تصمد خيرا — ولأمد أطول — مما كان مرتقبا ، بطبيعة الحال ، لجهد مناقض لسجيتي إلى هذا الحد ، ومع ذلك فأننى كنت أسوء دائما الاحتفاظ بشخصيتي ، فيها بينى وبين نفسي — بوجه خاص — بالرغم مما ذاع عنى في المجتمع من نفور من البشر ، أوحى به مظهرى الخارجى وبعض الكلمات التى تنم عن ذلك ! . . . وإذ راح أصدقائى ومعارفى يقدرّون هذا الدب الوحشى وكأنه حمل ، وإذ راحوا يحدّون من سخرياتهم فيقصرونها على الحقائق القاسية ، العالة ، فأننى لم أكن أملك قط أن أقول كلمة مجاملة واحدة ، لآى امرئ كان !



وأدت قصة « خراف القرية » إلى تألقى فى المحتب . فلم يعد فى باريس رجل مرموق فوق ما كنت أنا . وارتبط تاريخ هذه القصة — التى تمثل فترة من حياتى — بعلاقات كنت قد أنشأتها فى ذاك الحين . وهذه تفاصيل أرى واجبا على أن أتناولها ، لكى تفهم القصة حق الفهم .

كان لى عدد كبير جدا من المعارف ، بيد أننى لم أسطف منهم سوى صديقين ، هما « ديدرو » و « جريم » . ونظرا لما أوتيت من رغبة فى أن أجمع بين كل أولئك الأعزاء لدى ، فإن صداقتى

الوثيقة لكل منهما ، لم تدع مناصا من ان يصبح كل منهما صديقا حيويا لآخر ، إذ أننى جمعتهما معا ، فإذا بهما بنسجمان ، وسرعان ما غدا كل منهما أوثق صلة بالآخر منه بى أنا . وكان لديرو معارف لا حصر لهم ، أما « جريم » ، فقد كان بشيى المعارف ، إذ كان أجنبيا وحديث عهد بالبلاد . ولم أكن أطمح فى أكثر من أن أوفر له هؤلاء المعارف . غاتحت له صداقة دييرو ، وصداقة جوفكور . . واصطحبته إلى دار النسبدة دى شينونسو ، ودار السبدة ديبناي ، ودار البارون دولباخ ، الذى وجدتنى مرتبطا به على الرغم منى تقريبا . . . وغدا كل أصدقائى أصدقاء له . وكان هذا الأمر غاية فى السهولة ، ولكن احدا من أصدقائه لم يصبح يوما صديقا لى ! . . وإليكم ما كان يحول دون ذلك :

لما كان جريم يقيم فى بيت الكونت دى غرييز ، فانه كان بدعونا إلى الغداء هناك أحيانا . ولكننى لم أثلق قط أى دليل على الود أو اللطف من الكونت دى غرييز ، أو الكونت دى شومبيرج — قريبه الذى كان وثيق الألفة بجريم — أو من أى شخص آخر ، فكرا كان أو أنثى ، ممن كانت لجريم بهم علاقة ، عن طريق هذين السيدين . وكان الوحيد المستثنى منهم ، هو الراهب « راينال » الذى أثبت انه صديق لى ، وإن كان صديقا له ، والذى اعتاد أن يقدم كيس نقوده لى — إذا دعت الحاجة — فى كرم غير مألوف . على أننى كنت أعرف الراهب راينال قبل أن يعرفه جريم نفسه بوقت طويل ، وكنت أميل

إليه دائما ، عقب تصرف مفعم بالرقرة واللياقة أسداه إلى في مناسبة طفيفة القيمة ، ولكنى لم أنسها البتة .

كان هذا الأب راينال صديقا حميما بالتاكيد . ولقد تسسنى لى الدليل على ذلك ، حوالى الوقت الذى أنا بصددده تقريبا ، وفى امر يتعلق بجريم ذاته ، إذ كان على علاقة وثيقة به . فلقد ظل « جريم » بعض الوقت على صداقة خالصة بالأنسة « فيل » ، ثم إذا به فجأة يغدو عاشقا مدلها فى هواها ، وان ينتزعها من « كاهوساك » . ولكن الحسناء طردت هذا المتيم الجديد ، وهى تفخر بوفائها ، فحمل الشاب الأمر محملا اليها ، حتى انه فكر فى الموت . وما لبث أن وقع بغتة فريسة لأغرب مرض سمع به امرؤ . فقد راح يقضى نهاره وليله فى غيبوبة ، تظل خلالها عيناه مفتوحتين ، ونبضه منتظما ، ولكن .. بلا كلام ، ولا طعام ، ولا حركة .. وكان يبدو أحيانا ما ينم عن انه كان يسمع ، بيد أنه لم يكن يجيب إطلاقا ، ولو بالإشارة ! .. وكان — إلى جانب ذلك — غير منفعلا ، ولا مقاتلا ، ولا محموم .. وكان يبقى على هذه الحال ، وكأنه ميت ! . وتشاسطرت والراهب راينال رعايته ، فكان الراهب — نظرا لتفوقه على فى متانة البنيان وقوة البدن — يسهر الليالى ، بينما كنت أعنى به فى النهار . وكنا لا نفارقه إطلاقا ، فلا يبرحه أى منا حتى يصل الآخر . وجزع الكونت دى فرييز ، فأحضر له « سيناك » الذى قال — بعد أن فحصه فحصا دقيقا — ألا علة هناك ، ولم يصف له دواء . وكان إشفائى على صديقى قد حملنى على أن أراقب بإتعام محيا الطبيب ، فلمحته يتنسم وهو يغادر المكان



در آن زمان نوازده اطلاق ، فلا پیرچه ای مانا حتی یصل الاخر ۳۱

يمع ذلك فان المريض ظل أياما عديدة دون حراك ، ودون أن يتناول حساء أو أى شيء ، اللهم إلا بعض الكريز المحفوظ ، الذى كنت أضعه على لسانه بين آن وآخر ، والذى كان يزجده فى لبقة . وفى ذات صباح بديع ، استيقظ جريم ، وارتنى ثيابه ، واستأنف حياته العادية ، دون أن يحدثنى قط ، أو يحسنث الراهب — فيما علمت — أو يحدث أى مخلوق عن هذه الغيبوبة العجيبة ، ولا عن العناية التى أوليناها إياها طيلة استمرارها !

ولم يمر هذا الحادث دون ضجة ، فقد كان من الموضوعات العجيبة حقا ، أن تؤدى قسوة إحدى غائيات الأوبرا ، إلى أن يموت رجل لفرط اليأس ! . وأذاعت هذه العاطفة الرائعة صيت « جريم » فى المجتمع ، حتى لقد اشتهر بأنه معجزة الحب ، والصداقة ، والوفاء ، فى كافة الاعتبارات . وجعلته هذه الفكرة مرموقا ، ومكرما لدى المجتمع الراقى . وبهذا تباعد عني ، أنا الذى لم أكن بالنسبة له أكثر من نكاة أو أداة ! . . . ورأيت أنه على وشك أن يغدو غريبا عني ، فأحزننى ذلك : إذ أن كل المشاعر المضطربة التى كان يتظاهر بها ، كانت عين المشاعر التى خالجتني نحوه ، دون أن أنظر بها . ولقد كنت مغتبطا لنجاحه فى المجتمع ، ولكننى لم أكن أحب له أن ينسى أصدقاءه فى غمرة هذا النجاح . ولقد قلت له يوما : « انك لتهملنى يا جريم ، وإننى لاغفر لك ذلك . فإذا ما انتبهى مفعول النسوة الأولى لهذا النجاح المدوى ، وشرعت تقبين أنه فارغ . فانى آمل أن تعود إلى ، ولسوف تجدنى دوما كما عهدتني . لها فى الآونة الحاضرة ، فلا تضايق نفسك ، فسوف أدعك تفعل

ما يحلو لك ، وسوف انتظرك » . وقال لى إننى كنت على حنى  
ودبر خطته على هذا النسق ، وانطلق فى طريقه إلى نهاية  
الشوط ، حتى انتهى لم أعصدا أراه إلا مع الاصدقاء المشتركين  
لكلينا !

وكانت دار البارون دولباخ هى ملتقانا الرئيسى ، قبل أن  
يرتبط بدمام ديبيناي ارتباطا وثيقا . وكان البارون المذكور  
ابنا لرجل عصامى وقد أوتى ثروة عظيمة جدا ، فاستغلها  
استغلالا نبيلًا ، وفتح داره لأهل الادب والفن ، واستطاع  
بتنوره ومعرفته أن يملأ مكانه بينهم . وإذا كان على علاقة  
بديدرو منذ أمد طويل ، فقد سعى عن طريقه إلى التعرف بى ،  
قبل أن يغدو اسمى معروفا . وصدنى نفور طبيعى عن أن  
استجيب لتقربه فترة طويلة . وقد سألنى عن السبب ذات  
يوم ، فقلت له : « إنك واسع الثراء » . ولكنه ألح فى طلب ودى ،  
واستطاع أن يتغلب على توجسى فى النهاية . لقد كانت نكبتى  
الكبرى دائما ، هى عجزى عن مقاومة الاطراء واللفظ ،  
وما وجدتنى يوما أتخلى عن هذه الشيمة !



ومن حالات التعارف التى تحولت إلى صداقة بمجرد أن  
وجدت من حقى أن أنشدتها ، معرفتى بالسيد ديكلو . ولقد  
انقضت عدة سنوات مذكراته - للمرة الأولى - فى (لاشيفريت) ،  
لدى السيدة ديبيناي ، التى كان على صلوات طيبة بها . ولم  
نحظ بأكثر من أن تناولنا الغداء معا ، ثم رحل فى اليوم ذاته .

ولكننا وجدنا الفرصة لتبادل الحديث فترة بعد الغداء . وكانت السيدة ديبيناى قد حدثته عنى وعن أوبراى « عرائس الشجر اللطاف » . وكان « ديكو » ذا مواهب عظيمة ، أسمى من أن تجعله يصنف عن حب الموهوبين ، ومن ثم فقد مال إلى ، ودعانى إلى زيارته . وبالرغم من ميلى القديم (١) ، الذى عززته المعرفة ، فإن حياى وكسلى ظلا يعوقاننى طويلا ، حتى لم يبق ثمة ما يقربنى إليه سوى لطفه وحفاوته . على أننى تشجعت بنجاحى الاول (٢) وبما بلغنى من إطرائه هذا النجاح ، فتمت بزيارته ، وجاء لزيارتى ، وهكذا بدأت ببفنا روابط ستظل تجعلنى أعتر به دائما ، وإليها — وإلى شهادة قلبى الصادق — أدين بمعرفة أن الاستقامة والوفاء ، قد تقترن أحبا بالثقة الأدبية !

ولقد كانت كثير من علاقاتى — التى نقل متانة عما ذكرت ، والتى أتجاوز عن ذكرها هنا — نتيجة مرات نجاحى الاولى ، وقد دامت إلى أن قدر لفضول أصحابها أن يرتوى . فلقد كانت نفسى تتكشف على حقيقتها سريعا ، فلا يعود ثمة جديد يرى فيها بعد اليوم الاول للتعارف ! . . على أن من النساء اللائى سعين إلى التعرف بى فى تلك الآونة ، امرأة صارت أقوى صلة بى من سواها . تلك هى السيدة المركيزة دى كريكى .

(١) ميله الى كل من يبدى له اللطف والاطراء .

(٢) نجاح رسالة فى فوائد العلوم الحديثة .

ابنة أخ السيد « لوييلى دى غرولاي » ، الذى كان مسافرا لفرنسا فى ( مالطة ) وكان أخوها سلفا للسيد دى مونتيجى فى السفارة الفرنسية فى ( البندقية ) ، وزرقة عقب عودتى من تلك المدينة .. ولقد كتبت السيدة دى كريكى إلى ، فذهبت لزيارتها .. واستقبلتنى فى مودة ، وتناولت الغداء لديها بضع مرات ، وتقابلت لديها كثيرا من الأدباء .. منهم السيد سوران - مؤلف « سبارتاكوس » و « بارنيفلت » وغيرهما - الذى أصبح من ذلك الحين الد أعدائى ، لغر ما سبب استطيع أن اتصوره ، سوى أننى أحمل اسم رجل كان أبوه قد اضطهده بخسة وظلم .

ويرى من هذا ، أننى - كناسخ كان ينبغي أن يشغل بمهنته من الصباح إلى المساء - كنت أصادف كثيرا من الشواغل التى كانت تعوق عملى اليومى عن أن يكون جد مريح ، وكانت تمنعنى من أن أعنى العناية الواجبة بها كان مصدرا لرزقى . وكنت أضيع أكثر من نصف الوقت المتبقى لى ، فى محو أو تشط الأخطاء التى كنت ارتكبتها فيما أنسخ ، أو فى إعادة كتابته من جديد . وقد أدى هذا الازعاج إلى أن أصبحت لا أطبق بارييس يوما بعد يوم ، وإلى حملى على أن أنشد الريف برغبة قوية . فذهبت عدة مرات لأقضى أياما فى ( ماركوسى ) ، التى كانت مدام لوفاسير على معرفة بأسقفها .. وقد استطعنا أن ندبر الأمر بحيث أنه لم يجد أى ضرر فى مقامنا فى داره .. ولقد ذهب

معنا « جريم » مرة إلى هناك (١) . وكان الأسقف ذا صوت رخيم ، كما كان يجيد الغناء ، ومع أنه لم يكن ملما بالموسيقى . إلا أنه كان يستطيع أن يحفظ دوره بدقة . ومن ثم فقد قضيت الوقت في ترديد الأغاني الثلاثية التي كنت قد وضعتها في ( شيفونسو ) ، كما لحننت أغنيتين أو ثلاثا جديدة ، وضع « جريم » والأسقف كلماتها بقدر ما وسعها . ولست أملك أن أمنع نفسي عن التحسر على تلك الأغاني الثلاثية التي وضعت في لحظات مفعمة بالغبطة الخالصة ، والتي تركتها في ( فوتون ومعهما جميع قطعي الموسيقى . ولعل الأنسة دافنبورت قد اتخذت منها أشرطة ورقية لف شعرها . . على أنها كانت جديرة بأن تصان ، فقد كانت — في الغالب — دقيقة الوزن . وحدث بعد إحدى هذه الرحلات القصيرة — وقد اغتبطت لرؤية « العمة » منشرحة مسرورة ، كما كنت أنا الآخر مبتهجا — أن كتبت إلى الأسقف خطابا شعريا ، نظمته في عجلة وفي غير عنابة . . وسيوجد بين أوراقى .




---

(١) أخطب « روسو » إلى هذا ، الاستدراك التالى : « لما كنت قد أغفلت هنا ذكر حادث ثان ، ولكنه جدير بالذكر ، وقع لى مع « جريم » المذكور ذات صباح ، وقد اعلنا تناول الغداء عند مين ( سان مانديل ) ، فالتى لم أعود إلى هذا الحادث . ولكنى حين فكرت فيه — فيما بعد — استنجمت أن جريم كان يبيت النية في قرارة قلبه — منذ ذلك الحين — على المؤامرة أسر نغمة فيما بعد بلجاجة رائع » ١

وكان لى — فى مكان أكثر قربا من باريس — ملاذ أخسر  
يلائم مزاجى . . تلك هى دار السيد « موسار » ، مواطنى  
وقريبى وصديقى ، الذى أعد لنفسه ماوى فائقا فى ( باسى ) ،  
قضيت فيه كثيرا من اللحظات الوادعة . وكان السيد موسار  
تاجر مجوهرات ، وكان رجلا سليم الذوق ، جوع من حرته  
ثروة طيبة ، وزوج ابنته الوحيدة من السيد دى فالمالبت — ابن  
صراف ومدير فندق الملك — ثم استقر رايه الحكيم على أن  
يهجر فى أيام شيخوخته التجارة والعمل ، لينعم بالراحة  
والاستجمام فترة من الزمن ، بين هموم الحياة ونهاية الاجل .  
وكان « موسار » الطبيب فيلسوفا عمليا حقا ، فكان يعبئ  
بلا هموم ، فى دار بديعة ابتناها لنفسه ، وفى حديقة غناء زرعها  
بيديه . وفيما كان يحفر قنوات أحواض هذه الحديقة ، عثر  
على قواقع متحجرة ، ووجد لها بكميات كبيرة إلى درجة أن  
خياله المتوثب لم يعد يرى فى الطبيعة سوى قواقع ، حتى انتهى  
أخيرا إلى الإيمان الجازم بأن الكون لم يكن غير قواقع! . . وأصبح  
لا يفكر دائما إلا فى هذا الأمر ، وفى اكتشافه الفذ ، حتى أهاجته  
هذه الأفكار ، وأوشكت — فى النهاية — أن تتخذ فى رأسه شكل  
نظرية — أعنى خبلا — لولا أن الموت تدخل فى الأمر — لحسن  
حظ عقله ، ولسوء حظ أصدقائه الذين كانوا يعترضون به ،  
ويجدون فى داره أبداع ماوى — فائزعه من بينهم ، متوسلا  
بأغرب وأقسى مرض . . ذاك هو تورم فى معدته ، كان دائم  
التضخم ، وكان يحرمه من الأكل ، دون أن يبدى سببه برغم  
طول العهد به ، ثم انتهى بموته جوعا ، بعد سنوات عديدة من  
العذاب! . . ولست أملك أن أسترجع نهاية عمر هذا الرجل ،

دون أن ينقبض فؤادى . فقد ظل يستقبلنا — « لينيبب »  
وأنا — بسرور عارم . . وكنا الصديقين الوحيدين اللذين لم  
يحملهما منظر الآلام التى كان يعانيها ، على أن ينأيا عنه إلى آخر  
ساعة فى حياته . . وانى لأذكر أنه لم يكن إذ ذاك ليقوى على  
التهام الطعام — الذى اعتاد أن يأمر بتقديمه إلينا — إلا بعينيه ،  
ولا كان يطبق ابتلاع بضع قطرات من الشاي الخفيف ، إلا  
ليلفظها فى اللحظة التالية ! . . ولكن كم من أوقات — قبل تلك  
الآلام — قضيتها فى داره مسرورا ، مع النخبة التى اصطفاها  
من الأصفياء ! . . وانى لأضع على رأس هؤلاء الراهب  
« بريفو » (١) ، وكان شخصا لطيفا ، سلسا ، يستلهم قلبه  
ما كان يكتب من أشياء جديدة بالخلود ، ولا يبدي — سواء فى  
مظهره أو فى معشره — شيئا من ذلك الجو القاتم الذى غرضه  
على مؤلفاته . . والحبيب « بروكوب » ، وكان « بعسوب »  
صغرا (٢) ، ذا حظوة لدى النساء ، و « بولانجيه » المؤلف المزعوم  
للمثيلية الموسيقية الهزلية « الاستبداد الشرقى » ، وقد عهد  
فيما اعتقد — إلى التوسع فى نظريات « موسار » عن مدى عمر  
الدنيا . . أما بين النساء ، فأذكر السيدة « دنييس » ابنة أخت  
« فولتير » ، التى كانت — إذ ذاك — طيبة ساذجة ، ولم تكن

---

(١) اشتهر باسم « الأب بريفو » ، واسمه الأصل « بريفو ديكسيل » .  
وهو مؤلف قصة « مانون ليسكو » الخالدة . وقد ولد فى سنة ١٦٩٧ ومات  
فى سنة ١٧٦٣

(٢) بعسوب : شخصية أسطورية أفريقية ، وإن كان هيروديت يقول أنه  
شخصية حقيقية ، وقد عاش فى مصر واشتهر بالرحلات والأدب .

قد زعمت لنفسها شينا من توقد الفكر . . والسند « نائلو »  
التي لم تكن جميلة حقا ، ولكنها كانت غائنة ، وخائنة ، في غفلة  
كالملاك . . والسيدة « فالمليت » التي كانت تحذق الغناء هي  
الأخرى ، والتي كانت — برغم هزالها — بالغة اللطف لو أنها  
خفت من تظاهرها باللطف !! . هؤلاء كانوا صنوة رواد ندوة  
السيد موسار — تقريبا — وقد كانت صحبتهم خلقة بأن تلذ  
لى ، لولا أن نظرياته عن القواقع كانت الذ ، حتى لاذهب إلى  
القول بأنني عكفت لستة أشهر على العمل في مكتبه . في دراسة  
هذه النظرية ، باغتياط لم يكن يقل عن اغتياطه !

وكان يلح — من زمن طويل قبل ذاك — بأن مباد يا سي /  
كانت كفيلة بأن تصلح حالى الصحية ، وكان يلح في أن اتردد  
على داره لكى اتناولها . وقد اتصعت أخيرا له لكى انتزع  
نفسى — بعض الوقت — من ضجيج المدينة ، فقضيت في (باسى)  
ثمانية أيام أو عشرة ، أفدت منها كل الفائدة ، بفضل إقامتى  
في الريف ، أكثر مما هو بفضل تناول تلك المياه . وكان «موسار»  
يهوى العزف على الكمان الكبيرة ، ويشغف بالموسيقى الإيطالية .  
وفي ذات مساء ، أطلنا الحديث — قبل أن نأوى إلى مخادعنا —  
في هذا المجال ، وتكلمنا بوجه خاص عن « أوبرا بونا » ، التي  
رآها كل منا على حدة — في إيطاليا — والتي أعجب بها كل منا  
إعجابا بالغاً . . ولم أتم في تلك الليلة ، شرعت أفكر في وسيلة  
ممكنى من أن أتبع فكرة مثل هذا النوع من « الدراما » لفرنسا .  
إذ لم يكن ثمة شبه بين « غراميات راجوند » وهذا النوع (١) .

(١) كوميدية موسيحية عرضت في « الأوبرا » الباريسية في سنة ١٧٤٢

وفي الصباح التالي، نظمت على عجل بعض نماذج « من الشعر »  
تتمشى مع هذه الفكرة — أثناء ما كنت أترىض وأتناول المياه —  
ونسقتها مع الألحان التي توافدت على راسي خلال ذلك .  
وسطرت جميع هذه الأغاني ، في « صالون » ذي قبة ، فوق  
الحديقة . ثم لم أتورع عن أن أعرضها — أثناء تناول الشاي —  
على موسسار والأنيسة دوفيرنوا مديرة داره ، التي كانت  
بالغة الطيبة واللفظ حقا . وكانت القطع الثلاث التي نظمتها  
في عجلة ، تؤلف الأغنية الفردية الأولى ، وهي : « فقدت  
خادمي » ، و « عراف القرية » ، و « الحب يخشى على نفسه » .  
ثم الثنائى الأخير : « أبدا لن أخطبك ، يا كولان » ، الخ !  
ولم أكن أعول كثيرا على أن هذه المحاولة تستحق عناء المضي  
فيها . ولولا الاستحسان والتشجيع اللذين لقيتهما من كل منهما ،  
لكنت خليقا بأن ألقى قصاصاتي إلى النار ، ولا أعود إلى التفكير  
فيها ، كما فعلت من قبل بقطع أخرى كانت تهائل هذه ،  
على الأقل ! . . ومن ثم فقد وجدته متحمسا ، حتى أن  
« الدرايا » اكتملت خلال ستة أيام ، فيما عدا بضعة سطور .  
كما أنني وضعت أفكار الموسيقى كلها ، فلم يعد أمامي ما أفعله  
في ( باريس ) ، سوى أن أضيف بعض مقطوعات إلقائية ، وإن  
أملأ بعض الحواشي . وقد فرغت بسرعة من كل هذه ، فلم  
تنقض ثلاثة أسابيع ، حتى كانت المناظر قد نسخت ، وأصبحت  
مهيأة للعرض . ولم يكن ثمة ما ينقصها سوى موسيقى الانتقال  
من منظر إلى آخر ، وقد قدر لها ألا توضع إلا بعد ذلك  
بوقت طويل .

سنة ١٧٥٢

اثارنى وضع هذا العمل الادبى الفنى ، حتى لقد تملكنى شوق عارم إلى سماعه ، وحتى اننى كنت على استعداد لان انزل عن كل شيء ، فى سبيل أن أراه معروضا أمامى — بالشكل الذى كنت أتقبله فى خيالى — فى غرفة موصدة ، كما فعلت « لولى » — فيها يقال — إذ شهدت يوما مسرحية « ارميد » تمثل أمامها وحدها . ولما لم يكن من الميسور لى أن أنعم بهذه المتعة إلا برفقة الجمهور ، فقد كان من الضرورى ، لكى تمثل هذه الأوبرا ، من أن تلقى قبولا فى دار « الأوبرا » . ولكنها — لسوء الحظ — كانت من نمط جديد كل الجودة ، لم تألفه آذان الجمهور ، كما أن فشل « عرائس الشعر اللطاف » جعلنى أتوقع المصير ذاته للعراف<sup>(١)</sup> ، إذا أنا قدمتها باسمى . وقد ساعدنى « ديلكو » على الخروج من هذا المأزق ، إذ تكفل بأن يسعى إلى إجراء تجارب على المسرحية ، دون أن يكشف عن اسم المؤلف . ولكى لا أتم عن نفسى ، فافنى لم أحضر التجربة ، وظل كل امرئ — حتى « الكمانان الصغيران »<sup>(٢)</sup> ، اللذان توليا الإخراج — يجهلان اسم المؤلف ، إلى أن شهد الاستحسان العام بروعة المسرحية . ولقد فتن كل من سمعها ، حتى أن

(١) أطلق روسو على هذه « الأوبرا » اسم « عراف القرية » .

(٢) لقب اشتهر به « ريبيل » و « فرانكور » اللذان كانا يوليان الإخراج الموسيقى ، وقيادة الفرقة الموسيقية فى « الأوبرا » . وقد سميا بذلك ، لأنهما اعتادا فى سبأهما أن يطونا بالبيوت ، وهما يعزفان على « الكمان » .

جميع الأوساط لم تتحدث إلا عنها في اليوم التالي . ولقد شهد السيد كورى - مدير حفلات البلاط - التجربة ، فطلب المسرحية لتعرض في البلاط ، ولكن ديلكو - الذى كان يعرف نواياه فخشى أن يكون سلطاني على المسرحية في البلاط أقل منه في باريس - رفض أن يسلمه إياها ، فعاد كورى يطلبها بحكم منصبه . واحتدم الجدل بينهما ، حتى لقد تطور ذات يوم - وهما في « الأوبرا » - فاوشكا أن يخرجها ليتبارزا ، لولا أن حيل بينهما .

ورؤى الاتصال بى بشأنها ، ولكنى تركت البت في ذلك إلى السيد ديلكو ، فكان لابد من الرجوع إليه . وتوسط السيد الدوق دومون في الأمر ، فرأى ديلكو - في النهاية - أن من الواجب النزول عند رغبة صاحب السلطة ، وقدمت المسرحية لتمثل في ( فونتنبلو ) . وكان الجزء الذى أوليته أعظم اهتمام ، والذى نأيت فيه كثيرا عن النهج المألوف ، هو الإلقاء الغنائى . فقد نسق الإلقاء - في أوبراى - بطريقة جديدة تماما ، بحيث يتمشى النغم مع إلقاء الكلمات . ولكنهم لم يجسروا على أن يستبقوا هذا التجديد ، إذ خيف من أن يصدم الأذان التى ألفت الرتابة . ومن ثم فأننى وافقت على أن يضع « فرانكوى » و « جيليوت » الحاننا الجديدة للإلقاء ، ولكننى رفضت أن تكون لى يد في ذلك .

وإذ تم إعداد كل شيء ، وحدد يوم العرض ، أقترح على أن أرحل إلى ( فونتنبلو ) لأحضر التجربة الأخيرة ، على الأقل . فذهبت مع الأنسة « فيل » ، وجريم ، والراهب « راينال »

— على ما اظن — في إحدى العربات الملكية . ولم يكن ثمة بأس بالتجربة ، بل اننى كنت أكثر رضى عنها مما توقعت . وكانت الفرقة الموسيقية قوية ، كثيرة النفر ، مؤلفة من موسيقيي « الأوبرا » والفرقة الملكية . وقام « جيلوت » بدور « كولان » ، والآنسة « فيل » بدور « كوليت » ، و « كوغيتيه » بدور العراف . وكان المنشدون من « الأوبرا » . ولم ادل بغير ملاحظات قليلة ، فقد تولى « جيلوت » الاخراج ، فلم اشأ أن افرض سلطانا على ما فعل . وبالرغم من مظهرى الرومانى ، فاننى كنت فى حياء التلميذ إذا الفى نفسه وسط كل هؤلاء القوم !

وفى اليوم التالى — وهو يوم العرض — ذهبت لاتناول الفطور فى مقهى « الجسران كومون » ، فاذا به زاهر بالناس ، وإذا الحديث يدور حول تجربة الليلة السابقة ، وتعذر الدخول إلى المسرح . وقال ضابط من الحضور ، إنه دخل بلا عناء ، وأسهب فى وصف ما حدث داخل المسرح ، كما وصف المؤلف ، وروى ما قاله وما فعله . والذى أذهلتى فى حديثه الطويل — الذى القاه فى بساطة واعتداد — أنه لم يفهم كلمة واحدة من الحقيقة ! . . بل لقد تجلّى لى تماما ، أن هذا الذى تكلم عن التجربة بلهجة العالم ، لم يكن حاضرا البتة فقد كان هذا المؤلف — الذى قال إنه رآه كما صورته — حاضرا أمام عينيه ، فلم يتعرف عليه ! . . وكان أغرب ما فى هذه الواقعة ، هو الأثر الذى أحدثته فى نفسى . فلقد كان ذلك الرجل كبير السن ، ولم يكن بلوح عليه غرور الخيلاء ، ولا الزهو ، سواء فى مظهره أو لهجته . بل ان

اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث ١٨١

سيماء كانت تنم عن أنه رجل فاضل ، كما كان وسام « صليب سان لوى » - على صدره - يوحى بأنه ضابط قديم . ولقد استأثر باهتمامى بالرغم منى ، وبرغم قبحته فى الكذب . وفيما كان يمضى فى أكاذيبه ، راح وجهى يتخرج خجلا ، وأخذت أغضض بصرى وأتململ فى مجلسى . وكنت أسأل نفسى أحيانا : اليس من الجائز أن يكون قد آمن بكذبه حتى فدا يظنه حقيقة ؟ ! . . . وأخيرا ، أسرعت بإفراغ قدح « الشيكولاته » دون أن أنبس ببنت شفة ، وأنا ارتجف خشية أن يتعرف على أحد فيخجله ، ومررت بمجلسه وأنا منكس رأسى ، وغادرت المقهى بأسرع ما استطعت ، بينما كان القوم ماضين فى الحديث عما كان يصغه . ونفذت إلى الطريق وأنا أسبح فى العرق . ولو أن أحدا عرفنى وذكر اسمى قبل خروجى ، فأنى أوقن بأننى كنت خليقا بأن أبدى من الخجل والارتباك ما يديه أى مذنب ، لجرد الشمور بالصغار الذى كان الرجل جدير بأن يشعر به إذا ما اقتضحت أكاذيبه !

\* \* \*

وها أنذا أصل إلى تلك اللحظات الحرجة فى حياتى ، فإن من العسير أن أقتصر على مجرد الرواية ، لأنه من المستحيل تقريبا ألا تتأثر الرواية بشيء من النقد أو التبرير . على أننى سأحاول أن أروى كيف تصرفت ، وعن أية بواعث صدرت فى تصرفاتى ، دون أن أضيف ما ينم عن إطراء أو عن لوم . وفى ذلك اليوم المقصود ، بدوت فى نفس الزى المهمل الذى ألفته ، وقد نمت لحيتى ، وبدأ شعرى المستعار غير منسقى . وبهذا المظهر الذى نبا عن اللياقة ، والذى كنت اعتبره دليلا

على الشجاعة ، دخلت القاعة التى كان من المنتظر أن يند عنها الملك والملكة والأسرة الملكية والحاشية بأسرها ، بعد قليل . وتقدمت لأحتل مكانى فى المقصورة التى قادنى إليها السيد دى « كورى » . . وكانت هى مقصورته ، مقصورة واسعة . . فى مواجهة مقصورة أخرى ، أصغر منها حجما ، وأكثر ارتفاعا ، جلس فيها الملك والسيدة دى بومبادور . ولم يداخلنى شك فى أننى أجلس كذلك ، لكى أبدو واضحا ، إذ كنت الرجل الوحيد أمام مقصورة الملك ، وقد أحاطت بى السيدات . وعندما أوقدت أضواء المسرح ، وجئتنى — فى ملابسى تلك — وسط قوم فى أوج الأناقة ، فبدأت أشعر بضيق وخرج . وسألت نفسى عما إذا كنت فى المكان اللائق ، وما إذا كنت فى الثياب اللائقة . وبعد لحظات من الحرج ، أجبت نفسى عن هذا التساؤل فى جراحة لعلها انبعثت عن استحالة التراجع ، أكثر مما انبعثت عن قوة حججى : « أجل » . . . وقلت لنفسى : « إننى فى المكان اللائق بى ، ما دمت قد جئت لأشهد تمثيل مسرحيتى . . وإذا كنت فى ثيابى المعتادة ، ولست فى أفضل أو أقل مما الفت ، فما ذلك إلا لأننى دعيت ، ولأننى الفت هذه الأوبرا لهذا الفرش فحسب ، ولأنه — فوق كل شيء — ليس هناك من يفوقنى جدارة باستمراء ثمار جهدى وهواهى ولو أننى عدت إلى الخضوع للرأى العام فى أمر واحد ، فسرعان ما سأصبح عبدا للرأى العام — فى كل شيء — من جديد . أما إذا شئت أن أثبت على نهجى ، فمن الواجب ألا أخجل — أينما أكون — من أن ارتدى ما يتلاءم مع ظروف الحياة التى اخترتها لنفسى . أن مظهرى الخارجى بسيط وغير متأنق ، ولكنّه ليس قذرا ،

ولا مستهجننا . وكذلك اللحية — فى حد ذاتها — ما دامت الطبيعة هى التى تظلمها علينا . . بل إنها مظهر من مظاهر الزينة احبانا ، كما تتم تطورات مستحدثات الأناقة . وقد يرانى الناس مضحكا ، او سقيها . . حسنا ، وفيم يهمنى هذا ؟ . . يجب أن اتعلم كيف أعرض عن ضحك الناس او عن نقدهم : ما دمت لا استحقهما !



« وشعرت بعد هذه المفاجأة القصيرة بالثقة تعاودنى . إلى درجة كانت كافية لأن تجعلنى جريئا . . وهو ما كنت بحاجة إليه . على أننى لم أر فى الفضول الذى تعرضت له ، سوى مظهر للأدب والحفاوة ، سواء كان مرد ذلك الراى إلى تأثير وجود العاهل ، او إلى التصرف الطبيعى الذى ابداه أولئك الذين أحاطت بى قلوبهم . . وشعرت بالتأثر ، حتى أننى بدأت أحس بالقلق — من جديد — على نفسى وعلى مصير مسرحيتى . خشية أن اقضى على ما ربما كان لدى القوم من آراء سابقة — فى صالحى — كان يبدو لى أنه لم يكن ينقصها سوى التصفيق . وكنت قد تفرغت ضد سخريتهم ، ولكن عطفهم — الذى لم أكن أتوقعه — طفى على كل الطغيان ، حتى أننى رحت أرتجف كالطفل ، عندها ابتدا التمثيل !

وسرعان ما تبينت أن ليس ثمة مبسر للقلق . . كان أداء

المسرحية جد سيء من ناحية الممثلين ، ولكن الفناء كان جيدا .  
 والموسيقى حسنة الأداء . ومنذ المشهد الأول -- الذى كان  
 مؤثرا فى بساطته حقا -- سمعت فى المقصورات تميمة اندهائس ،  
 واستحسناتنا لم يسمع من قبل فى مثل هذا النوع من التمثيليات .  
 وما لبثت التحمس المطرد أن بلغ ذروته ، حتى أنه تفشى فى جميع  
 الفطارة ، وأن ضوعف أثره بفضل هذا الأثر ذاته ، كما ينبغى  
 أن يقال بأسلوب « مونتسكيو » . وقد بلغ هذا الأثر أوجهه فى  
 المشهد الذى دار بين الشخصين الصغيرين الساذجين . ومن  
 المعتاد ألا يصفق أحد قط ، فى حضور الملك ، وقد ساعد  
 هذا على سماع كل شيء بوضوح ، مما أفاد التمثيلية والمؤلف .  
 وسمعت حولى همسات نساء كن يلحن لى فى جمال الملائكة ،  
 وهن يقلن لبعضهن لبعض : « هذا فائن .. هذا خلاب ! ..  
 ما من نغم هنا إلا وينبثق من القلب ! » . وهزنتى لذة التأثير  
 على كل هؤلاء القوم الراقين ، حتى انطلقت دموعى ، فلم أستطع  
 أن اكبحها فى الأغنية الثنائية الأولى ، إذ لاحظت أننى لم أكن  
 الوحيد الذى بكى ! .. ومرت بى لحظة ، رجعت فيها إلى نفسى  
 إذ تذكرت الحفلة الموسيقية التى أقيمت بدار السيد دى  
 « تريوران » . وحدثت هذه الذكرى فى نفسى شعورا كشعور  
 العبد الرقيق الذى كان يرفع التاج فوق رؤوس المظفرين (١) .

---

(١) هذه كانت متبعة فى مواكب النصر لدى الرومان .

ولكن هذا الشعور كان قصير الأجل ، إذ اتنى سرعان ما استسلمت تماما - ودون أى تحفظ - لنشوة مذاق مجدى . ومع ذلك فأتى أوقن بأن الشهوة الجنسية كانت - فى تلك اللحظة - أكثر أثرا من غرور المؤلف فى هذه النشوة ! .. فمن المؤكد أنه لو لم يكن ثمة غير الرجال حضسور ، لما تأججت فى نفسى الرغبة الملحة فى أن ألتقى بشفتى ، الدبوع العذبة التى تسببت فى أنسيابها ! .. ولقد شهدت تمثيليات أثارت من نوبات الإعجاب ما كان أشد مما رأيت فى هذه الليلة : ولكنى لم أشهد قط نشوة فى مثل تدفق ، وفى مثل بهاء ، وفى مثل تأثير هذه التى استولت تماما على النظارة ، لا سيما وقد كانت هذه أولى المرات التى تعرض فيها المسرحية ، ولا سيما وأنها كانت تعرض فى البلاط الملكى . ولا بد أن الذين شهدوها إذ ذاك ، لا يزالون يذكرونها ، فقد كان تأثيرها قذا !

وفى الليلة ذاتها ، أوفد إلى السيد الدوق دومون ، من أنبائى بأن أكون موجودا فى القصر ، فى الساعة الحادية عشرة من الصباح التالى ، ويأنه سيقدمنى إلى الملك . وأضاف السيد دى كورى - الذى حمل إلى الرسالة - أنه من المعتقد أن ثمة اقتراحا بمنحى معاشا ، وأن الملك أراد أن يعلننى بذلك بنفسه ! .. فهل مما يصدق أن الليلة ، التى أعقبت يوما بهذا الاشراف ، كانت ليلة هم وحيرة ؟ .. كانت أولى أنكارى ، بعد

هذه الخواطر السالفة ، تتمثل في حاجة ملحة إلى الخروج (١) ، كبدتني في المساء ذاته عناء كبيرا أثناء التمثيل ، وكان من الممكن أن تعذبني في اليوم التالي ، عندما أكون في بهو الملك أو في جناحه ، أنتظر بين كل أولئك العظماء مرور الملك ! كان هذا الداء هو السبب الرئيسي الذي حملني على تجنب الاجتماعات ، والذي منعني من الاطمئنان إلى البقاء في غرفة مغلقة لدى السيدات . وكان مجرد التفكير في الموقف الذي قد تقمني فيه هذه الضرورة ، كافيا لأن يخرجني إلى درجة تسلمني إلى الإغماء ، إن لم يكن إلى فضيحة كنت خليقا بأن أوثر عليها الموت . ولا يدرك الجزع من التعرض لخطر كهذا ، سوى أولئك الذين عرفوا مثل هذه الحال !

ورحت — بعد ذلك — أتصور نفسي ماثلا أمام الملك ، وأنا أقدم إليه ، فيتنزل ويقف ليحدثني . . وهنا لا بد من سرعة الخاطر وحضور البديهة للإجابة . أفكان حيائي اللعين — الذي اعتاد أن يضايقني أمام أقل المغمورين — ليهجرنى أمام ملك فرنسا . . . وهل يدعني أحسن اختيار ما ينبغي أن يقال . في التواضع . . . ووددت لو أستطيع — دون أن أتخلى عن المظهر واللهجة القاسيين اللذين اعتدت الظهور بهما — أن أبدى

(١) يقصد الخروج للقاء حنجة . ولعلنا نذكر أنه كان يتعرض لنوبات بكثرة

ليها من التعب

إدراكى للشرف المتاح لى من مثل هذا العاهل العظيم ؟ .. كان لابد لى من أن ألفت بعض الحقائق الجليظة والنافعة ، فى غلالة من الثناء الجميل البارع ! .. ولكى أتمكن من أن أعد - مقدما - جوابا موفقا ، كان لابد لى من أن أعرف بالدقة ما يمكن أن يقوله لى الملك .. وكنت واقفا - بعد ذلك - من اننى ان أستطيع أن أستحضر فى وجوده ما أكون قد أعدته ! .. فماذا يكون شأنى ، فى هذه اللحظة ، أمام أعين الحاشية كلها ، إذا افلقت منى ، فى غيرة اضطرابى ، بعض سخافاتى العادية ؟ .. لقد روعنى هذا الخطر وأزعجنى ، وجعلنى أرتجف وأنا أعقد العزم على ألا أعرض نفسى له ، مهما تكن العواقب ؟

ومن الصحيح اننى فقدت المعاش الذى عرض على بصفة غير رسمية ، ولكنى - فى الوقت ذاته - نجوت من الجور الذى كان مقدرا أن يفرضه على .. الا وداعا للحقيقة ، وللحرية ، وللشجاعة ! .. كيف كنت أجرو - بعد ذلك - على أن أتكلم بحرية ونزاهة ؟ .. لم يكن لدى سوى أن أتلقى ، أو أن أصمت .. لو اننى قبلت هذا المعاش ، ثم ، منذ السذى كان يضممن دفعه إلى ؟ .. وأية خطوات كان على أن أتخذها ، وأى أناس كنت مضطرا إلى أن أداهن ؟ .. كان الاحتفاظ بهذا المعاش خليقا بأن يكبدنى أكثر مما يكبدنى الاستغناء عنه من حرص ، وأكثر من الكثير من المضايقات ! .. ومن ثم فقد اقتنعت باننى

إذ أرفضه إنما أتخذ قرارا ينطبق أشد الانطباق على مبادئى ،  
وأضحى المظهر فى مقابل الواقع . ولقد أفضيت إلى جريم  
بعزيمى ، فلم يعارضنى . أما بالنسبة للآخرين . فقد تعللت  
بصحتى ، ورحلت فى نفس الصباح !

\* \* \*

وإثار رحيلى ضجة ، وعيب على بوجه عام . فما كانت  
حججى لتلقى تقديرا لدى الناس جميعا ، وسرعان ما اتهمت  
بالصلف ، مما أرضى — للتو — غير أولئك الذين شعروا بأنهم  
ما كانوا ليتصرفوا كما تصرفت ! . . وفى اليوم التالى ، كتب إلى  
« جيلوت » خطابا فصل فيه نجاح تمثيليتى ، والشفف الذى  
أبداه الملك نفسه بها . وقال إن جلالته لم يكف طيلة النهار عن  
الغناء ، بأنكر صوت فى مملكته ، مرددا : « لقد فقدت خادمى ،  
لقد أضعت كل هنائى ! » . . وأردف أن « العراف » ستعرض  
مرة ثانية بعد أسبوعين ، مما سيعزز أمام عيون الجمهور كله  
النجاح الباهر الذى ككل العرض الأول !

وفيما كنت ألج دار السيدة ديبيناي — فى الساعة التاسعة  
مساء ، بعد يومين — حيث كنت مزعما أن أتناول العشاء ،

رايت مركبة تعترض طريقى إلى الباب . وأشار إلى شخص فى المركبة بأن اصعد إليها ، فصعدت ، وإذا بهذا الشخص هو « ديدرو » . وحدثنى عن المعاش فى حرارة ما كنت اتوقعها من فيلسوف فى مثل هذا الموضوع . ولم ير جريمة فى الاكون راغباً فى أن أقدم إلى الملك ، ولكنه رأى أن عدم اكترائى للمعاش جريمة منكرة . وقال لى اننى إذا كنت لا أهتم بالمعاش من أجل نفسى ، فليس من حقى أن اكون كذلك من أجل السيدة لوفاسير وابنتها ، فان من واجبى الا احرمها من أية وسيلة ممكنة وشريفة لتيسير أسباب العيش لهما . . وبما أنه لم يكن من الممكن أن يقال — برغم كل شيء — اننى رفضت هذا المعاش ، فقد أصر على أن من الجدير بى أن اطلبه ، وأن أحصل عليه بأى ثمن ، ما دامت ثمة نية لمنحى إياه . ومع اننى تأثرت لتحصسه ، إلا اننى لم استطع أن أقر بمبادئه ، فدار بيننا جدال محتدم حول الموضوع ، كان أول جدال دار بيننا . ولقد كانت كل خلافتنا — التى أعقبت ذلك — من نفس النوع ، إذ كان يملى على ما كان يزعم أن من الجدير بى أن افعله ، فى حين اننى كنت أرغض فى حزم ، لاننى لم أكن أومن بأنه واجب على ا

وكان الوقت متأخراً عندما افترقنا ، فرغيت فى أن اصطحبه للعشاء لدى السيدة ديبيناي ، ولكنه لم يكن راغباً البتة . . فبالرغم من أن الجهود التى كانت الرقبة فى الجمع بين أولئك الذين أحبهم تدفعنى إلى بذلها من وقت إلى آخر ، فاننى لم



رأيت مركبة تعترض طريقى الى الباب ، وانسار الى شخص فى المركبة  
بان اصعد اليها .

### اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث ١٩١

أفلح في إغرائه على زيارتها . . بل إنني ذهبت إلى أبعد من هذا ، إذ صحبت السيدة إلى بابه ، فرفض أن يفتحها لنا . . . كان يعزف دائما عن لقاءها ، ولم يكن يتكلم عنها قط ، إلا في ازدراء بالغ . . وما تألف الاثنان إلا بعد خلاف مع كل منهما ، وإذا ذاك ، بدأ يتكلم عنها باحترام !

ومنذ ذلك الحين ، لاح أن يدرو وجريم كنا بحساولان أن يؤلبا « الدادتين » على ، وأن يفهماهما أنهما إذا لم تكونا في رخاء ، فأنما كان مرد ذلك إلى سوء نيتي ، وأنهما لن تصيبا مني أي خير قط . . . ولقد حاولا أن يحملهما على هجري ، ووعداهما بأن يحصلا لهما بفضل السيدة ديبيناى على رخصة لبيع الملح ، وحاتوت لبيع التبغ ، وما لست أدره كذلك . . . بل أنهما رغبا في أن يستدرجا ديكلو ، كما استدرجا دولباخ ، إلى مخالفتها ، ولكن الأول راح يرفض باستمرار . وكانت لدى إذ ذاك بعض ظنون من هذا التدبير ، ولكنني لم أحط به بجلاء إلا بعد ذلك بزمان طويل . وكثيرا ما أكون على حق إذ أرشى لذلك القميس الأهمى المتهور من جانب أصدقائي الذين كانوا يسمعون إلى الحط من شأنى - وأنا معلول ، وفي أشد حالات العزلة الكثيرة - ظنا منهم أنهم إنما كانوا يبذلون قصاراهم لإسعادى ، بالوسائل التي كانت خير ما يؤدي إلى إتعاسى ، في الواقع !

### سنة ١٧٥٣

مثلت مسرحية « العراف » في باريس ، في عيد المراف ( الكرنفال ) التالى ، أى في سنة ١٧٥٣ . وكنت قد وجدت وقتا كافيا - في تلك الأثناء - لوضع لحن الافتتاح ، والالحن

التي تتخلل المشاهد . وكان لا بد لهذه الألحان — كما وضعت وكتبت — من أن تشيع حركة في التمثيلية ، من أولها لآخرها ، وأن تجعل منها في مجموعها — في رأيي — لوحات جد مستحبة . ولكنني حين عرضت الفكرة على « الاوبرا » لم ألق مستمعا واحدا ، فاضطررت إلى أن أنسج سلسلة من الأغاني والرقصات ، بالطريقة المعتادة . وكانت النتيجة أن هذه الألحان وإن لم تضر بتأثير المشاهد ، إلا أنها لم تلق سوى نجاح متوسط برغم أنها كانت زاخرة بالأفكار البديعة . ولقد حذت الألدان اللقائية التي وضعها « جيليو » ، وأطلت محلها الحانا من وضعي ، هي تلك التي كانت موجودة في الأصل . فإذا بها قد اكتسبت شيئا من الصبغة الفرنسية — ، كما اعترف — واقصد بذلك الطريقة التي كان يلقيها بها الممثلون — إلا أنها لم تؤذ سمع أحد ، بل أنها كانت ناجحة من الناحية الموسيقية ، كما اعتبرت كذلك — من ناحية النظم — حتى لدى الجمهور . وأهديت التمثيلية إلى السيد « ديكلو » الذي رعاها ، وأعلنت أن هذا سيظل الأهداء الوحيد . على أنني كتبت إهداء لشخص آخر — بموافقة السيد « ديكلو » نفسه — ومع ذلك فإنه ولا بد قد وجد أن هذا الاستثناء قد زاده هو تكريما !

ولدى من هذه التمثيلية حكايات كثيرة ، ولكن ثمة أموراً أكثر أهمية لا تدع ضرورة ذكرها وقتاً أنفقه في تلك . على أنني قد أعود إليها يوماً ، في « الملحق » . وإن كنت — مع ذلك — لن أغفل واقعة معينة قد يكون لها أثر في كل ما أعقب ذلك من أحداث . فلقد اطلعت ذات يوم ، في مكتب البارون هولساخ ،

على موسيقاه . وبعد أن شهدت كثيرا من القطع ، قال لى وهو يرينى مجموعة من الألحان على المعزف : « هاك قطع لحتت من أجلى خصيصا ، وهى مليئة بالنوق ، صالحة للفناء ، وليس هناك من عرف بها أو رآها سواى . فخليق بك أن تختار واحدة منها تدسها فى الألحان التى تتخلل مشاهدك ! » . ولما كان ذهنى زائرا بموضوعات لالحن و « سيففونيات » تفوق ما كان بوسعى أن أفيد منه ، فأننى لم أبد كثير احتفال بالحنانه . على أنه راح يلح على بحرارة اضطرتت معها إلى أن انتقى إحدى افغانى الرعاة ، فاختصرتها وحورتها إلى قطعة ثلاثية تطبق بالمشهد الذى يلج فيه رفاق « كوليت » (١) المسرح . وحدث بعد بضعة أشهر — و « العراف » ما تزال تعرض — أن ولجت يوما غرفة « جريم » ، وإذا بنفر من الناس يحيطون بمعزفه ، وإذا به هو ينهض عن المعزف فى تعجل ، بمجرد وصولى . واتجه بصرى — بحركة آلية — إلى حامل « النوتة » الموسيقية ، فرايت مجموعة البارون دولباخ بالذات مفتوحة عند القطعة التى ألح على أن آخذها ، مؤكدا أنها لن تخرج من يديه قط ! وبعد ذلك ببعض الوقت ، رايت المجموعة ذاتها مفتوحة ، على معزف السيدة ديبيناي ، فى يوم دعت فيه بعض الأصدقاء إلى ندوة موسيقية فى دارها . ولم يتحدث جريم أو أى شخص آخر عن هذا اللحن ، وما كنت أنا لأقول عنه شيئا ، لو لم يشع بعد قليل ، أننى لم أكن مؤلف « عراف القرية » . ونظرا لأننى لم أكن يوما عازفا ماهرا ، غانى أوقن أنه كان من المحتمل أن

(١) بطلة أوبرا « ممرات القرية » m.

يقال اننى لم اكن اعرف شيئا عن الموسيقى ، لولا « قاموس الموسيقى » الذى كنت قد وضعته (١) .



ولقد حدث قبل إخراج « عراف القسرية » بفترة من الزمن ، أن وصل إلى باريس بعض الممثلين الهزليين الإيطاليين فدعوا إلى التمثيل في « الاوبرا » دون أن يخطر ببال ما كان مقدرًا أن يترتب على ذلك . وإذا كانوا سييء التمثيل ، وكانت الفرقة الموسيقية إذ ذاك من الجهل بحيث قضت - غير حافلة - على لذة القطع التى كانت تعزفها ، فإنهم الحقوا بفن الاوبرا الفرنسية ضررا لم يتسن قط إصلاحه . ذلك لأن الفارق بين هذين النوعين من الموسيقى (٢) ، اللذين كانا يسمعان في الدار ذاتها ، في يوم واحد ، فتح الأذان الفرنسية ، فلم تعد تطبق بطة الموسيقى التى اعتادتها ، بعد الوضوح والنشاط اللذين امتازت بهما الموسيقى الإيطالية . فما كاد المهرجون الإيطاليون ينتهون من عرضهم ، حتى كان الناس يبادرون إلى الانصراف . فرؤى أن من الضروري تغيير نظام العرض ، وإرجاء الممثلين الهزليين إلى النهاية . فعرضت « ايجليه » ، و « بيجماليون » و « الجن » (٣) ، ولكن لحيا منها لم تستطع أن تستوى على

---

(١) ما كنت لأحدث على الإطلاق ، أن هذا سيقتل فيها بعد ، برغم وجود « قاموس »

(٢) موسيقى الاوبرا الفرنسية ، وموسيقى الاوبرا الإيطالية .

(٣) Eglé, Pysmalion, Lesylphe

ساقبها . ولم تصد لمقارنة سوى « عراف القرية » ، إذ قبولت باستحسان فاق « الوصيفة » (١) الإيطالية ذاتها . وكان ذهني مليئا — عندما وضعت المشهد الذي بين فصلي تمثيليتي — بالحن تلك المسرحية الإيطالية ، فاستعرت بعض افكار منها . غير أنني كنت أبعد من أن أتوقع أن انتقد في هذه الناحية . ولو أنني كنت ممن يسطون على إنتاج الغير ، فكم من سرقات كان يجب أن تتكشف ، وكم كان هناك من المشوقين إلى أن يعنوا بإبرازها ! ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، وقد ضاعت هيأة كل المحاولات التي بذلت للعثور في إنتاجي الموسيقى على أثر من موسيقى سسواي . . . كما أن كل أغاني كانت تبدو — إذا ما قورنت بالأغاني الأصلية التي كان يزعم أنني اخفتها عنها — جديدة ، جدة الطابع الموسيقى الذي ابتدعته . ولو أن « موندوفيل » أو « رامو » تعرض لمثل هذا الفحص والمقارنة لخرج منه مهلهلا !

ولقد اكتسب الممثلون الهزليون للموسيقى الإيطالية مستمعين جد متحمسين ، فإذا باريس بأسرها تنقسم إلى فريقين ، راحا يتجادلان في منف وكانهما يصدد مسألة متعلقة بالدولة أو بالدين . وكان أقواهما نفوذا ، وأكثرهما عددا ، يتألف من العظماء ، والأغنياء ، والنساء ، ويتشبهت بالموسيقى الفرنسية . . . أما الآخر — وهو أكثرهما حمية ونشاطا وتحمسا — فكان يتألف من

II) Serva Padrona « وهي إحدى التمثيليات التي كانت الفرقة

الإيطالية تعرضها .

فنانين حقيقيين ، ومن أكفاء ونوابغ . وكانت عصابة تجتمع في دار « الأوبرا » ، تحت مقصورة الملكة ، بينما كان الفريق الآخر يملأ بقية الصالة ، ولكنه كان يتخذ مكان اجتماعه الرئيسي ، تحت مقصورة الملك . ومن هنا جاء اسم الحزبين الذين اشتهرا في ذلك الحين : « ركن الملك » ، و « ركن الملكة » .

وأدى الخلاف — إذ احتدم — إلى إصدار منشورات . فإذا شاء « ركن الملك » أن يهزا ، سخر منه « النبي الصغير » ، وإذا أقحم نفسه في جدال ، أفحمته « رسالة في الموسيقى الفرنسية » . . . وكانت هاتان النشرتان هما الوحيدتان اللتان كتب لهما البقاء في هذه المعركة ، أما النشرات الباقية فقد ماتت . . . وكان « جريم » يحرر الأولى ، وأنا أحرر الأخرى !

بيد أن « النبي الصغير » ظلت تنسب إلى طويلا — في إصرار — برغم إنكارى ، وكانت تحرر بأسلوب فكه ، ولا تجشم محررها أقل عناء . . . في حين أن « رسالة في الموسيقى » كانت تميل إلى الجد ، وقد أثارت ضدى الأمة بأسرها ، إذ خيل إليها أنها — ممثلة في موسيقاها — قد أهينت . . . وأن وصف الأثر الذى أحدثته هذه النشرة — والذى يفوق ما يصدقه العقل — لجدير بقلم « تاسيتوس » (١) . . . وكانت تلك فترة الصراع الأكبر بين البرلمان ورجال الكهنوت . . . وكان البرلمان قد أوقف عن الاجتماع ، وبلغت غورة السخط ذروتها ، وأخذ كل شيء ينذر

---

(١) كورنيليوس تاسيتوس ، كاتب ومحام ذاع صيته في التاريخ الرومانى وقد عاش فيها بين سنتى ٥٥ و ١٢٠ بعد الميلاد وله مؤلفات تاريخية عديدة .

بانفجار وشيك !.. وما ان ظهرت النشرة ، حتى انصرفت  
الخواطر لتوها عن المعارك الأخرى ، ولم يعد ثمة تفكير في غير  
الخطر المحدق بالموسيقى الفرنسية ، ولا عاد ثمة هياج إلا ضدى  
أنا .. بل انه كان من الشدة بدرجة أن الأمة لم تفلح منه أبدا .  
ففى البلاط ، لم تعد ثمة موازنة إلا بين « الباستيل » والنفى ،  
وكان من المحتمل التعجيل بأمر القبض على ، لو لم يفلح السيد  
دى قوبييه فى إيضاح ما فى هذا من تصرف أخرق . وقد يظن  
القارئ أننى أهرف ، حين يقرأ أن من المحتمل أن هذه النشرة  
حالت دون قيام ثورة فى الدولة . ومع ذلك فإن هذه الحقيقة  
واقعة ، لعل باريس بأسرها تشهد بها حتى اليوم ، إذ لم يمض  
بعد على هذه الواقعة العجيبة خمسة عشر عاما (١) .



وإذا كانت حريتى لم تصادر ، فإننى لم أعف من أدنى  
الإهانات ، بل أن حياتى أصبحت فى خطر . فأعدت فرقة  
موسيقى « الأوبرا » مؤامرة شريفة (١) لاغتيالى أثناء مغادرتى  
المسرح . وقد نمت إلى ، فلم تزدنى إلا ترددا على « الأوبرا » ،  
ولم أعرف إلا بعد ذلك بوقت طويل ، أن السيد « انسيلو » -  
الضابط فى فرقة الفرسان - الذى كان يكن لى مودة ، قد  
أفسد مفعول هذه المؤامرة ، إذ دبر حمايتى - عند مبارحتى  
الأوبرا - دون أن أشعر . وكان أول استغلال لنظام إشراف  
البلدية على دار الأوبرا ، هو حرمانى من الدخول ، وأن يحدث

---

(١) كتب روسو هذا الجزء حوالى سنة ١٧٦٨

ذلك بأشد الأساليب المهينة . . أى بمنعى علنا من الدخول بدون « تذكرة » ، بطريقة اضطررتنى إلى ابتياع « تذكرة » فى الشرفة العليا للدار (١) ، لكى اتفادى عار الرجوع دون دخول ، فى ذلك اليوم . وكان الظلم صارخا جدا ، إذ أن الثمن الوحيد الذى تقاضيته عن أوبراى ، عندما نزلت لهم عنها ، هو حق الدخول — دون مقابل — طيلة العمر . ذلك لأن هذا وإن كان حقا اعتاد أن يحظى به كل المؤلفين — ومن ثم فقد كان استحقاقى إياه مضامفا — إلا أننى حرصت على اشتراطه ، بحضور السيد ديكلو . ومن الصحيح أننى تلقيت — عن طريق خزانة الأوبرا — خمسين « لوى » كمكافأة شرفية لم أطلبها . . فضلا عن أن هذا المبلغ لم يكن يعادل ما كنت أستحقته وفقا للوائح ، فإن دفعه لم يكن ذا صلة البتة بحق الدخول دون مقابل ، الذى طالبت به رسميا ، والذى كان أمرا مستقلا تماما عن الموضوع !

ولقد جمع هذا التصرف بين عدم المساواة والفظاظة الجائرة ، حتى أن الجمهور — الذى كان فى أوج عداوته لى — لم يحجم عن إيداء استنكاره جهارا وبالأجماع ، وصاح كثيرون — ممن كانوا يسبوننى فى الليلة السالفة — بأعلى أصواتهم فى دار « الأوبرا » ، بأن من العار أن يحرم من حق الدخول — وبهذا الأسلوب — مؤلف يستحقه عن جدارة ، بل وله أن يصحب معه شخصين بالمجان ، وهكذا صدق المثل الإيطالى القائل : « يعرف الصديق فى المحنة » .

Ogn'un ama la giustizia in casa d'altrui

(١) أننى الدرجات فى المسرح . . « أعلى التياترو » .

ولم يكن لدى إزاء هذا سوى قرار واحد ، هو أن أسترد تمثيلتي ما دمت قد حرمت الجزء المتفق عليه . ومن ثم كتبت إلى السيد دارجنسون ، الذي كان يتولى إدارة « الأوبرا » ، وأرفقت رسالتي بذاكرة لم أكن قد تلقيت منها ردا ، فظلت المذكرة — وكذلك الرسالة — دون جواب ودون رسالة . ولقد ظل صمت هذا الرجل الظالم راسخا في فؤادي ، ولم يساغد على تنبيه التقدير الضئيل الذي كنت دائما أحسه نحو شخصيته ونحو مواهبه . وهكذا احتفظت « الأوبرا » بتمثيلتي وسلبتني الجزء الذي كنت قد نزلت في مقابله عن حقوقتي فيها . وعندما يحدث هذا العمل من الضعيف نحو القوى ، فإنه يعتبر سرقة . . أما إذا حدث من القوى نحو الضعيف فهو ليس سوى انتفاع بما للغير وحسب !

أما الكسب المالى الذى دره هذا العمل الفنى ، فمع انه لم يرق إلى ربع ما كان يدره على أى مؤلف سواى ، إلا انه كان — بالنسبة إلى — من الضخامة بحيث انه كان كافيا لأن يمكننى من العيش عليه سنوات عدة ، وأن يعوضنى عن عملى فى النسخ ، إذ أن هذا العمل كان كاسدا على الدوام . فلقد نلت مائة « لوى » من الملك ، وخمسين من السيدة دى بومبادور — عن عرض التمثيلية فى ( البيل فى ) ، حيث قامت هى نفسها بدور كولان — وخمسين من « الأوبرا » ، وخمسمائة من « بيسو » مقابل نشرها . . أى أن هذا العمل الثانوى ، الذى لم يكلفنى سوى عمل خمسة أسابيع أو ستة ، در على من النقود — برغم سوء حظى وبرغم غيائى — ما يعادل مآدره على كتابى « اميل » الذى

استغرق منى عشرين عاما في التفكير ، وثلاثة في التأليف ! .. على أنني دفعت ثمنا غاليا، في مقابل الكسب المادى الذى اجدته على هذه التمثيلية .. وقد تمثل هذا الثمن فى المضايقات التى لا نهاية لها ، والتى ترتبت عليها . إذ كانت هذه التمثيلية بكرة الاحقاد الخفية النائسة عن الغيرة ، والتى لم تتكشف إلا بعد ذلك بوقت طويل ! .. ولم أعد — منذ نجاحها — أجد من جريم وديدرو ، أو من أى من الأدباء الذين كنت أعرفهم — فيها عدا القليل — الحفاوة والصراحة وحسن المعاشرة التى كنت أخالنى قد عثرت عليها لديهم من قبل . وأصبحت لا أكاد أظهر فى دار البارون ، حتى يكف الحديث عن أن يكون عاما .. وينجمع القوم فى فرق صغيرة ، ويدور التهامس ، بينما أظل وحيدا لا أجد من أبادلله الحديث .. ولقد تحملت طويلا هذا الانفضاض عني، ولما كنت أرى أن السيدة دولباخ — التى كانت لطيفة وحفية — قد ظلت تكرم وفادتى باستمرار ، فأننى رحت اتقبل جفوة زوجها بقدر ما كانت هذه الجفوة محتملة . ولكنه فى أحد الأيام تحرش بى دون داع ، ودون مبرر ، وفى غلظة بالغة ، فى حضور ديدرو ، الذى لم ينبس بكلمة .. وفى حضور مارجنسى ، الذى كثيرا ما أعرب لى — منذ ذلك الحين — عن إعجابه بالهدوء والاعتدال اللذين اتسمت بهما إجاباتى .. وانتهى الأمر إلى أن طردت من منزله بفضل هذه المعاملة المهينة، فخرجت منه وقد عقدت العزم على ألا أعود إليه إطلاقا . على أن هذا لم يمنعنى من أن أتحدث بأمانة واحترام عنه وعن منزله ، فى حين أنه لم يذكرنى دائما إلا بعبارات حاقدة ، جارحة ، فما وصفنى مرة إلا بـ « خادم المدرسة » الصغير ،

دون أن يملك — برغم ذلك — أن يعين إساءة واحدة ، أيا كان نوعها ، بدرت منى نحوه أو نحو أى امرئ كان يهتم بأمره . وهكذا انتهى إلى أن حقق تنبؤاتى وهو أجسى ! .. أما أنا ، فاعتقد أن أصدقائى المذكورين كانوا على استعداد لأن يغفروا لى تأليف الكتب — وأن تكن كتباً رائعة — لأن هذا المجد لم يكن غريباً منهم . بيد أنهم لم يكونوا يغفرون لى أن وضعت أوبرا ، ولا أن لقي هذا العمل الأدبى الفنى نجاحاً باهراً ، لأن أحداً منهم لم يكن فى وضع يمكنه من أن ينهج عين هذا النهج ، ولا أن يطمع فى عين ما نلت من تقدير وتكريم ! .. كان ديكو وحده هو الذى سما فوق الغيرة ، بل أنه بدا أكثر مودة لى ، واصطحبني إلى دار الأنسة « كينول » ، حيث لقيت رعاية ، وأنسا ، وملاطفة ، بقدر ما اعتقدت فى دار السيد دولباخ !



وبينما كانت « العراف » تمثل فى « الأوبرا » كان مؤلفها موضوع مناقشة فى « الكوميدي فرانسيز » ، ولكنه كان أقل حظاً من تمثيليته .. ذلك أننى إذ عجزت — خلال سبع أو ثماني سنوات — عن عرض « فارسيس » فى مسرح الإيطاليين ( أوزيتاليان ) ، بغضت هذا المسرح الذى كان يمثلوه يسيئون أداء المسرحيات الفرنسية . ومن ثم فقد كان حرياً بى أن أكون أشد رغبة فى أن تعرض تمثيلتى فى المسرح الفرنسى — الكوميدي فرانسيز — منى فى أن تعرض لدى الإيطاليين . وأفضيت برغبتي إلى « لانو » الممثل الفكاهى ، الذى كنت قد تعرفت إليه ، والذي كان معروفاً — كذلك — بأنه رجل فاضل ذو نفوذ .

ولقد أعجب بتمثليتي الفكهة « نارسيس » ، واخذ على عاتقه أن يعمل على إخراجها دون إعلان اسم مؤلفها . وحصل لى - فى الوقت ذاته - على ترخيص بالدخول ، دون مقابل ، سررت به كل السرور ، إذ كنت دواما أوتر المسرح الفرنسى على المسرحين ( الأوبرا ، والإيطالى ) . واستقبلت التمثيلية باستحسان ، برغم أنها قدمت دون ذكر المؤلف . . بيد أن لى ما يحملنى على أن اعتقد أن الممثلين ، وكثيرين غيرهم ، لم يكونوا يجهلونه . ولقد قامت الانستان «جوسان» و « جرانفال » بدورى العاشقين . ومع أن الأداء أسفر عن نقص فى البراعة ، إلا أنه - بوجه عام - لا يمكن أن يوصف بأنه سيء تماما . على أننى دهشت - وتأثرت - لما تبدى من استغراق الجمهور ، إذ راح يصفى فى صبر وهدوء ، من أول التمثيلية إلى آخرها ، بل وسمح بعرضها مرة ثانية ، دون أن يبدى أية بادرة تنم عن ملل !

أما أنا ، فقد بلغ من ضجرى - فى العرض الأول - أننى لم أستطيع المكث إلى النهاية . فتركت المسرح وذهبت إلى مقهى ( دى بروكوب ) ، حيث وجدت « بواسى » وبعض الآخرين ، الذين يحتمل أن يكونوا قد ضجروا مثلى . وهناك ، أعلنت مثلى بصوت عال ، معترفا فى شجاعة وتواضع بأننى مؤلف التمثيلية ، ومتحدثا عنها بما كان الجميع يرونه فيها . ولقد لقي هذا الاعتراف العلنى من مؤلف تمثيلية رديئة ساقطة ، إعجابا قويا ، حتى أنه بدا لى أقل ما يكون إيلاما ! . . كذلك وجدت جزاء لعواطفى الصديقة فى الجراة التى أقدمت بها على

اعترافى . واعتقد أننى — فى هذه المناسبة — لفيت فى الكلام زهواً يفوق ما كنت خليقاً بأن أجده من حياء زائف لو أننى لذت بالصمت ! .. على أننى — إذ تبينت أن لا شك هناك فى أن التمثيلية قد تروق كمادة للمطالعة ، وإن كان التمثيل قد شوهها — عملت على طبعها ، وبدأت فى المقدمة — التى كانت من خير ما كتبت — أكشف عن مبادئى فى صراحة تفوق قليلاً كل ما فعلت من قبل .

وسرعان ما سنحت لى فرصة الإقدام — فى غير ما تحفظ — على عرض هذه المبادئ فى مؤلف أدبى عظيم الأهمية . فقد حدث فى ذلك العام ( ١٧٥٣ ) — على ما أظن — أن اتخذ محفل ديجون من موضوع « منشأ عدم المساواة بين البشر » مادة لبرنامج مسابقته . وهزنى هذا الموضوع العظيم ، وأذهلنى أن جرو المحفل على عرضه للمباراة . على أنه إذا كان قد أوتى هذه الشجاعة ، فقد رأيت أن بوسعى أن أوتى الشجاعة على الخوض فيه . . وشرعت فى ذلك .

\* \* \*

ولكى أنكر فى هذا الموضوع العظيم ، وأنا مرتاح الخاطر قمت برحلة إلى ( سان جيرمين ) ، حيث قضيت سبعة أيام أو ثمانية ، مع تيريز ومضيفتنا — التى كانت امرأة طيبة — وإحدى صديقاتها . واتى لأحسب هذه النزهة بين أحب ما قمت به من نزعات فى حياتى . . وكان الجو جميلاً ، وقد اضطلعت هاتان المرأتان الطيبتان بالمطالعة والنفقات . وراحت تيريز تتسلى بصحبتهما . أما أنا، فقد خلوت من الشواغل، ورحلت أشاطرهن

ابتهاجهن في أوقات الوجبات ، متخففا من كل هم . وكنت اقضى بقية النهار موغلا في الغابة ، حيث اخذت ابحث ، وحيث وجدت صورة العصور الاولى ، فرحت اتعقب التاريخ خلالها في جراءة ، مهونا من شأن اكاذيب البشر الثقافية . . وتجاسرت على ان اكشف طبيعتهم ، واتعقب سير الزمن والأشياء التي شوهدت هذه الطبيعة . . وبالمقارنة بين الإنسان — كما صنعه الإنسان — والإنسان كما صنعه الطبيعة ، كشفت له — في كماله المزعوم — عن المصدر الحقيقي لمصائبه وشقاقه . وارتفعت روحى — وقد انتشت بهذه التأملات السامية — إلى مقربة من مقام الربوبية ، فاطللت من هناك على أقرانى من أبناء البشر ، وهم يسرون عميانا في طريق الأباطيل والأوهام ، وطريق أخطائهم ، ومحنهم ، وجرائمهم . . ورحت أصيح بصوت واهن ما كانوا يستطيعون أن يسمعوه : « أيها الحمقى ، الذين لا يكفون عن الشكوى من الطبيعة ، الا اعلموا ان كل مساوئكم إنما تنبثق منكم ! » .

وكانت نتيجة هذه التأملات : « حديث في عدم المساواة » ، وهو مقال صادق هوى من نفس ديدرو ، فاق كل ما صادفته كتاباتى الأخرى ، وقد أولانى نصيحة بشأنه ، كانت أنفع النصائح (١) ، ولكنها لم تجد في أوربا كلها من القراء من أدركها

---

(١) علق « روسو » على هذا ، بقوله : « لم يكن لدى — في الوقت الذى كتبت فيه هذا — أى حدس عن مؤامرة ديدرو وجريم الكبرى ، والا لكنت قد رايت بسهولة كيف استغل الأول لغتى ، لى يطلع على كتاباتى هذا الأسلوب »

سوى قليلين ، ولم يشأ واحد من هؤلاء أن يتكلم عنها ! ..  
وكان المقال قد كتب من أجل المسابقة ، فأرسلته وأنا واثق  
— سلفا — بأنه لن يفوز بنجاح ، إذ كنت أعرف عن يقين أن  
جوائز المحافل لم تخلق للأعمال الأدبية التي من هذا النوع !

وادت هذه النزهة وهذا الشساغل إلى تحسن مزاجي  
وصحتي . إذ كنت منذ عدة سنوات معذبا باحتباس البول ،  
وقد استسلمت نهائيا للأطباء ، فاستنزفوا قواي — دون أن  
يخففوا عنتي — وهدموا بنيتي . ولكنني عندما عدت من ( سان  
جيرمين ) وجدت مزيدا من القوى ، وشعرت بكثير من التحسن .  
وتبعت هذه المبادرة ، فعمدت العزم على أن اشفي أو أن أموت  
دون معونة الأطباء أو العقاقير . وودعتهم إلى الأبد ، وشرعت  
أعيش ليومي ، أستريح عندما أعجز عن المشي ، وأسير بمجرد  
أن أملك القدرة على السير . وكانت الحياة في باريس ، بين قوم  
أدعياء محبين للمظاهر ، لا تروق لي . . كان تعصب الأدباء

---

الجاف ، وهذا الجو القاتم اللذين لم يستبرا بعد أن توقف من توجبهم . . فالجزء  
الخامس بالفيلسوف الذي سد أذنيه — خلال إحدى نقاط الجدل — حتى يكتسب  
صلابة دون أنات رجل في محنة ، من أسلوب ديديرو . . وقد أمدني بكثير غير هذا  
الجزء ، وبنوقه لسدة ، حتى أنني لم أفر على حمل نفسي على استعماله . على  
أنني عزوت تلك الروح القائمة إلى ما جرى له في « زلزلة » فانتسين . . وأن  
هذه الروح لتبدو مرة أخرى ، وبنسبة كبيرة ، في مؤلفه « كيرفال » . بيد أنه  
لم يخطئ ببالي إطلاقا أن أرتاب في أن هذا كان يتطوى على أدنى نية خبيثة !

وتحزيبهم ، ومنازعاتهم المخزية ، وافتقارهم إلى النقاء الذى يتجلى فى كتبهم ، والمظهر المترفع الذى يخدعون به المجتمع . . كل هذه كانت بغيضة إلى نفسى ! . . وما أقل ما وجدت من رفق وسلامة قلب وصراحة فى الاتصال بالناس ، لا سيما أصدقائى ! . . حتى لقد عافت نفسى هذه الحياة الصاخبة ، واخذت اتوق — فى رغبة صادقة — إلى الإقامة فى الريف . ولما لم أجد أى أمل فى أن تمكننى مهنتى من الاستقرار هناك ، رحلت أسارع إلى قضاء بضع الساعات — التى كنت أستطيع أن أمزغ فيها من العمل — هناك . واعتدت ، لعدة أشهر ، أن أخرج للرياضة وحيدا — عقب الغداء فى بداية الأمر — فى غابة ( بولونيا ) ، لأدير فى فكرى موضوعات لأولغافى المقبلة . ولم أكن أعود قبل هبوط الليل !

### من سنة ١٧٥٤ إلى سنة ١٧٥٦

راى « جوفكور » — الذى كانت علاقائى به فى أوج توثقها إذ ذاك — أن لا بد له من الرحيل إلى ( جنيف ) بحكم عمله ، فعرض على أن أرافقه فى هذه الرحلة . ووافقت على ذلك . وإذا لم أكن بصحة جيدة استغنى معها عن عناية « الدادة » (١) ، فقد تقرر أن تكون معنا فى الرحلة ، وأن تتولى أمها حراسة البيت . وأعددتنا مدتنا على أن نرحل نحن الثلاثة معا ، فى أول يونيو سنة ١٧٥٤

---

(١) يعصد تميز .

وجدير بى أن أنظر إلى هذه الرحلة على أنها فطرة التجربة الأولى التى صادفتنى خلال سننى عمى الاثنتين والأربعين — إذ ذاك — والتى نبهتنى إلى تلك الفطرة المفعمة بالثقة التى فطرت عليها والتى اعتدت دائماً أن أسلم نفسى إليها دون ما تحفظ ولا حرج . وكانت لدينا مركبة متوسطة ، راحت تقطع بنا الرحلة على مسافات جد قصيرة ، دون أن تستبدل جواذبيها . وكنت كثيراً ما أهبط وأسير على قدمى . ولم نكد نقطع نصف طريقنا ، حتى أبدت تيريز أعظم نفور من أن تبقى وحيدة فى العربة مع « جوفكور » ، فما أن رغبت فى الهبوط — بالرغم من رجائها — حتى هبطت هى الأخرى وسارت . وظللت الومها وقتاً طويلاً على هذه النزوة ، بل ورحت أعارضها بشدة ، حتى رأت نفسها مضطرة — فى النهاية — إلى أن تصارحنى بالسبب . . . وخيل إلى أننى أحلم . . . وهويت من حلق ، عندما سمعت أر صديقى السيد دى جوفكور ، المسن الذى جاوز الستين ، والمصاب بالنقرس ، والمنهار البنيان ، والذى هدته حياة اللهو والعبث . . . صديقى هذا كان يبذل غاية جهده ، مبدأنا الرحلة ، ليفسد امرأة لم تعد شابة ولا جميلة ، امرأة كانت لصديقه . . . وكان يسعى إلى ذلك بأحط الوسائل ، وبأدعائها إلى الخجل ، حتى لقد قدم إليها كيس نقوده . . . وحتى لقد حاول أن يثير نزواتها بأن راح يقرأ عليها كتاباً فاحشاً ، وبأن أخذ يريها الصور الفاضحة التى امتلأ بها الكتاب . . . ولقد أقت تيريز بالكتاب الخبيث — مرة — من العربة ، وهى فى غمرة السخط . وقالت : ان الرجل فى أول يوم فى الرحلة ، انتهر غرسية إيوائى إلى

الفراش قبل العشاء - إذ كنت أعانى صداعا شديدا - واستنفذ الوقت كله - وقد كان خلاله وحيدا معها - فى محاولات وتصرفات أكثر لياقة بالحيوان المهتاج ، أو بالجدى ، منها برجل محترم ، ائتمنته على نفسى وعلى رفيقتى !

يا للمفاجأة ! .. ويا له من ألم فى الفؤاد جديد على ! ..  
 ايقدر لى ، أنا الذى كان يؤمن حتى ذاك الوقت بأن الصداقة لا تنفصل عن كل المشاعر المستحبة والنبيلة التى تكسبها بهاءها - أن أجد نفسى لأول مرة فى حياتى ، أقرن هذه الصداقة بالازدراء ، وأسحب ثقتى وتقديرى من رجل كنت أحبه ، وكنت أعتقد أننى محبوب منه ؟ ! .. لقد أخفى انتعس مسلكه المعيب عني ، ولكى اتجنب إحراج تيريز ، ألفتنى مضطرا إلى أن أخفى عنه استيائى ، وإلى أن أدفن فى قرارة فؤادى مشاعر ما كان له أن يعلم بها إطلاقا ! .. فيا وهم الصداقة الوداع القدسى ، لقد كان جوفكور أول من رفع نقابك لعينى ، وكم من أيد قاسية قد حالت - منذ ذلك الحين - دون هبوط هذا النقاب على وجهك ثانية !

وتركت جوفكور فى ( ليون ) ، لاتخذ طريقى خلسال إقليم ( سافوا ) ، إذ لم أقتو على أن أمر - من جديد - على مقربة من « ماما » دون أن أراها . ولقد رأيتها .. ولكن ، يا الهى ! .. فى أية حال ؟ بل فى أى هوان ؟ ! .. ما الذى تبقى لها من صفاتها الأولى ؟ .. انهذه هى السيدة دى فاران بعينها ، التى كانت مثالقة ، والتى أوفدنى إليها أسقف بونفير ؟ .. لشدد ما حزن قلبى ! .. ولم أر لها من مخرج سوى أن تترك إقليمها . ورحلت الحف عليها فى حرارة ، ودون جدوى ، مرددا ما ألححت

عليها به عدة مرات في خطاباتي ، ضارعا إليها أن تأتي فتعيش  
معي في سكينه ، وتسمح لي بأن أكرس أيامي وأيام تيريز من  
أجل أن نحيل أيامها سعيدة . ولكنها أبت أن تصغي إلي  
متشبهة بمعاشها الذي لم تسحب منه شيئا ، منذ أمد طويل ،  
برغم أنه كان يدفع بانتظام . ووهبتها — مرة أخرى — قسسطا  
طفيفا من نقودي ، يقل عما كان ينبغي أن أعطيها ، وأقل مما  
كان يجب أن أقدم لو لم أكن موقنا تمام اليقين من أنها لن تفيد  
منه بـ « سو » واحد !

ولقد قلقت — أثناء مكثي بجنيف — برحلة في ( شابليه ) ،  
مجمعت لزيارتي في ( جرانج كانال ) . وكان يعوزها المال كي  
تواصل الرحلة ، ولم أكن أحمل معي ما كان لازما لها ، فأرسلته  
إليها بعد ساعة ، بوساطة تيريز . يا للسكينه « ماما » ! ..  
فلأذكر دليلا واحدا جديدا ، على طيبة قلبها : ذلك أنه لم يكن قد  
تبقي لها من حليها ، سوى خاتم صغير ، فخلعته عن أصبعها  
لتضعه حول أصبع تيريز ، التي نقلته في التو إلى أصبع « ماما »  
من جديد ، وهي تقبل تلك اليد النبيلة وترويهها بدموعها !  
.. آه ! كانت تلك هي اللحظة المواتية لكي أسدد ديني ! ..  
كان خليقا بي أن أهجر الكل لاتباعها ، وأن ألزمها حتى ساعتها  
الآخرة ، وأن أقاسمها حظها ، معها يكن ! .. ولكني لم أفعل  
شيئا من هذا القبيل ، فقد شعرت — وقد شغلت عنها بغيرها —  
أن الرابطة التي كانت تشد كلا منا إلى الآخر قد تفككت ، إذ

كان ينقصها الرجاء في ان أستطيع ان احيل علاقتى بـماما إلى شيء نافع لها ! .. ولقد بكيت حسرة عليها، ولكننى لم اتبعها .. وليس بين بواعث تأنيب الضمير التى صادفتنى فى حياتى، ما هو اشد ولا أبقي من هذا الباعث ! .. وانى لأستحق الوان العقاب الفظيعة التى لم تكف عن تعذيبى منذ ذلك الحين .. فليتها تكفر عن جحودى ! .. الجحود الذى تبدى فى مسلكى فعلا ، ولكنه مزق قلبى فى عنف ما كان ليحدث لو أن هذا القلب كان قلبا جاحدا يوما !



كنت قبل رحيلى من باريس قد شرعت فى صوغ إهداء « حديث فى عدم المساواة » ، وقد فرغت منها فى ( شامبيري ) ، وسجلت تاريخ ذلك اليوم مقرونا باسم المكان ، إذ رأيت أن من الأمثل الا أقرن التاريخ باسم باريس أو جنيف ، كى أتفادى كل المضايقات . وإذا وصلت إلى ( جنيف ) ، أسلمت نفسى لتحسسى وهيامى بالنظام الجمهورى .. هذا التحمس المستهام الذى قادنى إلى هناك، والذى ازداد بالاستقبال الذى حظيت به . وفى غمرة المآذب والمجاملات التى أحاطتنى بها كل الأوساط ، استسلمت بكل كيانى إلى الفيرة الوطنية ، وقد أخلجتنى أن أحرم من حقوقى كمواطن بسبب اعتناقى دينا يخالف دين آبائى (١) ، فقررت أن أعود إلى هذا الأخير علانية . ورأيت أن الأنجيل

---

(١) كان « روسو » قد تحول من الكاثوليكية الى البروتستانتية فى صباه .

واحد لجميع المسيحيين ، وأن لب العقيدة ما يختلف إلا باختلاف أولئك الذين اقموا أنفسهم في تفسير ما كانوا عاجزين عن فهمه . ولقد كان من حق الحاكم الفرد - في كل بلد - أن يعين أسلوب العبادة ، وأن يبت في مسألة العقيدة المعقدة . . . ومن ثم غان واجب الرعية أن يقرروا العقيدة وأن يمارسوا أسلوب العبادة اللذين نص عليهما القانون . وكان طول اختلاطى بأهل البحث والدراسة أبعد من أن يزرع إيماني ؛ بل أنه عززه ، لا سيما وأنتى كنت أغفر من المنازعات والتعصب . ولقد أدت دراسة الإنسان والكون - في كل مكان - إلى إطلاعى على القضايا الرئيسية والعقلية التى توجهها . ولقد علمتني قراءة التوراة - لا سيما الاتجيل الذى انصرفت إليه عدة سنوات - كيف أزدري التفسيرات الجوفاء الحمقاء ، التمر خلعها على تعاليم عيسى المسيح أناس ليسوا أهلا لإدراكها على الإطلاق ! . . . ومجمل القول أن الفلسفة إذ قربتني من جوهر الدين ، صرفتني عن هذا الركाम من قواعد الإيمان الزائفة التمر حجبت عن الناس هذا الجوهر !

وكما كنت أومن بأن صاحب العقل المدرك ليس بحاجة إلى طريقتين يختار بينهما فى الوصول إلى المسيحية ، فانتى كنت أومن كذلك بأن كل ما هو قاعدة ونظام - فى كل دولة - إنما يدخل فى نطاق التشريع والقانون . ومن هذا البدأ المعقول : الاجتماعى ، السلمى - الذى جر على ما جر من اضطهادات قاسية - انسابت هذه النتيجة : إذا شئت أن اصبح مواطنا :

فلن من واجبي أن أكون بروتستانتيا ، وأن أعود إلى دين وطني .  
 وعقدت عزمي على ذلك ، بل أنني استشرت في ذلك راعي  
 الأبرشية التي كنت أقيم فيها ، والتي كانت خارج المدينة . . ولم  
 أكن أرجو سوى ألا اضطر إلى أن أمثل أمام مجمع الكرادلة .  
 ومع أن المراسم الكنسية كانت حاسمة في هذا الصدد ، إلا أنه  
 رؤى التجاوز عنها إكراما لي ، فعينت لجنة من خمسة أو ستة  
 أعضاء ، لتتلقى إقرارى بعقيدتي ، في جلسة خاصة . وليسوء  
 الطالع ، شاء القس « برديو » - وكان شخصا لطيفا ، ليئا ،  
 ربطتني به روابط من الود - أن يلج على بأن من دواعي القبطة  
 أن ألقى كلمة في هذا الاجتماع الصغير . وأزعجتني توقع هذه  
 الكلمة ، إلى درجة أنني - بعد دراسة شغلت بها ليل نهار  
 لثلاثة أسابيع - أعددت خطابا قصيرا . . وارتبكت عندها حانت  
 لحظة إلقائه ، حتى أنني مجزت عن أن أنطق بكلمة واحدة منه . .  
 وتصرفت كأغبي تلاميذ المدارس ! . . وتولى أعضاء اللجنة عني  
 الحديث ، ورحت أجيب في عي « لا » و « نعم » ، ثم قبلت  
 في الطائفة ، وردت إلى حقوقي كمواطن . . وكذلك أدرج اسمي  
 في قائمة « الحرس الوطني » الذي كان يتقاضى موارده من أبناء  
 المدينة والطبقة المتوسطة فحسب (١) ، ودعيت إلى اجتماع غير  
 مادي للمجلس العام ، لتلقى اليمين من « السنديك » موسار (٢) .  
 ولقد تأثرت للعواطف الطيبة التي أبدتها لي المجلس ومجمع

(١) فك « روسو » أنه كان يتم خارج المدينة ، فكان شبهه إلى الحرس

نوعا من التكريم له .

(٢) « السنديك » هنا لقب كان يطلق على رئيس الهيئة .

الكرادلة - في هذه المناسبة - وللإجراءات الكريمة الحفية التي صدرت من جميع المستشارين والقساوسة والمواطنين ، حتى أنني - بدافع من الرجاوات الملحة من ديوك الطيب ، ومن ميلي الصادق بوجه خاص - لم أعد أفكر في العودة إلى باريس إلا لكي اتخلص من مسكني ، وأسوى أعمالي البسيطة ، وأجد عملاً للسيدة لوفاسير وزوجها - يقيهما العوز - ثم أعود مع تيريز فغستقر في ( جنيف ) بقية أيامي .

وإذ استقر رأيي على هذا القرار ، أرجأت كل الشواغل الهامة ، لكي أتناه باصدقائي إلى أن يحين وقت الرحيل إلى باريس . وكانت أكثر ألوان التسلية إرضاء لي ، هي الطواف حول البحيرة في قارب مع ديوك الأب ، وزوجة ابنه ، وتيريزي وقضينا سبعة أيام في هذه الجولة ، في أبداع طقس مفرته . وقد احتفظت بالذكريات الحارة للمواقع التي أطربتني - عند الطرف الأقصى للبحيرة - وأوردت بعض أوصافها في « هيلويز الجديدة » عندما كتبتها بعد سنوات !

وكانت الصلات الرئيسية التي عقدتها في جنيف - عدا صلاتي بديوك الذي تحدثت عنه - هي صداقتي للقس فيرن ، الذي كنت قد عرفت في باريس من قبل ، والذي كانت لدى عنه فكرة طيبة تفوق ما تبدى منه فيما بعد . . وصداقتي للسيد برندريو ، الذي كان - في ذلك الحين - راعي أبرشيته ريفية ، وأصبح اليوم أستاذاً للأدب ، والذي ساظل دائماً اتحصر على صحبته المنعمة باللفظ والدعة ، وإن كان هو قد رأى أن غصم هذه المعرفة ، كان عملاً سليماً . . وهناك السيد « جالابر » ،

الذى كان استاذا لعلم الطبيعة — إذ ذاك — ثم أصبح مستشارا و « مستديك » ، وقد قرأت عليه رسالتي عن عدم المساواة — بعد أن تجاوزت من المقدمة والاهداء — نبدا عليه أنه طرب لها . . . والاستاذ « لولان » ، الذى ظللت على مراسل معه حتى وفاته ، والذى ذهب فى ثقته بى إلى درجة أن عهد إلى بأن أبتاع بعض الكتب للمكتبة العامة . . . والاستاذ « فيرنيه » ، الذى أدار لى ظهره — ككل الناس — بعد أن أريته الأدلة على ود وصداقة كانا خليقين بأن يمسا قلبه ، إذا كان لقلب رجل من رجال الدين أن يتأثر بشيء ! . . . وشابوى ، الكاتب الذى خلف جوفكور فى العمل ، والذى رغب فى أن يخلفه فى الصداقة ، وسرعان ما خلفه فعلا . . . وميرسيه دى ميزير ، وقد كان صديقا قديما لأبى ، كما أثبت أنه كذلك بالنسبة لى ، ولكنه — بعد أن كان قد استحق تقدير وطنه من قبل ، ثم أصبح مؤلفا مسرحيا ومرشحا لمجلس المائتين — تحول عن آرائه ، ومرض نفسه للسخرية حتى وافته منيته . . . على أن التعارف الذى وضعت فيه أكبر أملى ، هو تعارفى مع « مولتو » . . . وكان شابا توحى مواهبه ونكاؤه المتأجج بمستقبل عظيم له . وقد اعتدت دائما أن أشعر بعطف عليه ، برغم أن مسلكه نحوى كثيرا ما يثير الريب ، وبرغم أنه كان على علاقات ودية بالذ أمدائى . . . على أننى — برغم كل هذا — لا أستطيع أن أصد نفسى عن التطلع إليه كشخص يرجى أن يكون يوما هو الذائد عن مذكراتى، والمنتقم لى ، بوصفى صديقه !

وفي غمرة هذه المتع والمرغبات ، لم أفقد ميلى إلى التزهات التى كنت أنطلق فيها وحيدا على قدمى ، فلم أكف عن ممارستها . . . وكَمْ من تزهات طويلة تمشيت خلالها على ضفاف البحيرة ، لم يكن يمكنى خلالها فى راسى - الذى اعتاد العمل - شىء من الهواجس . وكنت ألقب فى ذهنى أثناءها المشروع الذى كنت قد رسمته من قبل ، لكتابى : « المذاهب السياسية » ، الذى لن ألبث أن أتحدث عنه . . . كذلك كنت أفكر فى كتابة « تاريخ فاليه » (١) . . . ومأساة شعرية لم يجردنى موضوعها - الذى لم يكن سوى حياة « لو كريس » (٢) - من الأمل فى خنق الضحكات ، وإن كنت قد جرؤت على أن أقدم هذه المرأة التمسعة على المسرح مرة أخرى ، فى وقت لم يكن من المحتمل فيه أن تعود حياتها إلى المسرح الفرنسى . كذلك حاولت أن أعالج موضوع « تاسيتوس » (٣) ، وترجمت الكتاب الأول من « التواريخ » . . . ولسوف توجد هذه الترجمة بين أوراقى .

(١) إقليم « الفالية » فى الأراضى السويسرية ، فى الوادى الأعلى لنهر

الموز

(٢) امرأة رومانية « قتلت نفسها يأسا وكيدا عندما اغتصبها ابن حاكم روما المستبد ، فأدت مأساتها الى قيام النظام الجمهورى فى روما سنة ٥١٠ قبل الميلاد »

(٣) تاسيتوسى كاتب روماني أورفنا سيرته فى نسخة ١٧٥ من هذا الجزء و « التواريخ » من أشهر مؤلفاته .



وفي شجرة هذه التنع والرفقات لم افقد ميلى الى التزهات التى كنت  
انطلق فيها وحيدا على قدمى .

وبعد أربعة أشهر من الإقامة في ( جنيف ) ، عسدت إلى ( باريس ) في شهر أكتوبر ، متحاشيا المرور بليون حتى لا التقى في طريقى بجوفكور . ولما كنت قد قررت — في تدبيراتى — ألا أعود إلى ( جنيف ) إلا في الربيع التالى ، فقد عاودت في الشتاء عاداتى وأعمالى ، التى كان أهمها مراجعة النسخ التجريبية ( البروفات ) لرسالتى « حديث في عدم المساواة » ، التى كانت تطبع في ( هولندا ) ، لدى المكتبى « ربي » الذى كنت قد تعرفت إليه في جنيف . ذلك لأنه لما كان إهداء هذا الكتاب معقودا للنظام الجمهورى ، وكان مثل هذا الإهداء لا يروق للمجلس (١) ، فقد انتظرت حتى أرى وقعه في جنيف قبل أن أعود إليها . ولم يكن هذا الوقع في صالحى ، بل إن ذاك الإهداء — الذى لم توجه به سوى اتقى العواطف الوطنية — خلق لى في المجلس أعداء كما جلب على أسرة بعض المواطنين . فقد كتب لى السب « شويه » — « السنديك » الأكبر ، في ذلك الحين — رسالا مهذبة ولكنها غائرة ، ستوجد في أوراقى ، في الملف « أ » ، رقم (٣) . وتلقيت من بعض الخاصة — وبينهم ديوك وجالا بير — تهاتى قليلة ، كانت هى غاية ما جوزيت به ، فلم أجد واحدا من أبناء ( جنيف ) يشكر لى صادقا تلك الحمية المنبعثة من القلب ، التى تبدو ملموسة في الكتاب . ولقد صدم هذا الفتور كل من لاحظوه . واذكر اننى كنت أتناول الغداء — ذات يوم — في دار السيدة دويان ، في ( كليشى ) ، بصحبة كروميلان — وزير الجمهورية (٢) — والسيد دى « ميران » ، فقال هذا في صراحة

(١) مجلس المثلثين ، الذى كان بمثابة الهيئة التيلية لجمهورية جنيف .

(٢) الوزير المفوض لجمهورية جنيف في باريس .

مسموعة ، ان المجلس كان مدينا لى بمكافأة وبتكريم عام ، من اجل هذا الكتاب ، وانه إنما يخزى نفسه إذا قصر فى هذا . ولم يجرؤ كروملان — الذى كان ضئيل الجسم ، أسود القلب ، دنىء المكر — ان يرد على ذلك فى حضورى ، ولكنه لوى ضبه فى حركة بشعة أضحكت السيدة دويان ! . . وكانت الفسائدة الوحيدة التى عادت على من هذا المؤلف — إلى جانب اننى ارضيت به فؤادى — هى لقب « المواطن » الذى خلعه على أصدقائى ، ثم هذا الجمهور حذوهم ، وما لبثت أن فقدته عقب ذلك ، لغرط استحقاقى إياه ! على أن هذا النجاح الخافى ما كان ليحولنى عن تحقيق أوبتى إلى ( جنيف ) ، لو لم تتغلب على ذلك بواعث كانت ذات نفوذ قوى على فؤادى . فان السيد ديبيناي كان راغباً فى أن يضيف إلى قصر « لا سيفريت » جناحاً كان ينقصه ، فاتفق فى سبيل إنجاز ذلك ، مبالغ جسيمة . وفيما كنت ذاهباً — ذات يوم — مع السيدة ديبيناي ، لمشاهدة عملية البناء مضيئاً فى سيرنا إلى ما بعد الموقع بحوالى ربع فرسخ ، أى إلى مقربة من خزان مياه المتنزهات الملحقه بالقصر ، فى متاخمة غابة ( مونمورنسى ) ، حيث كان ثمة مبنى صغير رشيق ، أقيم ليكون مطبخاً خلويًا ، وقد الحق به كوخ صغير مهدم ، يدعى « ليرميتاج » (١) .

وكان هذا الموقع المنعزل ، الملائم بى ، قد ملك على حواسى عندما رأيته للمرة الأولى ، قبل رحلتى إلى جنيف . وفى إعجابى به ، انبعثت منى هذه الكلمات : « آه ! .. يا له من مقام بهيج يا سيدتى ! .. ها هوذا ملاذ كأنما خلق لى ! » . . ولم تكثرث

(١) L'Ermitage ، أى سونعة الناسك .

السيدة ديبيناي لقولى كثيرا ، فى ذلك الحين ، ولكنى — فى زيارتى الثانية — دهشت عندما وجدت فى مكان الطلل القديم ، منزلا صغيرا ، يكاد يكون جديدا بأكمله ، وقد قسم تقسيما بديعا ، وأصبح جد مهيا ليكون مقاما لأسرة تضم ثلاثة أفراد ! .. ذلك أن السيدة ديبيناي عملت على إنشاء هذا المبنى فى صمت ، وبنفقات جد ضئيلة ، مستخدمة فى ذلك بعض العمال الذين كانوا يشتغلون فى القصر ، وبعض المواد التى كانت متوفرة هناك !

وعندما رأت دهشتى ، قالت : « ها هوذا ملجؤك يادبى . فقد اخترته بنفسك ، وقد أناللك إياه الصداقة ، عسى أن يضع خاتمة لتفكيرك الجائر فى البعد عنى ! » . وما اعتقد أننى شعرت يوما بتأثر أشد ولا أعذب مما شعرت به إذ ذاك ! .. وفسلت بدموعى يد صديقتى الكريمة . وإذا لم أكن قد تخلت تماما عن عزمى فى تلك اللحظة ، فإن هذا العزم قد تصدع على الأقل ! .. وأصبحت السيدة ديبيناي — التى أبت أن تنهزم أما رغبتي فى الاستقرار فى جنيف — شديدة الإلحاح ، واستعانت بكثير من الوسائل المتباينة ، وبكثير من الأشخاص ، لكى تتغلب على .. بل أنها ذهبت فى ذلك إلى حد أن عينت السيدة لوفاسير وابنتها فى خدمتها .. وبهذا انتصرت فى النهاية على إصرارى . وإذا تنحيت عن فكرة الاستقرار فى وطنى ، قررت ، ووعدت بأن أقيم فى ( ليرميلاج ) .. وبينما كان المبنى بجف (١) ، تكفلت

(١) كانت العادة — فى ذلك العهد — أن يترك المبنى خاليا عقب الفراغ من بنائه ، ربما يجف اللبن والملاط المستخدمان فى إنشائه .

٢٢٠      اختراعات جان چالد روسو - الجزء الثالث  
السيدة ديبيناى بأمر الأثاث . ومن ثم فإن المكان كان معدا  
تماما للسكنى فى الربيع التالى .

\*\*\*

وكان من الأشياء التى ساعدت كثيرا على أن أبت فى الأمر،  
استقرار المقام بفولتير ، على مقربة من جنيف . لقد أدركت  
أن هذا الرجل كان موشكا أن يحدث انقلابا هناك ، وأفتى خليق  
بأن أجد فى وطنى عين النقائص ، والمظاهر ، والأخلاق التى  
كانت تفترنى من باريس ، ومن ثم فلا بد من النضال دون انقطاع،  
ولن يبقى لى من خيار فى مسلكى سوى أن أكون أحد اثنين :  
إما متحذلقا متغطرسا لا يطاق ، أو مواطنا رديئا جباناً ! . ولقد  
أدى الخطاب الذى كتبه لى « فولتير » من كتابى الأخير ، إلى أن  
أشير إلى هواجسى فى ردى ، فكان الأثر الذى أحدثته إشارتى  
معززا لرأى . ومنسذ ذلك الحين ، اعتبرت جنيف فى حكم  
الضائعة ، ولم أكن مخطئا فى حدسى . ولعله كان من الخلق بى  
أن اتحدى العاصفة ، لو أننى شعرت بمقدرة على ذلك ، ولكن  
.. ما الذى كنت أملك أن أفعله — وأنا وحيد ، خجول ، عيى —  
ضد رجل متكبر ، غنى ، يستند إلى مؤازرة الكبار ، ويجسد  
الكلام البراق ، وقد صار معبود النساء والشباب ؟ . لقد  
خشيت أن أمرض شجاعتى للخطر ، دون جدوى ، فلم أنصت  
إلا إلى فطرتى المسالمة ، وإلى حبى للطمأنينة والخمول . . فهو  
إذا كان قد خدعنى إذ ذاك ، فإنه لا يزال يخدعنى اليوم ، فى هذا  
المضمار عينه ! . ولو أننى أثرت المقام فى جنيف ، لجنبت  
نفسى كثيرا من المحن والتعبسات ، ولكنى — بكل ما أوتيت من  
حمية ومن غيرة وطنية — أشك فى أننى كنت مستطيعا أن أقوم  
بعمل عظيم ، أو نافع ، لبلادى .

وكان ترونشمان قد استقر في جنيف حوالى ذلك الوقت ،  
فما لبث أن جاء إلى باريس بعد قليل ، ليقوم بدور الدجال (١) ،  
وليتسلل ببعض كنوزها . وما أن وصل ، حتى قام بزيارة  
الشيغالبيه جوكور . . وكانت السيدة ديبيناي تواقسة إلى أن  
تستشير شخصيا ، ولكن الوصول إليه — خلال هسفوف  
الجماهير — لم يكن ميسورا . وهرعت إلى ، فاقنعت ترونشمان  
بأن يذهب لزيارتها ، وإذا بهما يعتقدان روابط صداقة عززاها  
— فيما بعد — على حسابى أنا . . هكذا كان نصيبى دائما ،  
فما جمعت بين صديقين — كنت أعرف كلا منهما على حدة —  
إلا واتحدا ، دون توان ، ضدى . ومع أنهم في المؤامرة — التى  
دخلها آل ترونشمان من ذلك الحين ، لكى ينحط ببلادهما إلى  
درك العبودية — كانوا يشعرون بمقت نحوى ، إلا أن  
الطبيب ظل طويلا يبدى لى آيات حسن النية . بل انه ذهب  
إلى درجة أن كتب لى ، بعد موته إلى جنيف ، عارضا علم  
منصبا فخريا يضعنى على رأس المكتبة العامة هناك . ولك  
رأى كان قد استقر ، فلم يززع هذا العرض عزمى .

ومسدت — في هذه الفترة — أتردد على دار السيد  
دولباخ . . وكانت مناسبة ذلك أن الموت عسا على زوجته —  
كما عدا على السيدة فرانكوى — أبان إقامتى في جنيف . وقد  
حدثنى ديدرو — إذ أشار إلى ذلك في خطاباتة — من الحزن  
العميق الذى نزل بالزوج ، فحرك الأسى فؤادى ، وتحسرت

(١) يهود ترونشمان الطبيب السويسرى ، الذى ولد في جنيف سنة ١٧٠٩ ،

— في نفسي — على هذه المرأة الطيبة، وكتبت إلى السيد دولباخ. إذ أن هذا الحادث المحزن جعلني أنسى كل أخطائه، وما إن عدت من جنيف، وكان هو الآخر قد عاد من جولة قام بها في فرنسا ليسرى عنه الأسى، حتى ذهبت لزيارته مع جسيم وأصدقاء آخرين، وواصلت زيارته — بعد ذلك — إلى أن رحلت إلى (ليرميثاج). وعندما شاع في الوسط المحيط به، أن السيدة ديبيناي — التي لم يكن قد تعرف إليها بعد — كانت تعبد لي مسكناً، انهالت على السخريات كالمطر، وقيل إنني عاجز عن أن أعيش بدون تعلق وإطراء المدينة، وبدون متعتها وملاهيها، وإنني لن أطيق البقاء في عزلة، ولو لخمسة عشر يوماً!.. ولما كنت أدرك حقيقة مشاعري، فقد تركتهم يقولون ما حلا لهم، ومضيت في طريقي. ومع ذلك، فإن دولباخ ساعدني على أن أعتز على ماوى للشيخ الطيب (لوفاسير) (١)، الذي كان قد تجاوز الثمانين من عمره، والذي كانت زوجته تشعر بأنه عبء ثقيل يبهظها، فكانت لا تكف عن أن ترجوني أن أريحها منه!.. وقد وضع في ملجأ للفقراء، حيث عجل كبر سنه وحزقه لبعده

---

(١) عقب «روسو» على هذا بقوله: «هذه إحدى الحل التي تخدمني بها ذاكرتي. فقد علمت لنوي — وبعد كتابة هذا بأمد طويل — خلال حديث مع زوجتي عن أبيها الطيب، أن الذي ساعد على انزاله بالملجأ، — أو يكن السيد دولباخ، وإنما كان السيد دي شينونسو، الذي كان إذ ذاك من أعضاء لجنة «مصدق الله». وقد نسبته تماماً، وذكرت السيد دولباخ في مكانه، إلى درجة أنني كنت على استعداد لأن أقسم أنه الذي قام بالخدمة». . . والفندق الذي يعنيه «روسو» هنا، من أقدم ملاجئ باريس.

من أسرته ، بإرساله إلى القبر ، بمجرد أن حل بالمكان تقريبا !  
 .. ولم تأس زوجته وأطفاله عليه كثيرا ، ولكن تيريز - التي  
 كانت مشغوفة بحبه - لم تجد قط عزاء لمصابها فيه ، ولم تصفح  
 عن نفسها قط إذ تركته - وهو على شفا نهاية أجله - يقضى  
 أيامه الأخيرة بعيدا عنها !



وتلقت في هذه الفترة تقريبا ، زيارة لم أكن أرتقبها قط ،  
 وإن كان صاحبها من أقدم المعارف . وأعنى به صديقى  
 « فينتور » ، الذى ناجانى ذات صباح لطيف ، عندما كان آخر  
 شخص يخطر ببالي . وكان معه زميل .. وكم لاح لى أنه  
 تغير ! .. فبدلا من أخلاقه الكريمة السالفة ، لم أجد فيه سوى  
 مظهر مفسود منحل ، منعنى من أن أكاشفه بدخيلتى .. أو  
 لعل عينى لم تعودا كما عهدتهما ، أو أن الإفراط فى العبث قد  
 أظفأ ذكائه ، أو أن كل تآلقه السابق كان يعتمد على إشراقه  
 الصبا ، التى لم يعد محتفظا بها ! .. ولقد عاملته فى غير أكرام  
 تقريبا ، والمترقنا فى فتور . ولكنه لم يكد ينصرف ، حتى  
 أهاجت فكرى الفتنة القديمة .. ذكريات صباى ، تلك الذكريات  
 التى كانت فى رونقها ، وفى بهائها ، وفى كمالها ، مقصورة على  
 هذه المرأة الملائكية التى لم تكن - اليوم - أقل تغيرا منه ..  
 وطرائف وأقاصيص تلك الأوقات الهائلة .. وذلك اليوم  
 الشامرى الذى قضيته فى (تون) ، فى براءة وطرب بين ظلكما  
 الفتاتين المائنتين اللتين كان كل ما أنعمتا به على ، مجرد قبلة  
 على اليد ، ولكنها خلقت - مع ذلك - حسرة ناعمة دائمة ! ..

وإذا كل النشوات البهيجة التي أسكرت قلبي الشاب ، والتي شعرت بها إذ ذاك في أقوى صورها ، والتي كنت أظنها قد ولت إلى الأبد . . كل هذه الذكريات العاطفية الناعمة ، جعلتني أبكي شبابي الذي أدبر بمباهجه ، والذي ضاع على . . آه ! كم كنت جديرا بأن أبكي عودة هذه الذكريات — العودة المتأخرة ، الحزينة — لو أنني تنبت بالأسى التي كان مرتقبا أن تكبديني !

وقبل أن أغادر باريس ، وفي أثناء الشتاء الذي سبق اعتكافي ، حظيت بمتعة صادفت هوى من قلبي ، وأقبلت على تذوقها بكل نقائنها . ذلك أن «باليسو» — وكان عضوا في محفل نانسي ، أذاعت صيته بضع تمثيلات وضعها — كان قد ظفر بعرض إحدى هذه التمثيلات في (لونييل) . على مشهد من ملك بولندا . وكان من الجلى أنه أراد أن ينشد الخطوة ، إذ بس في تمثيلته شخصية رجل جرؤ على أن ينساجز الملك بقلبه . ولكن « ستانيسلاس » كان رجلا كريما ، لا يميل إلى الهجو ، وقد استنكر أن يجرؤ أحد على تصوير الشخصيات بهذا الشكل في محضره . فكتب السيد الكونت دي تريسان — بأمر من الملك — إلى « داليمير » وإلى أنا ، فانبأني بأن نية صاحب الجلالة قد اتجهت إلى تحقيق اقضاء السيد باليسو ، عن المحفل . على أنني رجوت السيد تريسان مخلصا — في ردي — بأن يشفع لدى ملك بولندا للحصول على عفو عن باليسو . وصدر العفو فعلا . وإذ كتب لي السيد دي تريسان ليخبرني — باسم الملك — بذلك ، أضاف أن هذا الحادث سيثبت في مسجلات المحفل ، مرددت بأن هذا سيكون بمثابة توقيع عقاب دائم ، أكثر مما هو

عفو . وأخيرا ، حصلت — بعد عناء ورجاء — على وعد بأن تظل المسألة كلها بعيدة عن السجلات ، والا يبقى أى اثر منها بصفة رسمية . وقد سحب الوعد إقرارات تقدير من جانب الملك ، ومن جانب السيد دى تريسان ، مما أثار زهوى إلى حد كبير . وشعرت في هذه المناسبة بأن تقدير أولئك الذين هم جديرون بالتقدير ، يبعث في النفس شعورا أعذب واسمى من شعور الخيال والغرور . . . وقد ضمت خطابات السيد دى تريسان وردودى إلى أضايرى ، وستوجد أصولها في ما « ١ » ، تحت أرقام ٩ و ١٠ و ١١

إننى لأشعر كل الشعور ، بأنه إذا قدر لهذه المذكرات أن ترى الضوء يوما ، أننى أخلد بنفسى هنا ذكرى واقعة كنت أرغب في أن أمحو آثارها ، ولكننى أثبت كثيرا غيرها ، على الرغم منى . فإن الهدف الأكبر لمشروعى هذا ، يتمثل دائما أمام عينى . فإن الواجب الذى لا محيص منه ، والذى يتطلب أن أحقق هذا الهدف بأكمل صورته ، لا يدع لى سبيلا للنكوص ، من أجل اعتبارات واهية تعمل على أن تعوقنى عن غايتى . إننى فى موقفى الفذ الفريد ، أدين للحقيقة بما لا أدين لسواها بأكثر منه . ملكى أعرف القراء بنفسى ، لا بد لى من أعرف كل نواحي هذه النفس ، بطبيعتها وريثتها . أن اعترافى مرتبطة — بالضرورة — باعترافات كثير من الناس ، وإنى لأبوح بهذه وتلك بنفس الصراحة ، فى كل ما يتعلق بى ، دون أن أجسد ما يقتضى أن أمهل أى امرئ غيرى بما لا أعامل به نفسى ، وأست أتمنى سوى أن أوتى مزيدا من الصراحة بفوق ما أبديت .

إننى أصبو إلى أن أكون دائئاً منصفاً وصادقاً ، فأقول عن الغير كل خير ما استطعت إلى ذلك سبيلاً ، ولا أنكر من الشر إلا ما يتعلق بى ، وبقدر ما أكون مضطراً إلى فكره .

فمنذا الذى يجد من حقه أن يطالبنى — وأنا فى هذا الموقف الذى اتخضت فيه — بـ مزيد . . . أن اعترافى لم تكتب إطلاقاً لكى تظهر فى حياتى ، ولا فى حياة الأشخاص الذين تتناولهم . ولو كان لى السلطان على مصرى ومصر هذا المخطوط ، لما رأى النور إلا بعد موتى وموت هؤلاء الأشخاص بوقت طويل . ولكن الجهود التى يبذلها الشائشون ذوو النفوذ — مدفوعين بجزعهم منها — لكى يحوا كل أثر لهذا المخطوط ، يضطرنى إلى أن أبذل كل ما يسمح لى به أشد القوانين ، وأقصى ألوان العدالة ، فى سبيل صون هذه الآثار . ولو كان مقدراً لذكرياتى أن تموت معى ، حتى لا أمس أى أحد ، لتحملت أى ظلم جائر وعابر يترتب على ذلك . أما وقد قدر لاسمى أن يعيش — أخيراً — فإن من واجبى أن أحاول أن أسلم الأجيال معه ذكريات الرجل التعس الذى كان يحمله . . . كى أبدية على ما كان عليه فى الواقع والحقيقة ، وليس كما عمل أعداؤه الظالمون دائبين على أن يصوروه !

## الكراسة التاسعة

سنة ١٧٥٦

لم يسمح لى التلطف على سكنى « ليرميتاج » بان انتظر حتى يعود لمصل الطقس البقيع ، فما ان تم إعداد مسكنى حتى اسرعت إلى الإقامة فيه ، وسط السخريات المدوية من قلة دولباخ ، الذين راحوا يتنبأون علانية باننى لن أستطيع ان احتمل العزلة ثلاثة اشهر . وانهم لن يلبثوا ان يرونى عائدا لأعترف بإخفاقى ، ولأعيش مثلهم فى باريس . اما أنا — وقد قضيت خمس عشرة سنة بعيدا عن بيتى — فاننى إذ رأيت نفسى وشيك العودة إليها ، لم أجد أى اكتراث مطلقا لمزاحهم الساخر . فاننى منذ أن التقيت — على الرغم منى — فى المجتمع ، لم أكف عن التصر على (شارميت) ، وعلى الحياة الناعمة التى حظيت بها هناك . . كنت أحس اننى خلقت للإقامة فى الريف ، فكان من المستحيل ان أهنا بالعيش فى غيره . . فى البندقية : فى غمرة الشئون العامة ، وفى منصب خاص بنوع من التمثيل الديبلوماسى ، وفى آمالى الطامحة ومشروعاتى للرقى . . فى باريس : فى دوامة المجتمع الراقى ، وفى الملاذ الحسية التى تكتنف حفلات العشاء ، وفى حفلات المسرح اللامعة ، وفى سحب المجد الزائف الذى حف بى . . فى كل هذه وتلك ، كانت فكريات أدغالى ، وجداولى ، وتجوالى على القسامين ، حاضرة أبدا لتتسفل بالى وتبعث الاسى فى نفسى ، وتنتزع منى التهنيدات والحنين والحسرة .

كل الأعمال التى كان فى طوقى أن أجعل نفسى فى ريقتها ، وكل المشروعات الطامحة التى راحت تنمى حميتى باطراد ، ولم يكن لها من غاية سوى أن أبلغ يوما تلك البحبوحة الريفية الهائلة ، التى رحت أهنى نفسى — فى تلك اللحظة — على أفنى أحرزتها .. هاتنى وإن لم أخط بالاستقلال الكريم — الذى كنت اعتبره وحده الكفيل بأن يقودنى إلى هذه الهناءة — إلا أتنى رأيت أن بوسعى ، نظرا لوضعى الخاص ، أن أستغنى منه ، وأن أصل إلى نفس النهاية بطريق أخرى جد مختلفة . على أتنى لم أكن أملك دخلا ما ، وإن كنت أملك أسما ومواهب .. وكنت معتدلا ، وقد حرمت نفسى من معظم الحاجات الباهظة النفقات .. تلك التى كانت منشودة لدى الناس عامة . وإلى جانب ذلك ، فبالرغم من كسلى ، إلا أتنى كنت مجدا عندما أشاء ، ولم يكن كسلى راجعا إلى أتنى عاطل خمول ، بقدر ما كان خلة الرجل المستقل الذى لا يحب أن يعمل إلا عندما يروق له العمل . ولم يكن احترافى نسخ القطع الموسيقية رائجا ، ولا مريحا ، ولكنه كان مصدر رزق مضمون ، وقد حبذ المجتمع شجاعته إذ أقدمت على اختياره . فقد كان لى دائما أن أطمئن إلى عمل ، وأن أطمئن إلى رزق كاف لمعيشى إذا أنا عملت جادا . وكانت الفرنكات الألفان التى تبقت من أرباحى من «عراف القرية» ومن مؤلفاتى الأخرى ، بمثابة رصيد يقينى الضيق . كما أن المؤلفات العديدة التى كانت تحت الأعداد ، كانت تبشر — دون ما تطفل على الناشرين — بموارد كافية لأن تمكننى من العمل على مسجيتى ، دون ما إرهاق لنفسى ، بل ودون أن أجور على أوقات

الفراغ المخصصة للتريض والتجوال . وكانت أسرتي الصغيرة ، مؤلفة من ثلاثة أشخاص ، شغل كل منهم بما هو نافع ، ولم تكن إميلتها مبهظة . وقصارى القول ان مواردى — بالنسبة لحاجاتى ورفباتى — كانت قادرة بحق على ان تتيح لى السعادة الدائمة فى الحياة التى اختارتها ميولى .

ولقد كان بوسعى ان ارمى تمامي فى أحضان الجانب الاكثر إبرارا للريح ، وبدلا من ان اذل قلمي للنسخ ، كان بوسعى ان لكرسه تكريسا تاما للكتابة التى كانت — فى الامتلاك الذى اخترته ، والذى شعرت باننى قادر على مواصلته — كفيلة بان تمكنتى من ان اعيش فى سعة ، بل فى بذخ ، لو اتنى وافقت على ان اجمع بين حيل المؤلف والعناية بنشر كتب جيدة . بيد اننى كنت اشعر بان الكتابة من أجل كسب العيش ، لن تلبث ان تخنق نبوغى ، وان تقتل موهبتى التى كانت فى قلبى اكثر مما كانت فى قلمي ، والتى لم تنبعث إلا من أسلوب فى التفكير راق ، ائسم ، هو وحده القادر على تغذية تلك الموهبة . . فما من شيء قوى ، ولا من شيء عظيم يمكن ان ينساب من قلم أجبر مرتش ! . . إن الحاجة — وربما الجشع — كانت كفيلة بان تدفعنى إلى ان اتعجل اكثر من ان اتقن . ولولا ان الرغبة فى النجاح زجت بى إلى الدسائس ، لكان من المحتمل ان تجعلنى اناضل لأقول بما قد يطيب للناس ، وليس ما هو صادق ونافع ! . . وبدلا من المؤلف المبرز ، الذى كان بوسعى ان اغدوه ، فاننى ما كنت لأصبح سوى مسود للورق ! . . لا ، لا ! . . لقد كنت اشعر دائما ان مكانة المؤلف لا يمكن ان تصبح مرموقة ومحترمة ، إلا

إذا كان التأليف بعيدا عن أن يكون حرفة . . إذ أنه من الصعب ، كل الصعب ، أن يفكر الإنسان تفكيرا نبيلًا ساميًا ، إذا ما كان مضطرا إلى ألا يفكر إلا طلبا للرزق ! . . ولكي يكون الكاتب قادرا ، ولكي يجسر على أن ينطق بالحقائق الجليلة ، ينبغي ألا يعول على النجاح ويركن إليه . ولقد دفعت بكتبي إلى الناس بضمير مطمئن إلى أنني إنما تكلمت من أجل الصالح العام غير حافل بأي شيء آخر . فإذا رفض الكتاب ، فيا تمسسا لأولئك الذين لم يشاءوا أن يفيدوا منه . أما أنا ، فما كنت بحاجة إلى رضاهم وقبولهم لكي أعيش ، فإن مهنتي كانت كفيلة بأن تعولني ، إذا لم تلق كتبي مشترى . . وهذا بالذات هو الذي جعلها تباع وتروج !



وفي التاسع من أبريل سنة ١٧٥٦ ، غادرت المدينة فلم أعد إلى سكنى المدن قط ، إذ أنني لا اعتبر من السكنى في شيء ، تلك الفترات الوجيزة التي قضيتها — فيما بعد — سواء في باريس أو في لندن أو غيرها من المدن . فقد كانت مجرد إقامة مابرة ، أو إقامة بالرغم مني دائما ! . . ولقد أقلت السيدة ديبيناي ثلاثتنا في هربتها ، وتولى خادمها الريفى أمر مقامى البسيط ، واستقر بى المقام فى بيتى الجديد ، فى اليوم ذاته . ووجدت معزلى الصغير مهيا ، ذا أثاث بسيط ولكنه كاف ، وينم عن ذوق ! . . كانت اليد التى عنيت بأعداد هذا الأثاث قد أضفت عليه — فى نظرى — قيمة تفوق كل تقدير ، وقد لذلى أن أكون ضيف صديقنى ، فى بيت من اختياري ، شيدته هى خصيصا لى !

ومع ان الطقس كان باردا ، بل كان ثمة جليد ، فإن الأرض كانت قد بدأت تخضوضر ، وكانت زهور النرجس وورود الربيع قد ظهرت ، وشرعت البراعم تتفتح على الأشجار . . وقد امتازت ليلة وصولي بأول شدة للبلبل في أعقاب الشتاء، وقد انبعث من غابة كانت تتاخم البيت ، فكأنما كان البلبل ذاته عند نافذتي . . وبعد نعاس خفيف ، استيقظت وقد نسيت تبديل مسكني ، فخلت أننى لا أزال في شارع ( جرينيل ) ، لولا ان شدة البلبل نبهنى ، فهتفت في نشوتى : « ها قد تحققت كل أمانى أخيرا ! » . . وكان أول ما فكرت فيه هو ان أسلم نفسى لمفعول الأشياء الريفية التى كانت تحيط بى . وبدلا من أن أشرع في تنسيق مسكنى، فأننى شرعت في إعداد نفسى لنزهاتى، فلم يبق ثمة درب ، ولا شجرة ضخمة ، ولا غيضة ( مجموعة من الشجر ) ، ولا بقعة منعزلة حول مسكني ، إلا وتفقدتها في اليوم التالى . . وكنت كلما ازدحت تعرفنا بهذا المعزل الفائن ، ازددت إحساسا بأنه ما خلق إلا لى ! . . كانت هذه البقعة البعيدة عن العمران . . وإن لم تكن موحشة — تنقلنى في الخيال إلى آخر أطراف المعمورة . . كانت قد أوتيت تلك المفاتن التى تملك القلوب ، والتى لا يجدها المرء قط على مقربة من المدن . وما قدر لأمريء انتقل إلى هناك نجاة ، أن يصدق أنه كان لا يبعد عن باريس بأكثر من أربعة فراسخ !

وبعد بضعة أيام من الاستسلام لنشوتى الريفية ، فكرت في تنسيق أوراقتى وتنظيم مهامى ، فخصصت فترة الصباح للنسخ . . كما اعتدت أن أعمل دائما . . وغرة ما بعد الغداء للتريض



وبعد نعاس خفيف ، استيقظت وقد نسيت تبدل مسكني ، فخلت النسي  
ما ازال في شارع ( جرينيل ) .

والتجوال ، مزودا بكراسة بيضاء صغيرة وقلم من الرصاص ،  
إذ أنني لم أستطع أن أكتب أو أن أفكر على سجليتي إطلاقا ، إلا  
في الهواء الطلق والفضاء ، ولم أجد بنفسى ميلا إلى أن أغير  
أسلوبي ، بل أنني قدرت أن غاية ( مونمورنسى ) — التي كانت  
تكاد تصل إلى بابى — لن تلبث أن تغدو مكتبي ومكان عملى ! ..  
وكانت لدى عدة مؤلفات بدأتها من قبل ، فعمدت إلى مراجعتها  
.. كنت مبدعا كل الإبداع فى مشروعاتى ، ولكن تنفيذها كان  
يسير ببطء ، فى ضوضاء المدينة . وقد توقعت أن أمضى فيها  
بمزيد من العجلة ، إذا ما تخلفت من كل ما اعتاد أن يشغلنى  
من العمل .. واعتقد أنني قد حققت هذا التوقع تماما ..  
وبالنسبة لرجل كثير المرض ، كثير التردد على قصر «الاشيفريت»  
وأيبيناي وأوبون وقصر مونمورنسى ، كثير التشاغل عن عمله فى  
داره بفضل الفضوليين المتعطلين ، دائم الانشغال بالنسخ  
نصف نهاره .. إذا قدر كل هذا ، وأحصيت المؤلفات التى  
أنجزتها خلال السنوات الست — التى قضيتها فى ليرميثاج  
ومونمورنسى — لتجلى ، فيما أوقن ، أنني إذا كنت قد بددت  
وقتى خلال هذه الحقبة من الزمن ، فإن تبديده لم يكن فى خمول  
على الأقل !

وبين الأعمال الأدبية المتباينة — التى كانت على الرف — كان  
المؤلف الذى أطلت التفكير فيه ، والذى أقبلت عليه بأعظم قدر  
من الشغف ، والذى وددت أن أعمل فيه طول عمرى ، والذى  
أعتقد أنه ختم شهرتى .. ذلك هو كتابى فى «المذاهب السياسية» .  
إذ كانت قد انقضت ثلاث عشرة — أو أربع عشرة — سنة ،

مذ خطرت لى فكرته ، عندما كنت مقيما فى البندقية ، حيث اتاحت لى الفرصة كى أشهد عيوب نظام الحكم فيها ، برغم ماكان له من صيت . ومن ذلك الحين ، اتسعت آرائى بفضل الدراسات التاريخية لقواعد الأخلاق ، فقدر لى أن أرى أن كل شىء كان يتصل اتصالا جوهريا بالاعتبارات السياسية ، وأنه ما من شعب يملك — مهما يكن تقدمه — أن يصبح فى حال غير التى نعهدها لها طبيعة نظام الحكم فيه . ومن ثم ، فإن المسألة الكبرى — مسألة خير نظام ممكن للحكم — انكشفت فى نظرى إلى ما يأتى : ما كنه نظام الحكم الصالح لتكوين الشعب الذى يكون أفضل صفات ، وأكثر تنورا ، وأوسع حكمة . . وبالإيجاز ، الشعب الذى يكون « أحسن » شعب ، بأوسع معانى كلمة « أحسن » ؟ . . ولاح لى أن هذا السؤال كان وثيق الارتباط بسؤال آخر ، قريب الشبه منه ، وإن لم يكن مثله تماما . ذلك هو : ما هى الحكومة التى تحرص — بطبيعتها — دائما ، على أن تكون وثيقة القرب من القانون ؟ . . ومن هنا خطر لى سؤال آخر : ما هو القانون ؟ . . وتبعته سلسلة من الأسئلة لها عين القيمة . ورأيت أن هذا كله يفضى إلى حقائق عظيمة ، ذات نفع بالنسبة لرغاهية الجنس البشرى ، ولا سيما رغاهية وطنى ، حيث لم أجد — خلال الرحلة التى قمت بها إلى هناك — دراية بالقانون وبالحرية صحيحة ، ولا واضحة بالقدر الذى كان يرضينى . ولقد آمنت بأن الإيعاز بهذه الدراية — بطريق غير مباشر — هو أسلم وسيلة ملائمة لكرامة هؤلاء القوم ، وخير شئ لى كى يغفروا لى أن استطعت أن أمد بصرى إلى أملى وأبعد مما بلغت أبصارهم !

ومع اننى كنت قد عكفت - لخمس سنوات او ست - على وضع هذا المؤلف ، إلا اننى لم اكن قد قطعت فيه شوطا يذكر . فإن الكتب التى من هذا القبيل ، تتطلب تأملا ، وفراغا . وطمانينة . فضلا عن اننى كنت أعمل فيه فى الخفاء - كما يقال - دون أن افاتح أحدا - ولا ديدرو نفسه - بها اعتزمت . فقد كنت أخشى ألا يبدو ملائما كل الملاحة لروح العصر ، وللبلد الذى كنت أكتبه فيه ، وأن جزع أصدقائى قد يعرقل جهودى فى تنفيذه (١) . ولم اكن بعد واثقا من أنه سيتم فى وقت مناسب ، وبحيث يتسنى ظهوره أبان حياتى . . وكنت راغبا فى أن أتمكن دون أى تقيد - من أن أهب موضوعى كل ما كان يتطلبه . ولما كنت خلوا من التحامل المفروض ، وغر راغب قط فى الجنوح إليهما - فأننى كنت مطمئنا إلى اننى سأظل دائما بمنأى عن اللوم . . لقد وجدت أن أستخدم - أكمل استخدام ، دون ريب - حق التفكير ، هذا الحق الذى أوتيته بحكم وجودى . . ولكنى فى حرصى دائما على احترام نظام الحكم الذى كنت أعيش فى

---

(١) عقب « روسو » على هذا بقوله : « كانت حكمة ديكنز المترمة هى التى أوحى الى بهذا الخوف . أما ديدرو ، فليست أدري كيف كانت اجتماعاتى به تعجبه دائما الى جعلى أكثر مسخريه وعجوا وانذاعا مما كنت بطبيعتى . وهذا بالذات من الذى زعمنى من أن أستشير فى مشروع كنت راغبسا فى ألا أستخدم فيه سوى قوة المنطق والحاجة فقط ، دون الله أتم لتعننت أو تعصب . ومن الممكن الحكم على الأسلوب الذى انتهجته فى هذا المؤلف ، على ضوء استلواين فى « العقد الاجتماعى » الذى أخلته عنه » - وقد قدم « كتابى » ملخصا للعقد الاجتماعى فى المدين (٣١) و (٣٢) .

ظلاله ، وعلى مدم الخروج على القانون إطلاقا ، وعلى التزام  
الحذر حتى لا أنتهك حق الغير . . في كل حرصى هذا ، لم أكن  
راقبا — فى الوقت ذاته — فى أن أغرط ، بدافع من الخوف ،  
فى امتنيات هذا الحق . . حتى فى التفكير ! . بل أتنى لأذهب إلى  
الاعتراف بأننى وجدت وضعى فى فرنسا — كأجنبى يعيش  
فيها — موافيا لى أقول الحق فى جراءة . . فقد أدرك تماما أتنى  
ما دمت لا أطيع شيئا فى الدولة ، دون ما إذن — وهو ما كنت  
اعتزمه — فلن أكون مسئولا أمام أى أحد فى فرنسا عن  
مبادئى ، وعن الترويج لها فى أى مكان آخر ! . . ولقد كان من  
المحتمل أن أكون أقل حرية فى جنيف ، أو فى أى مكان آخر  
طبعت فيه كتبى ، إذ كان للسلطات حق الاعتراض على  
محتوياتها . ولقد كان لهذا الاعتبار أثر كبير فى حلقى على أن  
انصاع لإلحاف السيدة ديبيناي ، فاهجر ما كنت قد انتويته من  
الإقامة فى جنيف . فقد شعرت — كما فكرت فى « أميل » — بأن  
المرء إذا أراد أن يؤلف كتابا فى الصالح الحقيقى لوطنه ، فليس  
له أن يؤلفها فى هذا الوطن ، اللهم إلا أن يكون موهوبا فى القامر  
والدس والخداع !

ومما زادنى مسعادة ، أتنى اقتنعت بأن حكومة فرنسا ،  
ستعتبر أن من الكرامة أن تدعى فى سلام ، إن لم تحمنى ، ولو  
أنها لم تكن تنظر إلى بعين راضية ! . . ولقد كان هذا — فيها بدا  
لى — نهجا سياسيا بسيطا ، وصريحا إذ أنه يرمى إلى التسامح  
إزاء ما لا سبيل هناك إلى منعه . . فلو أتنى حملت على مغادرة  
فرنسا — وهو ما لكل الحكومات الحق فى أن تقدم عليه — لظلت

كتبى ماضية فى الصدور ، ولكن بتحفظ أقل .. أما إذا تركت دون إزعاج ، فأتنى — كمؤلف — سأعتبر رهينة وضمانا لكتبى ، كما أن هذا كفيل بأن يحو الأراء الخاطئة التى كانت متغلغلة فى بقية أوروبا ، إذ يكسب السلطات الفرنسية شهرة احترام حقوق الأمم عن سعة افق ورعى تفكير !

والذين يحكمون — على ضوء النتيجة — بأن ثقتى قد غررت بى ، ربما كانوا هم المخدوعون . ففى العاصفة التى هبت على ، كانت كتبى خير حجة فى جانبى ، لولا أن شخصى هو الذى كان مقصودا .. فإن أحدا لم يول المؤلف كثير اهتمام ، ولكنهم كانوا يتوتون إلى القضاء على جان جاك نفسه .. وكان أسوأ ما جرت به كتاباتى ، هو التكريم الذى كان من المحتمل أن يولونى إياه . ولكن .. يجب ألا نقفز إلى المستقبل ، ولندعسه إلى حينه ! .. ولست أدري ما إذا كان هذا اللغز — فهو لا يزا لغزا فى نظرى إلى اليوم — سيلقى ما يوضحه فى نظر قرائى فيما بعد .

وإنما الذى أدريه هو أنه إذا كانت آرائى التى جاهرت بها ، جديرة بأن تجلب على المعاملة التى قاسيتها ، لما توانيت من التعجيل بأن أصبح فريسة لها . ذلك لأن ما ظهر من كتبى — التى بسطت فيها هذه المبادئ بكل جرأة ، إن لم أقل بكل شجاعة (١) — كان قد أحدث اثره ، على ما بدا ، قبل أن آوى إلى ( ليرميتاج ) ، دون أن يخطر ببال أحد أن يناجزنى الحرب ،

(١) يقصد كتابه : " حديث فى عدم المساواة فى الظروف والاحوال " .

أو — على الأقل — أن يعوق نشر المؤلف في فرنسا ، حيث كان يباع في علانية لا تقل عن التي كان يباع بها في هولندا . ولقد ظهرت « هيلويز الجديدة » — بعد ذلك — بنفس السهولة ، وببنفس التحبيز ، كما ينبغي أن يقال . ومن الأمور التي تبدو أبعد من أن تصدق ، أن العقيدة التي بشرت بها في « هيلويز » هذه ، كانت عين تلك التي بشرت بها في « أسقف سابوا » . . . وكل ما أقدمت على قوله في « العقد الاجتماعي » ، كان قد قيل في « حديث في عدم المساواة » . . . وكل ما جهرت به في « أميل » ، ظهر قبل ذلك في « جولي » . . . ولكن هذه العبارات المدوية ، لم تثر سخطا ضد الكتابين الأولين (١) ، ومن ثم فما كان من المعقول أن تكون هي التي أثارت سخطا ضد الكتاب الأخير (٢) .



وهناك مشروع كتاب آخر ، من نفس النوع تقريبا ، ولكن فكرته وانتنى متأخرة عن أفكار تلك الكتب ، وقد شغلت بالي في ذلك الحين . . . ذلك هو « مختارات من أعمال الأب دي سان بيير » ، الذي لم أملك الحديث عنه من قبل ، إذ شغلني عن ذلك سياق السرد . فلقد أوحى إلي بالفكرة الراهب دي مابلي — عقب عودتي من جنيف . . . ولم يعرضها علي مباشرة ، وإنما وسط في الأمر السيدة دويان ، التي كانت مهتمة — إلى حد ما — بإقناعي بالاضطلاع بالمشروع أ . . . فقد كانت إحدى ثلاث أو

(١) يقصد كتابيه : « أميل » و « حديث في عدم المساواة » .

(٢) قصد « العقد الاجتماعي » .

أربع من حسان باريس ، تهافتن على الراهب الشيخ « سان بيير » . وإذا لم تكن قد ظفرت بالايثار منه ، فإنها — على الأقل — قد تقاسمته مع السيدة ديجويون . ولقد احتفظت لذكرى الراهب الطيب باحترام وعطف كانا مصدر فخر لها وله ، ومن ثم فإن كبرياءها كانت خليقة بأن تجد ما يرضيها إذ ترى مؤلفات صديقتها الميت الحى ، تبعث على يدى سكرتها . ومع أن هذه المؤلفات لم تخل من موضوعات بديعة ، إلا أنها كانت معروضة بأسوأ تعبير ، إلى درجة تجعل من العسير على القارئ أن يحتمل قراءتها . وما كان يبعث على الدهشة ، أن الراهب كان يعتبر قراءه مجرد « أطفال كبار » ، ولكنه — مع ذلك — كان يخاطبهم باعتبارهم رجالا . . فضلا عن أنه لم يتجشم أى عناء فى حملهم على الاتصاف إليه

من أجل هذا عرض على الاضطلاع بهذه المهمة التى كانت نافعة — فى حد ذاتها — كما كانت مناسبة لرجل مجد فى النسخ والتعديل ، ولكنه كسول فى التأليف ، الذى أن المجهود الذى يبذل فى التفكير رهق ، فكان يؤثر — فيها يوافق هواه — أن ينقح ويحسن أفكاره سواء ، على أن يبتدع أفكارا جديدة من لدنه . . . وإلى جانب ذلك ، فأننى لم أقصر دورى على مجرد التفسير والترجمة ، إذ أننى لم أكن ممنوعا من أن أستغل تفكيرى فى بعض الأحيان ، وكنت مطلق اليد فى أن أصوغ على بالشكل الذى يمكن كثيرا من الحقائق الهامة من أن تظهر فى مسوح الراهب « سان بيير » ، دون ما تعرض للخطر الذى قد يحدث بها إذا ما ظهرت فى ثيابى أنا . . فضلا عن كل هذا ،

فإن المهمة لم تكن باليسيرة .. لم تكن تتطلب أقل من القراءة ، ثم الاستيعاب والتفكير ، ثم اختيار مادة من اثنين وعشرين مجلدا مهوشة ، مضطربة التنسيق ، مليئة بالحشر والإطناب والتكرار والآراء الضحلة أو الخاطئة .. وكان لابد من التنقيب بينها حتى يمكن العثور على طائفة من الآراء الجلييلة الدسمة التي كانت تشجع على احتمال المهمة الومرة ! .. بل أننى كنت موشكا - فى كثير من الأحيان - على أن أنفض يدى منها ، لو أننى استطعت أن أنسحب فى تصرف كريم .. ولكنى عندما تقبلت مخطوطات الراهب - التى أعطاها ابن أخيه الكونت دى « سان بيير » ، بإيعاز من « سان لامبير » - أصبحت مرتبلا بشكل ما ، بأن استعملها .. وأصبح الواجب يقتضىنى إما أن أردّها ، وإما أن أجعل لها قيمة . وبهذه النية الأخيرة حملتها إلى « ليرميتاج » ، فكانت أول عمل اعتزمت أن أكرس له وقت فراغى !

ورحت أفكر - إذ ذاك أيضا - فى مشروع كتاب ثالث ، كنت مدينا بفكرته إلى بعض ملاحظات أخذتها على نفسى ، ومما زاد من شعورى بالرغبة فى الإقدام عليه ، أننى وجدت من الأسباب ما جعلنى أصبو إلى أن أنتج كتابا ذا نفع حقيقى للجنس البشرى ، بل كتابا يكون أنفع ما قدم إلى البشر ، إذا ما قدر للتنفيذ أن يطابق الخطة التى رسمتها مطابقة ناجحة . فلقصد لوحظ أن الغالبية من الناس كثيرا ما يكونون - فى سياق حياتهم - على غير ما هم عليه أصلا ، وكأنهم يتحولون إلى أناس مختلفين تمام الاختلاف . ولم أكن أبغى بإصدار كتاب فى ذلك ، أن أقر شيئا

معروفا كل المعرفة ، بل كان لدى فرض جديد تمام الجودة ،  
و ذو أهمية بالغة . . ذلك هو أن أبحث عن أسباب هذه  
التطورات والتغيرات — التي تطرأ على الناس في حياتهم — وأن  
أقتصر على ما يكون منها متوقفا علينا نحن أنفسنا ، وأن أبين  
كيف يتسنى أن نتحكم فيها بأنفسنا ، لكي نصبح أفضل وأكثر  
ثقة بأنفسنا واطمئنانا إليها ! . . ذلك لأنه لا جدال في أن الرجل  
الشريف يعاني في مقاومة الشهوات التي اكتمل تكوينها — والتي  
ينبغي عليه أن يقاومها — عناء أشد مما لو أنه كبح أو غير أو  
عدل هذه الشهوات ذاتها من منبعها ، لو قدر له أن يتعقبها  
إلى هذا المنبع . فالرجل يقاوم الغواية مرة لأنه قوى ، ولكنه  
— في مرة أخرى — يستسلم لأنه ضعيف . . ولو أنه كان على  
ما كان عليه من قبل ، لما استسلم .

وفيما كنت أفحص نفسي ، وأبحث في النفوس الأخرى عما  
يمكن هذا التباين من الحدوث ، تبينت أنه إنما يعتمد — إلى حد  
كبير — على ما تكون أشياء خارجية قد أحدثته — من قبل —  
من انطباعات داخلية ، وأننا في تغيرنا المستمر — بفعل حواسنا،  
وأجهزتنا البدنية — إنما نكشف ، دون أن نعلم عن أثر ذلك  
التغير في أنفسنا ، وفي آرائنا ، وفي مشاعرنا ، وفي أعمالنا  
ذاتها ! . . وكانت المشاهدات العديدة والمدهشة — التي  
جمعتها — تعلو على كل طعن . . وقد بدت لي ، في أصولها  
الطبيعية ، صالحة لأن تؤلف نظاما خارجيا للسلوك ، يتغير بتغير  
الظروف ، ويمكن من وضع العقل أو سونه في حال تكون خير  
الأحوال ملائمة للفضيلة ! . . فكم من أخطاء يمكن انقاذ العقل

منها ، وكم من رذائل يقسنى خنقها في مهدها ، إذا تيسرت معرفة التحكم في النظام الحيوانى بحيث يتلاءم مع النظام الخلقى الذى كثيرا ما يتعرض للاضطراب ! .. ان احوال الجو ، والفصول ، والاصوات ، والالوان ، والظلام ، والنور ، والعناصر ، والمواد ، والضجة ، والصمت ، والحركة ، والسكون .. كل هذه تعمل وتؤثر على جسمنا وعلى عقلنا بالتوالى .. كلها تمدنا بألف فرصة ، تكاد تكون مضمونة ، للتحكم — منذ البداية — في المشاعر التى تتركها تتحكم فينا !

هكذا كانت الفكرة الأصلية ، التى كنت قد سطرتها على الورق ، والتى توقعت منها نتيجة عظيمة النفع لذوى المنبت السليم ، الذين يتحدون ضعفهم ، في سبيل حبهم الصادق للفضيلة .. حتى لقد بدا لى أن من الميسور أن أجعل من هذه الفكرة كتابا مشوقا من حيث القراءة ، كما هو من حيث الكتابة ! .. ومع ذلك ، فانتفى لم أحرز سوى تقدم ضئيل في هذا المؤلف — الذى جعلت له عنوانا : « المبادئ الخلقية الحسية ، أو مادية الحكيم » (١) — فقد حالت شواغل ، لن تلبث ان تتكشف ، دون أن أمكف عليه .. ولن يلبث أن يتضح كذلك ، ان هذه كانت خاتمة مشروعى الذى كان أقرب إلى نفسى من كل ما يبدو !

\* \* \*

وكنيت — إلى جانب كل هذا — قد فكرت منذ زمن ، في نظام للتربية كانت السيدة دى شينونوسو قد رجتنى أن اشتغل به ، في شجرة إشفافها على ابنها من النظام الذى وضعه زوجها لتربيته ! .. ولقد استوجب سلطان الصداقة أن انصرف إلى هذا الهدف أكثر من سواه ، برغم أنه لم يكن — فى حد ذاته — مما يصادف هوى من نفسى . ومن ثم فإن هذا المشروع هو الوحيد — بين كل المشروعات — التى ذكرتها من قبل — الذى أنجزته . ولقد كانت الغاية التى وضعتها نصب عيني — وأنا أعمل فيه — جديرة ، كما يتراءى لى ، بأن تتيح للمؤلف جزاء آخر غير الذى أتاحه . ولكن .. لتجنب الحديث هنا عن هذا الموضوع المحزن ، قبل أن يحين أوانه .. فسوف اضطر اضطرارا إلى الحديث عنه فيما بعد !

ولقد أمدتنى هذه المشروعات المتباينة بموضوعات للتأمل والتفكير فى نزهاتى اليومية . إذ أننى — وأعتقد اننى فكرت هذا من قبل — لا أستطيع التفكير إلا وأنا أتشى ، فمما أن أقف ، حتى أكف عن التفكير ، فليس فى وسع عقلى أن يتحرك إلا مع قدمى . على أننى اتخذت الحيلة ، فوفرت لنفسى عملا أؤديه داخل البيت فى الأيام المطيرة . ذلك هو « قاموس الموسيقى » ، الذى كانت مواده وأصوله مبعثرة ، ناقصة ، مشتتة بحال تجعل من الضرورى إعادة كتابة السفر كله ، من أوله إلى آخره تقريبا . ولقد ابتعت بعض الكتب التى كنت بحاجة إليها من أجل ذلك ، وقضيت شهرين فى السعى إلى الحصول على كثير من الكتب الأخرى ، التى استعمرت لى من

« مكتبة الملك » ، والتي أبيع لى أن أصبح بعضهما معى إلى « ليرميلاج » . هذه كانت المواد التى تهبى لى العمل فى البيت ، عندما لا يسمح الطقس لى بالخروج ، أو عندما أسأم النسخ والنقل . ولقد واغتنى هذا التدبير إلى درجة أننى واظبت عليه فى « ليرميلاج » وفى قصر « مونمورنسى » على السواء ، ثم فى ( موثير ) بعد ذلك ، حيث اكملت هذا المؤلف ، بينما كنت ماضيا فى مؤلفات غيره . وقد اعتدت دائما أن أجد فى تفسير الأعمال مادة للترويح حقا !

وتبعت فى دقة بالغة — ولفترة من الزمن — النظام الذى فكرته ، فوجدته صالحا للغاية ، ولكن الفصل الجميل (الربيع) لم يلبث أن زاد من تردد السيدة ديبيناي على ضيعة (ايبيناي) أو ضيعة ( لاشيفريت ) ، فوجدت من الشواغل — التى لم تكن تكبدنى من قبل شيئا ، ولكنى لم أحسب لها فى تدبيرى حسابا — ما مغل كثيرا من مشروعاتى الأخرى . فلقد قلت — من قبل — إن للسيدة ديبيناي خصالا بالغة اللطف ، إذ كانت تحب اصديقاءها حبا خالصا ، وتخدمهم بكثير من الشهامة ، ولا ترضن عليهم بوقت ولا بمال ، ومن ثم فاتها كانت تستحق — من جدارة — أن تجازى من ذلك برعاية خاصة . ولقد كنت — حتى ذلك الحين — أؤدى هذا الواجب ، دون أن أفكر فى أنه واجب ، ولكنى لم البث أن نهيت — فى النهاية — اننى مغلول بسلسلة لم يكن يحول دون شعورى بوطانتها سوى الصداقة وحدها ! . . ولقد ضاعفت من هذا العبء بنفورى من المجتمعات الحافلة ، إذ تكرمت السيدة ديبيناي فعرضت اقتراحا بدا ملائما

بالنسبة لى ، وأكثر ملاءمة بالنسبة لها ، ذلك هو أن تحيطنى  
علما بالأوقات التى تكون فيها على انفراد ، أو على وشك  
الانفراد . ولقد وافقت على ذلك ، دون أن أفطن إلى ما كنت  
أقيد به نفسى . وترتب على ذلك أننى لم أجد أودى لها زيارات  
فى الوقت المناسب لى ، ولكن فى الوقت المناسب لها هى ، وأننى  
لم أطمئن يوما إلى أن نهارى رهن رغبتى . ولقد أفسد هذا  
القيد — إلى حد كبير — ما كانت توغره لى زياراتى لها — فيها  
مضى — من متعة . . وتبينت أن الحرية — التى طالما وعدتني  
بها — لم تمنح لى إلا بشرط ألا أحظى بها إطلاقا ! . . ولقد  
رغبت — فى مرة أو مرتين — فى أن أجربها ، فإذا بكثير من  
الرسائل ، وكثير من المذكرات ، وكثير من أمارات الخوف تنهال  
من السيدة ديبيناي معربة عن قلقها على صحتى . . حتى تبين  
تماما ألا شفيح لى فى عدم الإسراع إليها لدى أول بادرة  
من رغباتها ، إلا بأن ألزم فراشى تماما !

وكنت مضطرا إلى أن أخضع لهذه الرقعة ، فأنصعت فى  
تساهل يفوق ما كان ينتظر من عدو لدود لكل ما يحد من  
الحرية . . وقد ساعد الوفاء الصادق — الذى كنت أكنه  
للسيدة — على الحيلولة، إلى حد كبير، دون أن أشعر بالأغلال  
التي كانت ترتبط بهذا الموقف . ولقد استطاعت السيدة ديبيناي  
أن تملأ بهذه الطريقة الفراغ — الذى خلفه غياب الظلة التى كانت  
تحيط بها — إلى حد ما . ولقد كانت التسلية التى ظفرت بها  
من نوع لا يلذ لها كثيرا ، ولكنها كانت أفضل من العزلة التامة،  
التي لم تكن تطيقها . على أنها أصبحت أقدر على ملء الفراغ

بسهولة ، عندما شرعت تجرب قلمها في الأدب ، ودخلت رأسها  
نزوة كتابة قصص ، ورسائل ، ومكاهيات ، وحكيات ،  
وما إلى هذه التفاهات ، كيفما اتفق لها . . . على أن الكتابة لم تكن  
أعظم ما لذ لها بل أن أكثر ما طاب لها هو قراءة ما كانت تكتب . . .  
فإذا هي سودت صحيفتين أو ثلاثا ، كان من الضروري لها أن  
تطمئن إلى وجود اثنين أو ثلاثة ينصتون إلى هذا العمل الضخم  
ويحفظونه . ونادرا ما كنت أخفى بشرف أن أكون واحدا من  
هؤلاء الصفوة المختارة ، اللهم إلا إذا شفع لى مستمع آخر . . .  
ذلك لأننى كنت — وحدى — لا أكاد أساوى شيئا ينكر ، لا فى  
ندوة السيدة ديبيناي محسب ، وإنما فى ندوة السيد دولباخ ،  
وحيثما كان جريم نجما متالقا . . . وكان هذا التجاهل التام  
لقدرى يلائمنى تمام الملاءمة ، اللهم إلا عندما أكون مع السيدة  
وحيدى ، إذ أنفى لم أكن أعرف أى مسلك اتخذ . . . ذلك لأننى  
لم أكن أجرؤ على الحديث فى الأدب — إذ لم أكن أعتبر كفاء  
لإبداء الراى فيه — ولا فى آداب السلوك والمجاملة والإيفاس ،  
لأننى كنت مفرط الخجل ، وكنت أخشى الظهور بمظهر مضحك  
أمام غائية عجوز ، أكثر من خشيتى الموت . . . فضلا عن أن  
هذه الفكرة لم تخطر ببالى إطلاقا عندما كنت برفقة السيدة  
ديبيناي ، ولا كان من الممكن أن تخطر مرة واحدة فى حياتى ،  
ولو قدر لى أن أعيش طيلة عمرى بصحبته . . . وما كان ذلك  
لأننى كنت أضمر نفورا شخويا منها ، بل لعلى — على  
النقيض — كنت أحبها كل الحب كصديقة ، وكنت قادرا على  
أن أحبها كمشيقة . . . كان يروق لى أن أراها وأن أجاذبها  
الحديث . ومع أن حديثها كان طلبا — إذا ما كانت فى جماعة —

إلا أنه كان ممضا في الجلسات الخاصة .. أما حديثي أنا ، فلم يكن ليقا سيالا ، ولم يكن ذا عون كبير في ايناسها .. وكنت حين أخجل من الصمت فترة طويلة ، أرهق نفسي في سبيل بحث الحياة في الجلسة . ومع أن هذا كثيرا ما كان يتعبني ، إلا أنه أبدا ما ضايقتني ! .. كنت أبدى لها آيات الغزل عن طيب خاطر ، وامنحها بعض قبلات اخوية صغيرة ، لم يكن يلوح لي أنها ذات إثارة حسية لها .. وكان هذا غاية ما في الأمر ! .. فلقد كانت مغرطة النحول ، شديدة البياض ، ذات صدر ميسسوط كراحتي ! .. وكان هذا العيب وحده ، كافيًا لأن يطلني كل حرارة في كيائي ، فما قدر لقلبي ولا لحسي يوما أن يريا أية انوثة في امرأة بلا نهدين .. وقد كانت ثمة أسباب أخرى — لا جدوى من ذكرها — تجعلني أنسى الناحية الجنسية دائما ، إذا ما كنت بالقرب من السيدة بيناي !!



أما وقد رضت عقلي على قبول تبعية لا غنى عنها ، فأننى اسلمت نفسي لها دون ما مقاومة فالفيتها — في العام الاول ، على الأقل — أقل مبدءا مما كنت أتوقع . وكانت من عبادة السيدة ديبيناي أن تقضى الصيف بأسره — تقريبا — في الريف . ولكنها لم تقض هناك ، في هذا العام ، سوى شطر منه .. إما لأن أعمالها كانت تتطلب وجودها في باريس ، وإما لأن غياب « جريم » جعل الإقامة في « لاشفريت » أقل ملاءمة لها من ذي قبل . ولقد كنت أستغل الفترات التي لم تكن تقضيها هناك ، أو التي كانت تستضيف خلالها كثيرا من الناس ، لأنعم

بعزلتى مع تيريزى الطيبة وأما ، على نمط يجعلنى أعرف لهذه  
الفترات قدرها . ومع أننى كنت قد اعتدت — لبضع سنوات —  
أن أتردد على الريف كثيرا ، إلا أننى لم أكن أستمتع بهذه  
الرحلات ، إذ أنها كانت دائما فى صحبة أشخاص محبين  
للمظاهر ، وكانت دائما ما تفقد بهجتها بتأثير الشعور بالتقيد  
والحرج ، وإن كانت قد أنكت فى نفسى الميل إلى المتع الريفية ..  
وكنيت كلما لمحت هذه المتع من كئيب ، ازدادت شعورا بحرمانى  
منها . كنت قد سئمت — كل السأم — « صالونات » باريس ،  
ونافورات الماء ، والبساتين ، وحدائق الزهور . وكان أصحابها  
أشد بعتا للملل .. كنت ضجرا من التطريز ، والمعزف ، وحبك  
الصوف ، والانحناءات ، والمجاملات الحمقاء ، والعواطف  
الضحلة ، ورواة القصص التافهين ، ومآذب العشاء الكبيرة ،  
حتى أصبحت إذا ما لمحت — بنظرة من ركن عيى — شجرة من  
أشجار الصنوبر ، أو عشا من الأعشاب الشوكية ، أو سياج  
مزرعة ، أو مخزنا للفلال ، أو مرجا .. وحتى أصبحت إذا  
ما سمعت — وأنا أمر بمزرعة — عبر « العجة » المتويلة  
بالأعشاب الشذية .. وحتى أصبحت إذا ما سمعت عن بعد  
أصوات الماعز الرفيعة .. أصبحت أتمنى ازاء هذا كله ، أن  
يذهب كل الطلاء الأحمر ، والمساحيق ، والعطور ، إلى  
الشیطان ! .. وكنت أنحسر على الغداء الذى تعده الزوجة  
المتفرغة لبيتها فى الريف ، والنبيذ المحلى .. وكنت أود — من  
قلبي — أن ألكم السيد الطاهى ، والسيد رئيس السقا ، اللذين  
كنا يضطرانى إلى أن أتناول الغداء فى موعد عشائى المعتاد ،  
وإن أتناول العشاء فى الساعة التى اعتدت أن أنام فيها ..

وكننت أود - فوق كل شيء - أن أصنع السادة خدم الموائد الذين كانوا يلتهمون بأعينهم اللقم التي أكلها ، ويبيعونى - إذا لم أتنا أن أموت ظمأ - نبيذ مخدومهم المعلق ، بما يفوق عشرة أمثال ما أنفعه من أجله في أرقى حانة !

ولكن . . ها آنذا أخيرا في داري ، في ماوى منغل مستحب ، حر في أن اقضى أيامى في حياة مستقلة ، متشابهة ، آمنة ، كنت أشعر أننى إنما خلقت لأتمتع بها ! . . وقبل أن أنكر الأثر الذى أحدثه هذا الوضع - الجديد على - في نوادى ، يروق لى أن ألخص الميول الخفية لهذا القلب ، حتى يتسنى للإسلام بجلاء بأسباب هذه التطورات الجديدة .



لقد اعتدت دائما أن أعتبر يوم اتحادى مع تيريز هو التاريخ الذى أصبحت فيه حريصا على مبادئ الخلق . فلقد كنت بحاجة إلى ود وثيق ، مذ انقسم في مسوة ذلك الود الذى كنت مكتفيا به . . ان الظلم إلى الهناء لا يمكن أن يرتوى في قلب الإنسان ! . . ولقد كانت « ماما » تسعى إلى الشيخوخة ، وتحذر إلى البهوان ، وكان من الواضح لى أنها لن تسعد ثانية على الأرض ، فلم يبق لى سوى أن أبحث عن سعادة لنفسى ، بما دمت قد فقدت كل أمل في أن أقاسمها سعادتها ! . . رحبت أطفو من فكرة إلى فكرة ، ومن خبطة إلى خبطة ، بعض الوقت . وكانت رحلتى إلى ( البندقية ) خليقة بأن تزج بى في الشئون العامة ، لو أن الرجل الذى قدر لى أن أرتبط به ، كان على شيء من الإدراك السليم . وأنا ممن يسهل هبوط عزيمتهم ،

لا سيما في المشروعات الشاقة البطيئة . لذلك فان ضعف نجاح هذا العمل ( الشئون العامة ) نفرنى من أمثاله . ولما كنت - وفقا لمبدئى القديم- أنظر إلى الأهداف البعيدة، على أنها أحليل للحمقى ، فقد وطلنت العزم على أن أعيش - بعد ذلك - دون أية خطة مرسومة ، إذ أننى لم أمد أرى شيئا في الحياة كان قادرا على أن يغيرنى على أن اتعب نفسى !

وفي هذه الفترة بالذات ، بدأ تعارفنا ، فلاح لى أن لطف شخصية هذه الفتاة الطيبة ، يتمشى مع طبيعة شخصيتى ، حتى أننى ارتبطت بها بعاطفة لم يقو الزمن ولا الزلات على إيهانها ، ولم يؤد أى شئ - كان يحتمل أن يفصمها - إلا إلى توثيقها . ولسوف تتبدى قوى هذه الرابطة فيما يلى ، عندما اكشف عن الجراح والالام التى خلفتها فى قلبى - فى أوج تعلستى - دون أن تبدر منى شكوى واحدة ، حتى الوقت الذى اكتب فيه هذه السطور !

وعندما يعرف إننى - بعد أن فعلت كل شئ ، وبعد أن جابهت كل عناء لاتفادى مراقبا ، وبعد أن عشت معها خمسا وعشرين سنة برغم سجية البشر - أقدمت فى النهاية على الزواج منها فى شيخوختى ، دون أن يكون لديها أى توقع أو أى رجاء ، ودون أن ارتبط معها بخطوبة أو بوعد .. عندما يعترف هذا ، يسهل على المرء أن يصدق أن الحب الجامح ، الذى عبث برأسى منذ اليوم الأول ، قد قادنى تدريجا إلى آخر حماقاتى .. ولسوف يزداد المرء اقتناعا بهذا ، إذا ما عرّف الأسباب الخاصة ، والقوية ، التى كانت خليقة بأن تمنعنى من

أن أقدم على شيء كهذا .. فماذا يظن إذن ، إذا أنا أعلنت  
- بكل ما لا بد أن يكون قد عرفه في خلقى من صدق - أنني منذ  
اللحظة الأولى التى رايتها فيها ، حتى يومنا هذا ، لم أشعر  
نحوها بأضال قبس من الحب ، وأننى لم أعد أكثر اشتها  
لمضاجعتها ، منى لمضاجعة السيدة دى فاران ، وإن الرغبات  
الحسية التى كنت أشبعها لديها ، لم تكن - فى نظرى - سوى  
استجابة للنوازع الجنسية ، دون أن يكون لها أية علاقة بالفرد ؟  
.. لقد يعتقد القارىء أننى إذ أوتيت بنية تخطف عن بنية  
سواى من الرجال ، كنت عاجزا عن أن أشعر بالحب ، لا سيما  
وأنه لم يدخل قط بين المشاعر التى ربطتنى بتركها المراتين اللتين  
كاتفنا أمز النساء لدى . ولكن ، صبرا يا قارئى ! .. ان اللحظة  
المشئومة تقترب ، وستجد أنك مخدوع أكثر مما تخال !

\* \* \*

إننى أكرر حديثى ، وأنى لأدرك ذلك ، ولكنه أمر لا بد منه .  
لقد كانت أولى ، وأعظم ، وأقوى ، وأعتى حاجاتى جميعا ،  
تتجصر بأكملها فى مؤادى .. تلك هى الحاجة إلى زمالة أشد  
ما تكون ألفة وقربى وتوثقا .. ومن أجل هذا الغرض - بوجه  
خاص - كنت محتاجا إلى امرأة أكثر منى إلى رجل .. إلى  
صديقة ، أكثر منى إلى صديق . وكانت هذه الحاجة من التفرد  
بحيث أن أوثق العلاقات الجسدية ما كانت لترضيها .  
كنت أتوق إلى روحين فى جسد واحد وقد ظلت - بدون ذلك  
- أشعر بالفراغ دائما !

ولقد ظننت أن اللحظة التي لا أعود أشعر فيها بذلك ، قد حانت .. فان هذه الشابة اللطيفة ، كانت كفيلة — بفضل الف من الصفات الرائعة ، بل وبفضل مظهرها الشخصي الذي كان خلوا من أى افتعال أو إغواء — بأن تستوعب كل كيائى فى كيائها ، لو أئنى استطعت أن استوعب كيائها فى كيائى ، كما كنت آمل !

ولم يكن لى ما أخشاه من ناحية الرجال — فقد كنت موقنا من أئنى الرجل الوحيد الذى أحبته تيريز حباً صادقاً — وكانت شهواتها من الفتور بدرجة أنها نادراً ما كانت تشعر بحاجة إلى رجال غيرى ، حتى عندما كنت عن أن أكون رجلها فى هذا المجال ! .. ولم تكن لى أسرة ، فى حين أنها كانت ذات أسرة ، ولم تكن هذه الأسرة — التى كان أفرادها جميعاً من صنف يخالف فى الخلق صنفها — بالتى أستطيع أن أعتبرها كاسرتى .. وكان هذا أول أسباب شقائى ! .. ما الذى كنت أتردد فى أن أجود به ، لكى أضع نفسى من أمها موضع الابن ؟ .. لقد حاولت ما وسعتنى الحيلة ، دون أن أوفق إطلاقاً ! .. كان من العبث أن أحاول أن أوجد كل مصالحنا ، فقد كان هذا مستحيلاً .. إذ كانت الأم لا تنفك تخلق مصالح تختلف من مصالحى ، ثم تضعها فى وجه هذه ، بل وضد مصالح ابنتها برغم أن الصنفين لم يكونا مختلفين ! .. ولقد أصبحت وأولادها الآخرين وأحفادها ديدانا ظالمئة إلى الدماء ، وكان

أبسط ضرر الحقوه بتيريز ، هو أنهم راحوا يسرقونها .  
 إذ كانت الفتاة المسكينة قد تعودت أن تنصاع ... حتى لبنات  
 أخواتها ... فتركت نفسها نهبا ومطية ، دون أن تنبس ببنت  
 شفة . . ولقد آلمني أن أرى أنه لم يكن بوسعني أن أفعل شيئا  
 لمساعدتها ، برغم أنني كنت أعتصر مواردني ونصائحي في هذا  
 السبيل ! . . ولقد حاولت أن أقصيها عن أمها ، ولكنها كانت  
 تعارض هذا دائما ، فاحترمت معارضتها ، وازددت تقديرا  
 لها ، بيد أن هذا لم يحل دون أن يكون رفضها ضارا بمصالحها  
 مصالحتي . كانت مطبوعة على الوفاء لأمها وبقية أسرتها ،  
 ومن ثم فقد كانت ملكا لهم أكثر مما كانت ملكا لي ، بل وأكثر  
 مما كانت ملكا لنفسها !

---

## (( كتابي ))

### صدر من هذه السلسلة :

- |                                  |                                   |
|----------------------------------|-----------------------------------|
| ٢٥ - الحرب والسلام ج ٤ .         | ١ - وجوه الحب السبعة .            |
| ٢٦ - تعلم كيف تسترخي .           | ٢ - الحبــــــــــــــــب الأول . |
| ٢٧ - مركب النقص .                | ٣ - جريمة حب .                    |
| ٢٨ - غرام سسوان ج ١ .            | ٤ - أنسا كارلينا .                |
| ٢٩ - غرام سسوان ج ٢ .            | ٥ - الحرب والسلام ج ١ .           |
| ٣٠ - كيف نجحوا في الحياة .       | ٦ - الحرب والسلام ج ١ .           |
| ٣١ - كيف تحصل على الثروة .       | ٧ - الخاطنة .                     |
| ٣٢ - غرام سسوان ج ٢ .            | ٨ - البؤساء ج ١ .                 |
| ٣٣ - لماذا أنت عصبى .            | ٩ - مدام بوفارى ج ١ .             |
| ٣٤ - عش بحكمة عش سليما .         | ١٠ - مدام بوفارى ج ٢ .            |
| ٣٥ - زواج الحب .                 | ١١ - البؤساء ج ٢ .                |
| ٣٦ - التحليل النفسى للأحلام .    | ١٢ - الخطيئة الأولى .             |
| ٣٧ - حذار من الشبهة .            | ١٣ - القتلــــــــــــــــون .    |
| ٣٨ - أمير الانتقام .             | ١٤ - الحب هو الكنز .              |
| ٣٩ - اعترافات جان رسو ج ١ .      | ١٥ - فن العيش .                   |
| ٤٠ - اعترافات جان رسو ج ٢ .      | ١٦ - د. زيفاجسو ج ١ .             |
| ٤١ - اعترافات جان رسو ج ٢ .      | ١٧ - د. زيفاجسو ج ٢ .             |
| تحت الطبع :                      | ١٨ - د. زيفاجسو ج ٣ .             |
| ٤٢ - اعترافات جان رسو ج ٤ .      | ١٩ - د. زيفاجسو ج ٤ .             |
| ٤٣ - اعترافات جان رسو ج ٥ .      | ٢٠ - البؤساء ج ٢ .                |
| ٤٤ - مرتفعات ويلرنج ج ١ .        | ٢١ - الحرب والسلام ج ٢ .          |
| ٤٥ - مرتفعات ويلرنج ج ٢ .        | ٢٢ - محبــــــــــــــــة سقراط . |
| ٤٦ - مرتفعات ويلرنج ج ٣ .        | ٢٣ - الجريمة لا تفسد .            |
| ٤٧ - قلوب غــــــــــــــــالة . | ٢٤ - نساء ومآسى في ساحة           |
| ٤٨ - أوديب .                     | العنالة .                         |

## اعترافات جان چاه روسو - الجزء الثالث ٥٠٥

|                         |                          |
|-------------------------|--------------------------|
| ٤٩ - عاشقات في الخريف . | ٦٢ - نينو تشسيكا ج ٢ .   |
| ٥٠ - أسرار الجاسوسية .  | ٦٣ - ميساريا ايفانوفنا . |
| ٥١ - الابن الضال .      | ٦٤ - الخسوف .            |
| ٥٢ - ارواح هالمة .      | ٦٥ - البعوضة .           |
| ٥٣ - الشجار للوطن .     | ٦٦ - الائمة ج ١ .        |
| ٥٤ - المسبحة ج ١ .      | ٦٧ - الائمة ج ٢ .        |
| ٥٥ - المسبحة ج ٢ .      | ٦٨ - الائمة ج ٣ .        |
| ٥٦ - بشر سبع ج ١ .      | ٦٩ - القمصية ج ١ .       |
| ٥٧ - بشر سبع ج ٢ .      | ٧٠ - القمصية ج ٢ .       |
| ٥٨ - جين ايسر ج ١ .     | ٧١ - القمصية ج ٣ .       |
| ٥٩ - جين ايسر ج ٢ .     | ٧٢ - بوشكين .            |
| ٦٠ - جين ايسر ج ٣ .     | ٧٣ - ذات الرداء الابيض . |
| ٦١ - نينو تشسيكا ج ١ .  |                          |

اقرأ في الجزء الرابع

تحليل «روسو» لعلاقاته بـتيريز ، وحبّه لـدام دوديتو،  
والمؤامرات التي تعرض لها ، والصراع الذي دار بينه  
وبين أصدقائه الحاقدين وأعدائه الألداء ، وغضب  
الحكومات عليه ، وهجره للأدب .

رقم الإيداع : ٤٣٧٩

الترقيم الدولي : ٦ - ٠٨٠ - ١٦٣ - ٩٧٧

المطبعة العربية الحديثة

٨ شارع ٧ بالنقطة الصناعية بالعباسية

طيفسون : ٨٢٦٢٨٠ القاهرة





## مطبوعات كتابي إصدار جديد

### عزيزى القارئ :

إذا أردت أن تعرف قيمة الكنز الأدبي الخالد الذى توافيك به (مطبوعات كتابي) اليوم ، فإليك ما كتبته عنه المفكر المطلع الأستاذ «سلامة مرسى» فى عدد ١٩ نوفمبر عام ١٩٥٥ من جريدة (أخبار اليوم) . إذ قال :

«واعترافات جان چاك روسو من الكتب التى كان يجب أن تُترجم إلى لغتنا قبل ١٠٠ أو ١٥٠ سنة ...» .

كما كتب الأديب والشاعر الكبير الأستاذ «عبد الرحمن صدقي» فى مقال بمجلة (الثقافة) بتاريخ ١٤ نوفمبر ١٩٢٩ يقول : «انقضت نيف ومائة وستون سنة على وفاة «روسو» ، وانصرف الأدباء وجهرة القراء عن مطالعة كتب «روسو» الأخرى ، ولكنهم لم ولن ينصرفوا عن مطالعة (اعترافاته) ، ذلك أن الآراء فى السياسة والاجتماع والتربية والأخلاق يدخلها التخيير والتبديل ، أما نجوى النفس البشرية فهى لا تتغير ولا تبدل .»

والواقع أن هذه (الاعترافات) التى تقدم (مطبوعات كتابي) إليك اليوم أول ترجمة أمينة «كاملة» لها باللغة العربية ، هى أدق وأصدق مصدر لسيرة المفكر العبقري «جان چاك روسو» ولقد كان من أهم الميزات التى كتبت الخلود لهذه الاعترافات ، أنها كانت أول عمل أدبي يكشف صاحبه فيه عن نفسه ، فقد سجل «روسو» فى هذا الكتاب أدق أحداث حياته - خيرها وشرها ، مليدها وخبيثتها - دون أن يجفل من مواجهة الحقيقة !

هاني مراد



To: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)